يا طرابلس
يا عزيزه عليَّهْ



د. عبدالله بن سويد

جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس
Old Tripoli City Administration Board

دولة ليبيا
جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس

ياطرابلس .. يا عزيزة عليه
رحلة ثلاثة آلاف سنة
(من: 1000ق.م، إلى: 1951م)

جمع وتهذيب وترصيف
أ.د. عبدالله عبد الحميد بن سويد

إشراف ومتابعة
يوسف خليل الخوجة

مراجعة
سعيد علي حامد

تصميم وتنفيد
نرجس ناجي علي

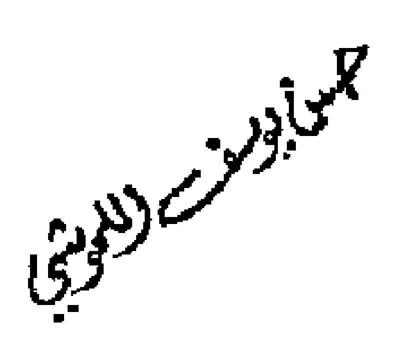
منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس 2023م

تنفيذ | شركة ألف لخدمات الدعاية و الإعلان
info @1000.ly

الطبعة الأولى 2023م

ياطرابلس .. يا عزيزة عليه

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
ردمك ISBN_978_9959_976_08_6
الايداع القانوني 2021/1287م
دار الكتب الوطنية
بنغازي _ ليبيا



بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدمة

عُدْتُ إلى التّاريخ، جمعتُ فلخّصتُ، ثُمَّ رتّبتُ ونظّمت فكان هذا المصنف ثمرة لمصادر ومراجع مثبتة في الخاتمة، وفيه ما يتعلّق بطرابلس الغرب من أخبار، وما تعاقب عليها من أمم، وما وقع فيها من حروب وثورات، وهو تذكير بمظاهر الحياة فيها، وما دَوّن الرّحالة والمؤرخون عنها، والتاريخ مرآة الأمة، ترى فيه صورها في أطوارها المختلفة، وبعد هذا وذاك هي طفولتي وصباي وشيخوختي، ذكرياتي التي تمتدّ لأكثر من سبعين حولًا.

وأحسب أنَّ كتابي هذا بسرده الجيّد، وتنظيمه المحكم، وزخم معلوماته، وموضوعية رؤيته، وجرأة أحكامه، واختيار لقطاته من مصادر ومراجع موثوقة- يشدك إليه، ما يجعلك جزءاً من تاريخ مدينتي!!

تنبيه: مبدؤهُ- ملجؤهُ- أخطَؤُوا- أنْشَؤُوا، وما شابه ذلك، باعتبار أنّ الهمزة متوسطة، يُنظر كتابي: قواعد الإملاء، كيف تكتب من دون أخطاء إملائية.

ملحوظة: يا طرابلس يا عزيزة عليَّه: الأصل عَلَيَّ، والهاء للوقف على الكلمة وتعرف بهاء السكت وقد وردت في القرآن الكريم: ماليَهْ- سلطانيَهْ، أي: مالي وسلطاني.

شكر وتقدير

المراجعة العلمية للأستاذ الباحث الطرابلسي سعيد علي حامد فله الشّكر والتّقدير،والتّحية للأستاذ الباحث الطرابلسي يوسف خليل الخوجة المشرف على إصدارات الجهاز، والتحية للأستاذة فاطمة شنيبة بإدارة التوثيق والدراسات الإنسانية، وإلى العاملين بمكتبة بيت النويجي للثقافة حيث المصادر والمراجع التي خدمت هذه الدراسة، والإكبار للمهندس محمود الهاشمي النعاس رئيس جهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس لرعايته للثقافة والفنون.

الإهداء

إلى المدينة القديمة أطرابلس الَّتي وُلِدْتُ في أحضانها، وترَعْرَعْتُ بين جنباتها، وتتَلْمَذْتُ على مشايخها وعلمائها، وتعَلَّمْتُ في كتاتيبها ومدارسها، وقرَأْتُ ما جاد به الرّحالة والمؤرخون والباحثون عن تاريخها عبر الأزمان والعصور، فَازْدَدْتُ عشقًا لها وتمجيدًا.

عبدالله بن سويد

زنقة زعطوط رقم –10 المدينة القديمة أطرابلس

محمد أيوب الدويشي

المكوِّنات

الموضوع

الأهالي (السُّكَّان الأوائل)

يخبرنا التاريخ عن قبائل ليبية تجوب السّاحل والصحراء منذ أقدم العصور، والنقوش والرّسوم التي عُثِر عليها تحكي قصة الأرض والشّعب.

من القبائل الليبية القديمة قِدَم التاريخ «اللّيبو» والتي ظهر أفرادها في اللوحات والنقوش بعيون زرق، وعباءة فضفاضة تلف الجسم، يظهر منها أحد الكتفين عاريًا، وذؤابة (شوشة) على الرأس، ومن اسمهم اشتقّ اسم «ليبيا» وهؤلاء قطنوا منطقة الجبل الأخضر.

والمشواش من القبائل الليبية القديمة أيضًا، وكان استقرارهم في المنطقة الشرقية من ليبيا، ومن المعروف أنهم قد اشتهروا بالقدرة القتالية العالية، استخدموا السيوف الطويلة المصنوعة من البرنز، وتميّزوا باستخدام العربات الحربية، ومن أبرز قادتهم: شيشنق الأول الذي اعتلى عرش مصر بتأسيسه الأسرة الثانية والعشرين سنة 950ق م، ويذكر الباحثون قبائل أخرى كانت منتشرة في المنطقتين الغربية والجنوبية.

وتاريخ ليبيا هو الذّي ألزم الفيلسوف أرسطوطاليس (القرن الخامس قبل الميلاد) أنْ يقول للدنيا قاطبة مقولته الباقية «من ليبيا يأتي الجديد»، وأيًّا كانت دلالاتها، فهي منبع دائم مستمر منذ طفولة البشرية، وإلهام في الحضارة الإنسانية، إنها بذور ليبيا الخالدة، بعبارة الأثري اللّيبي داوود حلاق.

ويرى بعض المؤرخين أن موقع طرابلس القديمة كان مستوطنًا منذ عهود ما قبل التاريخ من القبائل التي جابت الساحل والصحراء أمّا الاستقرار الأول فقد بدأ مع تجوال الفنيقيين في سواحل البحر الأبيض المتوسط ما بين سنتي1200 ق م. و900 ق م.

الفنيقيّون في طرابلس (1000 ق م.)

تأسيس مدينة طرابلس القديمة يرتبط بظهور الفينيقيين– وهم من الكنعانيين– الذين سكنوا في الجزء الذّي يَضُمُّ مدينتي صور وصيدا، وقد وصف الشاعر الإغريقي هوميروس الفنيقيين بالمهارة في ركوب البحر، وفي الصناعات اليدوية.

أقام الفنيقيّون حضارة مزدهرة، واشتهروا بصناعة الأدوات الزجاجية، وطَرق المعادن، وعُرِفُوا بالمنسوجات المصبوغة باللون الأُرجواني، وهو الصبغ الأحمر، وفينيقي هو: الاسم الذي أطلقه اليونانيّون على الساحل اللبناني، ومن مدن صور وصيدا يركب الفنيقيّون – التّجار المجازفون – مراكبهم ذات الأشرعة، وينطلقون مندفعين في مغامرات بحثًا عن أماكن غنية وآمنة.

(صيدا: زعيمة المدن الفينيقية ثم خلفتها «صور»، والفينيقيّون من الجنس السامي (العروبي)، وقد نُكِبُوا بالأشوريين والفرس والروم عبر تاريخهم.)

مع قدوم الألفية الأولى قبل الميلاد كان الفينيقيون في شرقي البحر الأبيض المتوسط وغربيّه، أسَّسُوا مستوطنات في قبرص، ورودس، وكريت، وسردينيا، وكورسيكا، وصقلية، وسيطروا على سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وجازوا شمالاً إلى بريطانيا.

عرف الفنيقيّون الشواطئ الطرابلسية وهم يطؤون شواطئ البحر الأبيض المتوسّط، وامتد نشاطهم إلى بقع في المنطقة بغرض تزويد سفنهم بالمؤن والماء، وقد شكلت تلك الأمكنة موانئ شحن لمنتجات أواسط إفريقيا من الذهب والأبنوس، وكان الإقليم كله غنيًّا بالنعام، وريشه، وبيضه، والأحجار الكريمة ومن أهمها العقيق وهو الحجر القرطاجي كما سمّاه الإغريق.

من بين واردات الفينيقيين الفضة والرصاص والحديد والقصدير من إسبانيا، والدّقيق والنحاس والأواني من أيونيا، والكِتّان من مصر، والتوابل من بلاد العرب، والعاج والجلود من إفريقيا، وكانت صادراتهم الخشب والقمح والزّيت والخمور والملابس والصناعات المعدنية.

القِرْطاجيّون في طرابلس (515 - 165 ق م.)

تراخت خيوط الإمبراطورية الفينيقية، فحان للمستوطنات الفينيقيّة أنْ تدخل في فلك قوة ناشئة فينيقية الأصل وهي «قرطاج»، التي تأسست سنة 814 قبل الميلاد على مدخل الخليج التونسي وهي من أقدم المستعمرات الفينيقية في السّاحل الإفريقي، وكان تأسيسها على يد إمارة صور أو على يد إمارة صيدا كما ذكر بعض الباحثين، وتبعد قرطاج عن تونس العاصمة بنحو 25كم، وقد شهد الرّحالة والمؤرخون بعظمتها.

(قرطاج أَوْ قرطاجة ومعناها المدينة الجديدة، ومازالت أطلالها موجودة بتونس وقد عرفت قرطاجة علماء وباحثين في مختلف فنون المعرفة الإنسانيّة. منهم: العالِم الفلاحي «ماغون» ذو المعرفة الزّراعية الدّقيقة، الذي أسهم بدراسات دقيقة في طبيعة الأرض، وطرق الفلاحة، وقد ذاع صِيت موسوعته في العالم القديم، ولأهميتها قرّرَ مجلس الشُّيوخ بروما نقلها إلى اللاّتينيّة، وبكلّ هذا وذاك كانت للفنيقيّين والقرطاجيين حضارة راقية، ومدنيّة زاهرة، وثقافة رصينة، والحضارة: مجموعة من المظاهر التي تميّز مجموعة بشرية من حيث المسكن والملبس وأدوات العمل وطرق الإنتاج والثّقافة والفكر.)

وثيقة: «اجعلْ بين شجرتي الزّيتون مسافة خمسة وسبعين قدماً في جميع الاتّجاهات، على ألاّ تَقِلّ المسافة عن خمسة وأربعين قدماً إذا كانت التُّربة خفيفة ومُعَرَّضة للرّيح... واجعلْ الكروم قبالة الشَّمال لتفادى القيظ، واغرسها في حفر، ترصِّعها بحجارة لتحمي عروقها من أمطار الشّتاء الجارفة، ومن حرارة الصّيف اللاّفحة». (ماغون)

(عاش ماغون ما بين القرنين الثّالث والثّاني قبل الميلاد، وله موسوعه في علم الفلاحة.)

وأضحت «قرطاج» مدينة عظيمة، وعُرف قاطنوها بالقرطاجيين، وتحولت المستوطنات الفينيقية إلى مستعمرات قرطاجية، وحاول الأهالي من حين إلى آخر فك ارتباطهم بقرطاج كلما شعروا بالتهميش والإقصاء.

من الأحداث التاريخية في هذه الحقبة الصراع المسلح بين القرطاجيّين والإغريق، حيث حاول دوريوس ابن ملك إسبرطة إقامة ملك له في إقليم طرابلس فأسَّس مستوطنة عند مدخل وادي كعام، ولكن المغامرة الإغريقية باءت بالفشل، حيث تصدّت القبائل الليبية لها، وبمساعدة قوية من القرطاجيّين الذين شعروا بالخطر باقترابه من مدينتهم قرطاج، وكان طرده خلال العام الثالث من إنشائها، كما حقّق الباحث الأكاديمي اللِّيبي رجب عبدالحميد الأثرم في كتابه «محاضرات في تاريخ ليبيا القديم»، ويشير هيرودوت أن تأسيس المستعمرة الإغريقية كانت سنة 520 ق م. وتمْ طردهم سنة 517 ق م، واشتهرت بعد ذلك أسطورة قوس الأخوين فيليني **fileni** والذي يرمز إلى الحدود بين القرطاجيين في الغرب، والإغريق في الشرق، وهي من مرويات المؤرخ الروماني كريسبوس سالوستيوس (86_34 ق م)، في كتابه **Bellum Jugurthinum** كما يذكر الباحث الإنجليزي أنتوني كاكيا.

(من مؤلفات كريسبوس سالوستيوس كتابه«الحرب اليوغرطية» ترجمه الباحث الذويب)

(سيأتي وصف قوس الأخوين فيليني الذي شيّده الإيطاليون)

أنشأ القرطاجيون لبدة بعد دحر الإغريق، ومن المرجّح أنْ تكون صبراتة وأويات قد ظهرتا للوجود في تاريخ لاحق لإنشاء لبدة ويرجّح الباحث الأثرم ذلك بأنه لو كانت لبدة موجودة آنذاك لأسهمت مع القرطاجيين والقبائل الليبية في القضاء على المستعمرة الإغريقية، ولَذُكِرَت في التاريخ.

يقول هيرودوت أنه بعد مرور ثلاث سنوات قام القرطاجيون بمعاونة القبيلة الليبية المكاي بطرد الإغريق إلى البحر ويدل عدم ذكر لبدة في هذا الحدث أنها لم تكن مستعمرة في ذلك الوقت (آثار طرابلس الغرب لهاينز).

في موقع صالح للبناء على ساحل البحر أقام القرطاجيون مدينة نسبوها إلى معبودهم مالكارت **Melcart** أي: مَلِك الأرض، حامي الثروة والصناعة والملاّحين، وسمّوها «أُويات»، ومع الأيام أخذت المدينة الصيغة اللُّغوية التي تداولتها الألسن «أُويا» (**Oea**).

وبهذا يمكن القول إنَّ أواخر القرن السادس قبل الميلاد شهد الإمبوريا الثلاث: لبتس ماجنا، وصبراتة، وأويات، ووضعت ضمن المناطق التي تهيمن عليها قرطاج، التي شَيَّدت الطريق منها إلى المدن الثلاث الطرابلسية، فأضحت الطرق البحرية والبرية شرايين لتوفير الحياة لأويات، وهي في طور النشوء والارتقاء.

(الأمبوريا (المركز التجاري) وهو الاسم اليوناني الذي عُرفت به المستعمرات الفينيقيّة الساحلية في إقليم المدن الثلاث.)

وقد وجد الأثريون في نقود بونيقية هذا الاسم (أُويات) للدلالة على طرابلس القديمة، ويُظَنُّ أنه يرجع إلى اسم شخصية، أو قبيلة ذات مكانة ليبية أو فينيقيّة، ولا يوجد أثر ظاهر لوجود الفنيقيين القرطاجيين سوى ما اكتشف تحت الأرض من لُقْيات معروضة في متحف السراي الحمراء وغيره، تؤشر على استيطانهم للمدينة ومن أشهر المكتشفات: مقابر برج الدالية التي قام الأثرى الإيطالي أوريجيما بدراستها وصدر له كتاب يتناول اللقيات الأثرية بها، والتي كانت نواة لإنشاء متحف الآثار بطرابلس كما يذكر الباحث

التاريخي سعيد على حامد، ودليل متحف الآثار بالسراي الحمراء، وكتاب طرابلس منذ العهد الفينيقي حتي العهد البيزنطي للباحثين محمود أبو حامد ومحمود النمس يوثق هذه المرحلة، وللباحث الأثري الطرابلسي رمضان الشيباني محاضرة عن العالم السفلي لطرابلس القديمة أوضح من خلالها آثارهم وآثار من جاء بعدهم- أُلقيت بدار حسن الفقيه حسن بجهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس.

وحروب بونية ثلاثة دارت بين روما وقرطاج (246-146ق م.) الأولي: من سنة 246_231 ق م. فقدت فيها قرطاج ممتلكاها في صقلية، والثانية: من سنة 218_202ق .م أثناء هذه الحرب قاد حنبعل جيوشه وهو في السادس والعشرين من العمر، وكان تعدادها قرابة تسعين ألف من المشاة، واثني عشر ألف من الفرسان، وستين فيلًا، وآلاف البغال المحملة بعتاد الحرب ويتخطّى جبال الألب التي تنحني لقامته، ويظهر تحت أسوار روما سنة 211ق م. ويطلق سهمه نحو بوابتها الضخمة المتينة التي لم يقدر على تخطيها، بعبارة الكاتب اللِّيبي الصّادق النيهوم، ويُذْكَر أنّ من بين جند حنبعل 450 فارساً من المدن اللّيبو قرطاجية، وقد عُرِفَتْ تشكيلاته اللّيبية بدقة الأجسام، والصبر على شظف العيش، والاندفاع في القتال، وأسلوب الكرّ والفرّ.

وقامت الحرب البونية الثالثة سنة 149 ق م. وانتهت سنة 146 ق م. وفيها سقطت قرطاج بيد الرّومان، ودُمِّرت ولم يَبْقَ من قرطاج الفينيقية شيء قائم، وأصبحت أرضاً «لا تصلح حتّى للثور والمحراث» بكلمات مؤرخي الرومان، ويذكر شارل أندري جوليان في كتابه تاريخ شمال إفريقيا أن الرومان زرعوا تربة قرطاج ملحًا حتى لا تقوم بعدها، وألحقت مستوطناتها بروما، وسُمِّيت باسم «ولاية إفريقيا».

لقد أنهت روما قرطاج عسكريًّا وسياسيًّا، ولكنها لم تعمل على محو الثقافة الفينيقيّة القرطاجية، والشواهد الأثرية تدلّ على مظاهر الحضارة البونيقية (القرطاجية الإفريقية)، أمَّا أويات العمرانية فقد ابتلعتها الرّمال في جوفها، هكذا حدَّث التّاريخ.

في شهر مايو سنة 1912م كان اكتشاف مجموعة من المقابر البونيقية وعددها 39، ببرج الدالية، قرب مدفن الشيخ الهدار بالمدينة القديمة قديماً، ومحتوياتها: زهريات وقوارير وأباريق وكؤوس وهي ذات لون أخضر، ولُقيات معدنية من خليط من الرصاص والزنك

والبرونز، وكانت هذه المحتويات نواة متحف الآثار بطرابلس الذي افتتح في سنة 1919م.

(في اللّغة: اللّاقَى: ما طُرِحَ وتُرِكَ، المعجم الوسيط.)

وقد تبين للباحثين أن مدافن برج الدالية تعود إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد وقد قام بدراستها الأثري البروفسور الإيطالي سلفاتوري أُوريجيمّا (**Aurigemma**)، ونشرها في كتاب.

(اكتشفت بضواحي مدينة طرابلس مواقع أثرية منها: آثار فيلا رومانية بها قطع من الفسيفساء أمام الباب الجديد (محطة الكهرباء سابقًا) وكذلك اكتشفت مقبرة مهمة في غوط الشعال ومقابر فينيقية بباب بن غشير ومقابر بونيقية ورومانية بمنطقة حفائر جنزور الأثرية.)

النّوميديّون في طرابلس (165 - 46 ق م.)

خلال الحرب البونيقية بين روما وقرطاج ظهرت نوميديا، وهي من أشهر الممالك القديمة، ويرجَّح بعثها إلى سنة 202 قبل الميلاد.

ونوميديا دولة عسكرية وعمرانية، عرفت الأساطيل البحرية، والاستقرار السكاني، ونمو التجارة والزراعة، وصكّ العملة، واتخذت قُسَنْطِينَة عاصمة، وهي مدينة داخلية بشرقي مدينة الجزائر.

في سنة 165 قبل الميلاد تهيأت الفرصة للزعيم مِيسِّينيسَّا للاستيلاء على الأمبوريات الطرابلسية (المراكز التجارية) التابعة للسيادة القرطاجية، فدخل سهل الجفارة، وحاصر إقليم المدن الثلاث (لبدة وصبراتة وأُويا)، ثم اقتحمها وخضع له الإقليم كلّه.

(عُثِرَ في برج الدالية «منطقة سيدي الهدار» على قطعتين من النقود تحمل رأس الملك مِيسِّينيسَّا النوميدي.)

بعد وفاة المؤسّس سنة 148 قبل الميلاد، ظهر الخلاف بين أبنائه لحيازة المُلك، فتدخلت روما التي كان لها حضور قوي في المنطقة، وقسّمت السلطة بين الأبناء الثلاثة، وهكذا وقعوا تحت قبضة روما، وبين فكَّيها القويين.

يظهر «يوكرتن» المعروف بـ «يوغرطا»، (حفيد مِيسِّينيسَّا) ويطمح في تكوين مملكة كبرى لا تخضع لروما، ويخوض المعارك لسبع سنوات، ويُحرز في الكثير منها انتصارات،

في حرب عصابات، منهكاً القوات الرّومانية، وفي العام 104 قبل الميلاد يُغْدَرُ به على يد حليفه «بوخوس»، ويُسَلَّم لأعدائه الرّوم الذين شنقوه أمام الملأ.

الرُّومان في طرابلس (46 ق م. - 456 م.)

يبدأ التّسلُّل الرّوماني في الظهور حين طلبت لبدة مساعدة روما لإخماد ثورة داخلية نشبت داخل أسوارها، وجاءت النّجدة في شكل حامية رومانية، ومن ذلك الوقت أخذ الوجود الرّوماني بأشكاله المتعددة في التّصاعد حتى إدماج إقليم المدن الثلاث (لبدة وصبراته وأُويا) في كيان الإمبراطورية الرّومانية في عهد الإمبراطور يوليوس قيصر وهو من أشهر أباطرة الرُّومان، حَكَمَ خمس سنوات (49_44ق م) استولى على فرنسا، وعبر البحر إلى بريطانيا، وحارب منافسه القائد «بومبي» الذي حالفته «لبدة» وبعد أن تغلب يوليوس على بومبي، فرض على «لبدة» جزية كبيرة من زيت الزّيتون لانحيازها إلى خصمه، وكانت أراضيها مغطاة بغابات الزيتون الواقعة في جهتي ترهونة ومسلاتة، (ومن المحتمل أن نفس الجزية فرضت على أُويا.) وفي العام 44 ق. م يُقْتَلُ نبلاء روما ورجالاتها «يوليوس»، بعد أن تحوّل إلى ديكتاتور، وباغتياله تندلع الحرب الأهليّة.

*(والدكتاتوريّة: كلمة لاتينيّة الأصول: «**Dictatura**»، وهي شكل من أشكال الحكم المطلق، تكون السّلطات محصورة في شخص أو مجموعة، وأهم ما يميزها: عبادة الحاكم —الحزب الواحد— تعليق الحريات العامة— قمع المعارضين— إعلان حالة الطوارئ بصورة متكررة أو دائمة... إلخ، وهو ما نشاهده اليوم في كثير من دول العالم، والتدّاول السلمي على السلطة لا يقع إلّا في دول قليلة من هذا العالم.)*

وفي عهد الإمبراطور الرّوماني القوي «يوليوس قيصر» كان القضاء على نوميديا، وأصبحت أراضيها من أملاك روما.

خلال القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي تحولت لبدة وصبراتة وأُويا إلى مدن رومانية، وعوملت كحليفات، ولكنها استمرتْ في صكّ نقودها، والأخذ بالنظام التشريعي السائد بها في العهد القرطاجي، والتعامل باللّغتين البونيقية واللّاتينية، أمَّا قبائل الداخل فقد رفضت الاحتلال الرّوماني، وأخذت تهدّد مدن إقليم طرابلس.

تحالف الجرمانتيّون مع سكان الصحراء، وأخذوا يهددون الرّوم في مستعمراتهم،

ويشنون غارات متواصلة، وأصبحوا مصدر قلاقل للسّلطة الرومانية، وللذين تحالفوا معهم من الأهالي.

(الجرمانتيوّن من القبائل الليبية القدمية استوطنوا المنطقة الجنوبية (إقليم فزان)، وموطنهم وادي الآجال، وهم الذين بنوا جرمة وكانوا سادة طرق القوافل الصحراوية، وقد وصفهم المؤرخ هيرودوت بأنهم أمة بالغة العظمة.)

في العام العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد (20 ق م أو 19 ق م) يكتسح الرّومان الداخل، حيث يزحف القائد الروماني كورنيليوس بالبوس على فزان، منطلقاً من صبراتة عبر غدامس، ويصل جرمة بوادي الآجال، ويجابه قبيلة الجرمنت الليبية الشديدة المراس، ويُبيد نحو خمسة آلاف، وَيُخْضَعُ له الإقليم، واعترافاً به قائداً خبيراً بالصحراء ودروبها يُمنح وسام النصر في روما، ويُعَيِّن قنصلاً عاماً لإفريقية، ومع التنكيل بقبائل الداخل فقد استمر نهج المقاومة، وسجّلت الوثائق مقاومة أهالي الصحراء في كل المنطقة المغاربية، وفي عهد الإمبراطور الرّوماني (تبيروس) تستفحل بزعامة تكفريناس الليبي ثورة على الحكم الرّوماني، وكان ذلك خلال سنتي 16 و17 بعد الميلاد.

استعان النوميديّون بالجرمنت اللّيبيين ضد الوجود الرُّوماني وكانت حرب عصابات لا هوادة فيها طيلة ثماني سنوات، وانتهت هذه الثورة بقتل زعيمها تكفريناس سنة 24 للميلاد، وتنتفض قبائل «الناسامونس» الليبية المقيمة في شرقي إقليم طرابلس بمنطقة خليج سرت وشرقيها، ثارت على الحكم الروماني بأكمله، وشنت غارات متواصلة على المدن والمنشآت الدفاعية الرّومانية، ومع نجاح القائد الرّوماني «فيلاكاس» في كسر شوكتها يقع شَمال البلاد بأكمله تحت السيطرة الرومانية، وكان ذلك قرابة العام 89 للميلاد.

(كيف يُنظر التاريخ إلى مقاومة الأهالي الأصليين للوجود الأجنبي في أرضهم، وهو ما يسجله البعض من مناصرة للاستعمار، وفي المقدمة التاريخية للأثري فيليب كنريك في كتابه «إقليم المدن الثلاث» تتضح رؤيته في مناصرته للقادمين من وراء البحر وتشويهه للمقاومة الوطنية حيث يصف قبائل الأستورياني– التي كانت تتمركز في الواحات الواقعة إلى جنوب خليج السدرة الذين ارتبطوا بالتحالف القبلي الذي أتى لاحقاً وعرف باسم لواتة –بالغزاة الذين سلبوا ونهبوا ودمروا الريف وقطعوا أشجار الزيتون وحاصروا لبدة

وقتلوا أشراف المدينة، ولا يذكر مع هذا وذاك أن الرومان دخلاء على المنطقة وأنهم استولوا على كل خيراتها، وجعلوا الأهالي عبيداً لهم وأن مهاجمة قبائل الداخل للرومان كان هدفه تحرير الأرض باستخدام كافة الوسائل المتاحة، هذا وقد كتبتُ ردًّا على رؤيته تلك، وكانت محاضرة بجامعة طرابلس بقسم التاريخ.)

خلال المئة الثانية للميلاد عاشت الإمبوريات اللّيبية عيشة رضيّة هانئة، -بعيداً عن هجمات الداخل- حيث ساد الأمن طرق القوافل، وازدهرت الزّراعة، وتحصلت المستعمرات على بعض الامتيازات، وانعكس ذلك في المعالم الرومانية البارزة الباقية.

أعاد الرومان تشييد لبدة وصبراتة وأويا في غرب البلاد، وقورينا في شرقها، على طراز المدن الرّومانية، وغدت مدناً حُرّة بإشراف روماني، فضربت عملتها، وازدانت واجهاتها بالرُّخام الروماني، وشوارعها بالفسيفساء وبالأعمدة الضخمة وبالتماثيل، وصدر مرسوم يمنح صفة المواطنة لسكان المستعمرات الذين يقدمون خدمات لروما، وكذلك مرسوم ميلانو للتّسامح الديني في فترة لاحقة.

وقوس ماركوس أوريليوس يعود إلى هذه الفترة التاريخية، وهو مَعْلَم روماني في منطقة باب البحر بالمدينة القديمة طرابلس، وماركوس إمبراطور روماني من أتباع المدرسة الرواقية التي ظهرت باليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، ودعت إلى المواطنة العالمية، وقد حكم من: 161م وإلى: 180م.

من أهم معالم طرابلس القديمة في العهد الرّوماني هذا القوس، وقد كانت بعض معالمه ظاهرة حتى سنة 1912م، وتوالت الاكتشافات بهذا الموقع حتى سنة 1918، ويذكر أن المعماري دي فاوستو الإيطالي هو الذي هيأ المنطقة حول القوس في حين أنّ عالم الآثار «جاكومو كابوتو» أشرف على الترميم الذي انتهي منه سنة 1937م، وأظهر الأثري أوريجيمّا دراسة شاملة لهذا القوس، في الملحق الثالث لمجلة ليبيا القديمة.

وتعاطي الباحث التاريخي الطرابلسي «سعيد علي حامد» مع قوس ماركوس، فوصف منحوتاته، وذَكَّرَ بالرَّحالة الذين وقفوا أمامه، وباستعمالاته عبر تاريخه الممتد من القرن الثاني للميلاد وحتَّى القرن العشرين إبّان الاحتلال الإيطالي، كما قام الأثري المرموق «فيليب كنريك» بوصف هذا النُّصب وصفا شاملاً دقيقًا في كتابه «إقليم المدن الثلاث» المترجم إلى العربية.

ومن الجدير بالذِكر وجود نصّ مكتوب على لوحة تدشين القوس، وقد انتزع من مكانه ونُقِلَ إلى المتحف البريطاني إبّان احتلال الإنجليز لمدينة طرابلس (الانتداب الإنجليزي 1943م)، والنّص من سبعة أسطر يشير إلى الإمبراطور ماركوس أوريليوس والإمبراطور لوسيوس فيروس، ويذكر النّصّ أنّ هذا القوس شُيِّدَ من الرُّخام الصُّلب.

(في القرن السادس عشر نجد رسمين يمثلان المدينة والقوس، الأول يعود إلى فترة الاحتلال الإسباني (1510)، والآخر يعود إلى العهد العثماني الأول (1559م) وقد رُسِمَا لأغراض عسكرية.)

وصف فيليب كنريك القوس فقال: «بوابة كبيرة مربعة الأركان، لها مداخل مقوّسة بأربعة اتجاهات تقف في نقطة تقاطع الطريق، ومن الواضح أنَّ هذه هي نقطة مركزية مهمّة في تخطيط المدينة منذ إنشائها، فشوارعها ذات استقامة ملحوظة، وليس هناك أيّ شك بأنَّ هذه صفة ورثتها، إذ تقع طرابلس القرون الوسطى والحديثة تمامًا فوق «الإمبوريا» المركز التجاري، أويات»، ويمثِّل ذلك استمرارية في استيطانها، ويبقى القوس هو النُّصب الظاهر الوحيد من الفترة الكلاسيكية من تاريخ المدينة، وما عدا ذلك فإنَّ المباني الظاهرة تعود إلى القرن السّادس عشر وما بعده، أي: بدءًا من العهد العثماني الأوّل، وما تلاه من عهود.

وقوس ماركوس أُوريليوس: أُقيم عند تقاطع الطريقين الرأسيين بالمدينة، وهما طريق الكاردو **cardo**، وهو طريق المدينة المحوري الرئيس الممتد من الشمال إلى الجنوب، وطريق الديكومانوس **Decumanus**، وهو طريق المدينة المحوري الرئيس الممتد من الشرق إلى الغرب.

الوجهان الأكثر عَرْضا وتطوراً معماريا يتجهان نحو الميناء والجهة المقابلة له، وعلى كلّ جهة من هذه الجهات يحيط بالفتحة زوج من الأعمدة الكورنثية المتعاشقة تقف على ركائز بارزة، ومربوطة من الأعلى إلى بروزات مماثلة للركائز، ممتدة من السطح المعمّد.

وتضمُّ الكُوَّات الواقعة في الأعمدة بين البوابات تماثيل إمبراطورية، فوقها صور منقوشة، وتحتوي المثلثات الواقعة فوق الأقواس على رموز نصر مجنّحة، والزاويا الخارجية من الصرح مؤطّرة بعمادات بارزة من الجدران تضمّ نقوشاً معقّدة لنباتات بتفاصيل في غاية الدّقة، والقوس كلّه من الرّخام.

من الصور المجسّمة الإله (أبولو) **Apollo** على عربة حربيّة يجرها زوج من الغريفنات المجنّحة، وكذلك الآلهة (مينيرفا) **Minerva** راكبة عربة حربية يجرّها (أبو الهول) **sphinx**، وكلّ واحد من هؤلاء معرّف بمزاياه الخاصّة، أبولو له غرابه وقيثارته وجعبته وغصن الغار، ومنيرفا لها خوذاتها: بومة واقفة على قمة الخوذة، مع درع وحربة وغصن الزيتون، ومن الدآخل قبّة مرصّعة (نحوت غائرة) على شكل مثمّن.

ويخبرنا نص التكّريس المنقوش على القوس أنه قد تمّ إنشاؤه في عامي **163** و**164** ميلادي، على حساب السُّكان المحليين والحاكم، لتكريم الإمبراطور ماركوس أوريليوس والإمبراطور لوسيوس فيروس، وقد أُنشِئَ القوس على أرض عامة، وقد أصبحت الحديقة التي يقف فيها القوس حالياً مستودعاً لقطع الآثار المعمارية الكلاسيكية المتناثرة التي عثر عليها في المدينة.

كُتلٌ من الرُّخام عثر عليها عامي **1936** و**1937** تدلّ على وجود معبد قد يكون واقعاً تحت الفندق في شمال شرق القوس، وكان هذا المعبد مكرَّسًا لروح المؤلّهة الحامية للمدينة، ويعتقد أنَّه أُنشئ ما بين **183** و**184**م».

وقدّم الرّحالة العبدري- الذي زار طرابلس سنة **688**هـ_**1289**م. وصفًا للنُّصب حين رآه، فقال: « قبّة باب البحر من بناء الأوائل في غاية الإتقان، ونهاية الإحكام، مبنية من صخور منحوتة في نهاية العظم، منقوشة بأحسن النقش، مرصوفة بأعجب الرصف، متماثلة المقدار، عُلْوِيها وسُفْليها ولا ملاط بين الصخور من طين وغيره، ومن العجب ترتيب تلك الصخور ورصفها في الأساس، فضلاً عن رفعها إلى السقف، ووصولها إلى هناك، مع إفراط عظمتها، وفي مقعد القبّة صخرة مستديرة منقوشة، يَحَارُ النّاظر في حسن وصفها، وعلى القبة قبّة أُخرى عالية ومبانٍ مرتفعة.

ورأيتُ للقبّة السفلى بابا مسدوداً، وعليه من خارجها صورة أسدين قد اكتنفاه، مُصوَّرين من تلك الصخور بأبدع صنعه وأغربها، وهما متقابلان على الباب، وفي كلّ واحد منهما صورة لجام أمسك بعنانه شخص واقف وراءه، وقد منعه أشدّ المنع، ولعلّ ذلك كان لمعنىً تعطّل، وَجُهِلَ سرّه»

(العبدري: يُنظر مبحث: طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين.)

وجاد الرَّحالة التِّجاني- الذي زار طرابلس **706-708**هـ / **1306-1308**م

بكلمات، عن «قوس ماركوس أوريليوس فقال: وهو على «شكل قبّة من الرّخام المنحوت، المتناسق الأعالي والتُّحوت، التي لا تستطيع المئة نقل القطعة الواحدة منها، قامت مربعة، فلمّا وصلت إلى السقف ثُمِّنت على إحكام بديع، وإتقان عجيب صنيع، وهي مصوّرة بأنواع التّصاوير العجيبة، نقشاً في الحجر.»

(التّجاني: يُنظر مبحث: طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين.)

ووصف الرحالة الألماني «بارث» القوس، فكتب: «لم يبق من طرابلس القديمة إلاّ قوس مزيّنة بالنقوش شُيّدَتْ تمجيدًا وتخليدًا للإمبراطور ماركوس من قِبَلِ القنصل «أُورفيتو» الّذي كانت تتبعه تلك المقاطعة، ولا تخلو القوس من أهميّة، وهي مثمّنة الشّكل، ولكن فتحاتها الأربع مسدودة، وتتميّز واجهتها بالدِّقة الفنيّة، وكذلك قمة المثمّن.

(القَوْس: تُذَكَّر وتؤنَّث لغةً.)

(بارث: يُنظر مبحث: طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين.)

وقدّمت الإنجليزية المس توللي- التي أقامت بطرابلس من **1783_1793**م وصفا للقوس كما رأته، فقالت: «وهناك أجد أفخم الأقواس التي خلفتها الأيام الغابرة، ينتصب في قلب مياه البحر، وهو «القوس الأحمر» كما يُسميه الليبيون (الطرابلسيون)... إنهم لم يستعملوا أية نوع من الملاط لتثبيت الأحجار ومع هذا فالأحجار متراصّة حتَّى إنَّ يد الزّمن الدائمة الإغارة على كلّ عَمَار، قد تركت نُصب الزّمن الغابر هذا على حاله، دون أنْ تشوهه بالعدوان... وسقف هذا القوس من أجمل روائع النّحت، وإنْ كان لا يمكن رؤية أكثر من جزء يسير من ذلك السقف، إذ إنَّ المسلمين عُمْيًا عن تقدير روعته وجماله، قد ملؤوا تجاويف النحت فيه بالطين، كيما يصطنعوا دكاكين صغيرة في داخل القوس... والسّكان في هذه البلاد لا يُبدون إلّا ميلا قليلا للتنقيب عن الآثار القديمة حتَّى إنّ الآثار المتبقية لا زالت على حالها لم يزعجها من رقادها أحد (الآنسة توللي)

(الآنسة توللي: يُنظر مبحث: طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين.)

(يُلْحَظ اللَّمز في كلمات توللي بعبارتها «إن المسلمين عُمْيًا» و»لا يُبدون إلاَّ ميلا قليلا للتنقيب»، وقد لاحظ معرّب كتابها في أماكن متفرقة غمزها للإسلام من خلال المسلمين مرة، ومن خلال الفقهاء مرة أخرى، ولو قالت: إنَّ الأهالي والسُّكّان بدلًا من المسلمين لكان ذلك مقبولًا.)

ويكتب الجراح الأسير جيرارد – في مخطوطته المودعة بالمكتبة القومية بباريس– عن نُصب ماركوس المعروف عند العامة بمخزن الرخام فيقول: «إن المخزن مسدود اليوم من جميع جوانبه بجدران سميكة وتحفظ فيه أشرعة السفن وحبالها، ويسميه الأسرى المسيحيون بطريقة عامية (مخزن الرخام) وقد فكر محمد باشا الساقزلي وكذلك إبراهيم داي في تهديم هذا القوس للاستفادة من مواده في إنشاءات أُخرى ولكن الفقهاء وسكان المدينة قد عارضوا في ذلك معارضة شديدة قائلين بأن تدمير هذا الأثر الرائع سيكون نذير شؤم، كما أنه من الإجرام تهديم مثل هذا المبنى الجميل العريق الذى حملوا له تقديرا واحتراما على مدى الأحقاب المتعاقبة».

ويعقب جيرارد على ذلك بقوله: «فعلا، بالرغم من أن الوندال والمسلمين الذين تولوا شؤون طرابلس وقد كانوا من أشد الناس عداء للاسم الروماني إلاَّ أنهم قد اقتصروا– فيما يخص القوس– على قطع رؤوس التماثيل المنحوتة في واجهة القوس وتتجه بنظراتها إلى الغرب والشرق، ولم يمسوا أي جزء آخر بأي حال من الأحوال.»

(أُسِرَ الجرّاح جيرارد من قبل الأسطول الطرابلسي أيام عثمان باشا الساقزلي.)

هذا ما نقله الباحث الطرابلسي خليفة محمد التليسي صاحب كتاب «حكاية مدينة» ويعلق على ذلك بقوله: «وموقف سكان المدينة من الاتجاه إلى تهديم هذا الأثر موقف محمود، يدل على الحس الحضاري والألفة التي قامت بينهم وبين هذا الأثر الهام الذي اعتبروا العمل على إزالته أو تهديمه نذير شؤم للمدينة التي استطاعت بهذا الشعور أنّ تحافظ عليه وتسلمه للأجيال المتعاقبة جيلًا بعد جيل، رغم الظروف الي أحاطت به في مختلف المراحل. ولو توفر مثل هذا الحس الحضاري التاريخي إزاء منشآت أخرى لأمكن أن يصون للبلاد كثيرا من معالمها الدالة على عراقتها الحضارية».

وقد زار الرّحالة ماتيزيو سنة 1901م، طرابلس، ووقف أمام الأثر الروماني بالمدينة ورأى أن نصفه مدفون تحت الرمال، وقد نفى عن الأهالي تهمة تخريبه بسبب نبوءة شائعة تقضي بحلول الخراب والدمار على كل من يحاول تدميره، وعزا تلك الأسطورة إلى الإرساليات الفرنشسيسكانية التي أشاعت أن أحد الولاد العثمانيين قد حاول تهديمه فتعرضت المدينة لهزة أرضية، وإذا كان ما ذكره هذا الرّحالة صحيحًا فإن قصة محاولة تهديم القوس مخترعة، ولا أساس لها من الصحة، ونشرها لأسباب سياسية تهكميّة.

ومن المعروف أنّ النُّصب هو تذكير بانتصارات ماركوس العسكرية على الشعوب الأخرى، واهتمام إيطاليا بإبرازه صيانة وترميما، لم يكن بدافع القيمة الأثرية للإنسان، بل هو للدلالة على قوة وجبروت روما، وبعث الروح الاستعمارية التي سادت في فترات من تاريخ البشرية، ولا تزال تتمظهر وتطفو على السطح بين الحين والآخر، ومع هذا فإن وجوده هو تسجيل لتاريخ الأمم والشعوب في أطوار حياتها المختلفة.

(أُكْتُشِفَ بالقرب من برج التّراب جزء من ساحة رومانية للنزهة، وبين الباب الجديد والبحر عُثر على منازل أرضيتها من الفُسيفساء، وجدرانها مزدانة برسوم ملونة، وَوُجدت أوانٍ من الفخار تحت محطة الكهرباء سابقا مقابل السّور الغربي كما تقدم القول.)

في الفترة الرومانية عَمّ إقليم المدن الثلاث الرّخاء: عُبِّدت الطرق، وحفرت الآبار وانتشرت خزانات المياه، وبنيت مسارح ومعابد، وشجّعت زراعة الزيتون والكروم والنخيل، وازدهرت التجارة، وزخرفت بيوت الرومان والأثرياء المحليين بالأسِرَّة والكراسي من خشب الأبنوس، والوسائد الوثيرة بريش النعام، وشَيَّد الأثرياء على طول الساحل قصوراً بأعداد ونوعيات لا تضاهيها آنذاك إلاّ القصور المحيطة بخليج نابولي، ومن ذلك: فيلا دار بوك عُمَيْرة بزليتن، وفيلا سيلين بالخمس، وفيلا النِّيل بلبدة، وفيلا النيريدات (حوريات البحر) بتاجوراء، وقد قام الأثري كنريك- المتقدم ذكره- بوصفها وصفًا شائقًا في كتابه المذكور سابقًا، والذي كان دراسة ميدانية للقصور والمتاحف والساحات الأثرية.

وثيقة: «والأمر المهمّ الجدير بالبيان أنَّ أكثر الليبيين زمن الفنيقيّين والرّومان -ماعدا قليل من سكان المدن الساحلية- لم يستفيدوا فيه من حضارتهما شيئًا غَيَّرَ مستواهم إلى درجة أعلى، بل بقوا متمسكين بعاداتهم المتوارثة كمعظم إخوانهم البرقاويين في العهد اليوناني.» (محمد مسعود فشيكة)

*(فشيكة مؤرخ طرابلسي، من الرواد الذين كتبوا في التاريخ الليبي، وقد قرأت دراساته وأبحاثه القيمة، ولد سنة **1904**، وتوفي سنة **1990**م.)*

وتعقيبي على ذلك: تمسَّك اللِّيبيون الأوائل بأراضيهم وعاداتهم، لأنهم رأوا أنّ الغريب الآتي من بعيد يعاملهم كعبيد، استولى على أراضيهم، وجَنَى خيرات بلادهم، وفرض الضرائب، فكانت مقاومتهم له، كما قاوم اللِّيبيون في العصر الحديث الإيطاليين.

ويُولد سبتيميوس سيفيروس الّذي كان بارعاً في الفنون العسكرية، نافذ البصيرة، صارماً في أحكامه، قوي البنية، وسيم الطلعة، وأباً لولدين هما: كاراكلّا وغيتا.

وُلِدَ سبتيميوس بمدينة لبدة الكبرى سنة **145**م، وكانت منيّته سنة **211**م، وهو يخوض المعارك في مدينة «يورك» البريطانية باسم الإمبراطورية الرُّومانية.

وثيقة: «وُلِدَ سبتيميوس في أسرة من طبقة عليا من اللّيبيين البونيّين المُرَوَّمين في لبدة. كان رومانيًّا وإفريقيًّا في الوقت نفسه، وتُحْكَى القصص عن ولعه بالخضراوات والمآكل الإفريقية، وكان يتحدث الرُّومانية بلكنة بونية قوية» (رايت)

وثيقة: «أنا الإمبراطور، القيصر، لوسيوس سبتيميوس سيفيروس.. أنا من يدعونه الّذي لا يُقْهَر، وأسعدُ النّاس حَظًّا.. لستُ أكثر من عجوز مُقْعَد، أنهكهُ المرض، ممدَّد على فراش الموت في بلاد مُعتمة.» (سبتيميوس)

وثيقة: «تولَّى سبتيميوس (**193** _ **211**م) فأغدق على بني جنسه، وجاد عليهم جوداً حاتميًّا، وحباهم كما يفعل الوالد بولده، وكان عصره العصر الذهبي للعمران الإفريقي عامة، والجزائري خاصّة، فاكتظت البلاد بالسكان، ولم يبق فيها من الأرض غير معمور» (الكعَّاك).

وإثر إصلاحاته أُختيرت «لبدة» لتكون عاصمة للإقليم، وفي عهده كانت الحاجة إلى الدفاع عن المنطقة الرومانية السّاحلية المزدهرة، فكانت الحصون الدائمة (القلاع الرئيسة الثلاث)، والتي تقع خلف ساحل طرابلس (غدامس، والقريات الغربية، وأبو نجيم) وهو خطّ الدّفاع الأمامي للرّومان.

(في العهد الإيطالي نُصِبَ تمثال لسبتيميوس سيفروس عند مدخل سوق المشير بميدان الشهداء بطرابلس، وكنتُ أشاهده كلما مررتُ به في الستينات من القرن العشرين وأتعجب من هذا الرّجل وسيرته الحياتية، ولأنّه لم يلاق الترحيب به في عهد الجمهورية العربية الليبية فقد نُقِلَ إلى موطنه لبدة، وبقيت قاعدته الرخامية تدلّ عليه!!!)

بعد موت سبتيميوس تَوَلَّى مقاليد السّلطة بالكامل ابنه «انطونينوس» رغم أنّ أخاه «غيتا» كان يشاركه في الحكم اسميًّا، وقد عُرِف أنطونينوس بـ: كاراكلا **caracalla** وهي كلمة ذات أصل سِلْتي أَوْ ألماني، وتعني: العباءة القصيرة الّتي اعتمدها، وجعل الجنود يرتدونها، ثُمَّ وزعها على النّاس.

من أعظم إنجازاته في فترة حكمه (211 _217م): الدستور الأنطونيني (مرسوم كاراكلا) الذي جعل من كلّ سكان الإمبراطورية مواطنين روماناً، وهو استكمال لما أقدم عليه والده الذي منح المساواة لولايات الإمبراطوريّة، ويُذْكر له أنه أكمل إنشاء الشبكة الدفاعية التي بدأها والده لحماية المنشآت الرومانية.

وثيقة: من المفارقات أنْ يُتْرَك لإمبراطوريين بونيقيين ريفيين تحقيق الزّعم الأساس للإمبرراطورية الرّومانية لاحتضان كلِّ العالَم والجنس البشري بأسره.» (بورج).

وكانت نهاية كاراكلا في اليوم الثّامن من شهر أبريل 217م، فقد توفي عن عمر يناهز تسعة وعشرين عاماً وأربعة أيّام، واستمر حكمه ستَّ سنوات ويومين.

وبمصرع «الكسندر سيفيروس» آخر أباطرة العائلة السفيرية سنة 235م، عمت الفوضى في أقاليم الإمبراطورية الرومانية، ويتضرر إقليم طرابلس بأكمله.

اليهود في طرابلس (118م)

توطئة: ظهر الإسكندر في مقدونيا باليونان (356 ق م) وخلال حياته القصيرة أسَّسَ إحدى أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، من أساتذته الفيلسوف «أرسطو»، وبفرض الإسكندر نفوذه على مساحات واسعة من الأراضي، كان الامتزاج بين حضارة الإغريق وحضاراتها ما وَلَّدَ الهيلينستية»، وهي كلمة مركّبة من «هيلين» اسم جدة الإغريق، و»إيست» وتعنى الشرق، أي: الحضارة الإغريقية الشرقية، والإسكندر هو مؤسس مدينة الإسكندرية التي تَسَمَّت باسمه، وفي الثالثة والثلاثين من عمره يفارق الحياة (323 ق م) ومن الممالك التي فتحها أرض كَنْعَان (فلسطين) سنة 332 ق م، وكان من قواده الكبار «بطلميوس الأول» الذي أَسَرَ أعدادًا كثيرة من اليهود الذين كانوا هناك.

وفلسطين هو الاسم الذّي أُطلق على المنطقة الواقعة غربي نهر الأردن، الممتدّة حتّى لبنان وسوريا شمالًا، والبحر الأبيض المتوسط وسيناء غربًا، والاسم مشتق من أحد شعوب البحر وهم الفلستيّون، وقد ورد هذا الاسم–لأوّل مرة–في الوثائق المصرية عام 75ق م، واستخدم الرّومان كلمة «بالستينا» للإشارة إلى هذه المنطقة.

وفلسطين: أرض مستطيلة الشكل، طولها من الشمال إلى الجنوب 430 كم، وعرضها يختلف من جهة إلى أخرى، في الشَّمال (51–70كم)، وفي الوسط (72 – 95كم) وفي

الجنوب إلى 117كم.

وأرض فلسطين هي أرض كنعان، والكنعانيّون أقوام استقروا بهذه المنطقة بعد هجرتهم من مناطقهم الأصلية- وهي فيما يبدو- شبه الجزيرة العربية والصحراء السّورية، وكان ذلك في النصف الأوّل من الألف الثالث قبل الميلاد.

(ارض كنعان تعني الأرض المنخفضة؛ لاختلافها عن مرتفعات لبنان.)

من «أُور» الكلدانية بأرض دجلة والفرات انتقل إبراهيم الخليل إلى أرض كنعان قرابة العام **1850** ق م.

(للمزيد يُنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للباحث عبدالوهاب المسيري.)

بعد وفاة الاسكندر قُسِّمت الممالك الهيلينستية بين زعماء جيوشه، فأضحت مصر للبطالمة، وجلس على عرشها «بطلميوس الأوّل» الذي استكمل الإسكندرية، وأقام مكتبتها الضخمة، وانطوى إقليم المدن الخمس تحت إبطه بدءًا من سنة 322 ق م، وقد أدخلت قوانينه في عداد المواطنين أولئك الذين وُلِدُوا من نساء ليبيات وآباء يونانيين.

*(**Greek**: الأغريق أو اليونان كلمتان في اللغة العربية بمدلول واحد.)*

استخدم بطلميوس الأول الأسرى اليهود- الذين جلبهم من أرض كَنْعَان- في إنجاز مشاريعه العمرانية والاقتصادية في المدن التابعة لملكه، ومن ذلك المدن الخمس، وعلى وجه التحديد مدينة قورينا، والمخلفات الأثرية من قبور وأسماء عائلات تدلّ على استيطان اليهود بالإقليم الذي سُمِّيَ «بنطابوليس» **Pentapolis**، وهي كلمة مركّبة من مقطعين اثنين: **Penta** بمعنى خمسة، و**Polis** بمعنى مدينة، وهذه إشارة إلى الاتّحاد الكامل لمدن الإقليم.

عالم الآثار أُوريجيمّا **Aurigemma** ربط بين السّكان اليهود الأوائل في البلاد، ومرحلة حكم البطالمة مُستقيًا معلوماته عن رواية نقلها الطبيب الفرنسي جيرارد **Gerrard** الذي أُسِرَ من قِبَلِ الأسطول الطرابلسي في العهد العثماني الأول، عن كبار الحاخامات في طرابلس ودوّنها في مخطوطته.

تمتّع اليهود في المدن الخمس بحريتهم الدّينية، والتحقوا بمؤسسات الدّولة البطلمية المدنية والعسكرية، وفي العهد الرّوماني لقوا الترحيب من قيصر روما القوي «أغسطس» الذي منحهم حقّ إقامة شرائعهم الدينية، وأمر بعدم التعرض لهم.

(وضعت روما يدها على أراضي قورينا سنة *96* ق م، وضُمَّت إلى كريت في ولاية رومانية واحدة سنة *74* ق م.)

والإمبراطور الرّوماني «أغسطس قيصر» حكم من **30** ق م إلى **14**م، مؤسس النظام الإمبراطوري، كان ذا هِمَّة عالية حافظ على سلطته الاستبدادية في صورة جمهورية مزيفة، حيث جُدِّدَ انتخابه سنةً بعد أخرى، ولشهرة ما أنجزه من مشروعات لوطنه أُطلق اسمه على الشهر الثامن في التقويم الغريغورى (الميلادي) واسمه «أكتافيوس» «نسبةً إلى والده، وقد منحه مجلس الشيوخ في روما اللقب «أغسطس» ومعناه: العظيم المهاب.

(يوصف الحاكم بأنَّه ديكتاتور مهما أدّى من أعمال حَسَنَة إذا لم يستجبْ لنصوص الدستور وحافظ على بقائه في السلطة بالقوّة، فالتداول السلمي على السلطة– في كل المراكز– من أسس الدولة الديمقراطية.)

في سنة **203** ق م، خضعت أرض كَنْعان (فلسطين) إلى سلطة السُلوقيّين، وزعيمهم أنطوخيوس السُلوقي» أحد القادة الذي تولى حكم الشّام (سوريا ولبنان) وأجزاء من العراق بعد وفاة الإسكندر.

أراد السُلوقيون فرض عقيدتهم الهيلينستية على الجماعات اليهودية المتعلقة بتعاليم موسى، وكان ذلك الشرارة في قيام ثورة يهودية كبرى، والمعروفة بالثورة «المكَابية، نسبةً إلى «يهوذا المُكَابي **judus macabees** المؤسِّس لأسرة المكَابيم، وبهذه الانتفاضة اختل نظام الدولة السُلوقية، وأصبح السّلوقيون مهددين، ويَجِدُ الرّومان الفرصة سانحة لاحتلال الإقليم، فتدخل القوات الرومانية المدججة بالأسلحة «أُورشليم»، وتغدو أرض كنعان جزءًا من الإمبراطورية الرومانية.

(مُكَابي: بمعنى قاذف المطرقة)

مع العام **66** للميلاد بدت حركة شغب بين الطبقات الدنيا من اليهود الذين تضرّروا من حكم الرومان والطبقات العليا اليهودية التي اتفقت مصالحها مع روما، وأخذت مع الأيام تتَّسِع، ونادى أغلب اليهود بطرد الرّومان، واستمرت الثورة سنوات في إقليم يهوذا خاصة (أورشليم وما حولها).

الإمبراطور الروماني فسبيسيان (69_79م) **Vespasianus** يأمر قائد جيوشه

«تيتوس» «Titus» بإخماد الثورة، ومع العام 70 للميلاد كان غزوه، قَتَلَ وسَبَى وغَنِمَ ودَمَّرَ الهيكل واستولى على مائدة سليمان بن داوود، وحافاتها مكلّلة باللؤلؤ والياقوت، وعاد منتصرًا إلى روما التي أقامت احتفالات كبيرة بهذه المناسبة.

(تيتوس هو ابن الإمبراطور فسبيسيان، تولّى الحكم بعد موت أبيه (79–81م.)

اليهود في المدن الخمس:

بعد هذه المذبحة لجأت أعداد من اليهود إلى إقليم المدن الخمس حيث لقوا الترحيب من الجالية اليهودية هناك، وبمرور الأيام أصبحوا قوة اقتصادية، وكان منهم الثائر جوناثان Jonathan الملقّب بالحائك، رسول الصحراء الذي أخذ يحرِّض ضِدّ الرومان.

ثار جوناثان وحواريوه، وبفشله قُبِض عليه، وشُهِّرَ به، وأُرْسِلَ إلى روما فَأُعْدِمَ شنقًا وصُودِرتْ أموال أكثر من ألفي عائلة يهودية، وفُرِضَتْ قيود قاسية عليهم، هكذا دَوَّن التاريخ.

خلال السنوات 115م – 118م تجدّدت ثورات اليهود على مراحل متفاوتة، وكانت ثورتهم الكبرى المسلّحة بقيادة «أندرياس» في إقليم المدن الخمس، سيطروا على قورينا، دَمَّروا معالم أبنيتها: أبوللو Apollo(النافورة وتمثال الأسد الرخامي والمذبح)وحطَّموا أسواق قورينا وحماماتها، وفتكوا ببقايا الإغريق والعساكر الرومانية، وتعَرَّضَ ريفها إلى دمار شبه كامل، وقُدِّر من أبادوهم بنحو 22 ألف شخص.

(اشتعلت ثورة اليهود في عهد الإمبراطور الروماني تراجان (98_177م) Traianus)

تُرسل روما قواتها الضخمة، وكانت فاجعة على يهود قورينا وغيرها من المدن الخمس، صُودرت أموالهم، ونهبت ممتلكاتهم، وعُذِّبوا، وشُرِّدوا، وتمت السيطرة بالكامل على الإقليم في عهد الإمبراطور «هادريان 118م Hadrianus» .

وهادريان من الأباطرة المشهورين، حكم من 117م إلى 138م، مؤسِّس قورينا الرّومانية بعد تدميرها حيث رُمِّمَت المعابد، وأعيدت التماثيل المهشمة، وأُصْلِحَ الطريق إلى الميناء، وأُنْشِئَ ملعب جمنازيوم ضخم، وشُيِّدت مدينة هادريان الجديدة، وأقام المواطنون تمثالاً للإله «زيوس» يماثل في ضخامته تمثاله في «أُوليمبيا» بأثينا وهكذا عُدَّ هادريان مصلح قورينا كما ورد في النقود المضروبة في تلك الفترة.

اليهود ينتشرون:

وفراراً من العسف والقهر الروماني كانت الهجرة غربا، فحطَّ اليهود بداية بسرت، وبها أنشؤوا معبدهم الذي يتزامن مع تشييد معبد الجاريبة (الغاريبة) بجربة التونسية الّذي لا يزال قائما ويُحَجّ إليه سنويًّا. ومن سرت اندفع اليهود إلى المناطق الطرابلسية: مصراتة وزليتن والخمس ومسلاتة وتاجوراء والعمروص وجنزور ومناطق بجبل نفوسة ومدينة طرابلس القديمة وغيرها.

الأكاديمي الباحث الطرابلسي خليفة محمد الأحول يُكثِّف جهده للبحث عن مسيرة اليهود في طرابلس إبَّان الاحتلال الإيطالي، فيتناول الحي اليهودي، وعادات وتقاليد اليهود، ومقدساتهم الدينية، ونشاطهم الاقتصادي وتَحظَى دراسته باهتمام كبير.

من مدينة طرابلس تسلَّل اليهود نحو الجنوب حتى وصلوا أقصى بحيرة تشاد والسودان الغربي، مكوّنين جزرًا وسط المحيط الصحراوي، وقد تركز معظمها عند ملتقى القوافل (غدامس – مرزق – غات – تمبكتو...) وبإثراء اليهود من حركة القوافل التّجارية وفدت موجات أخرى، ومنها يهود السفارديم **Sephardim** التي نزحت من إسبانيا والبرتغال عقب زوال الحكم العربي من شبه الجزيرة الأيبيرية (**1492**م) وقُدِّرت بأربعمئة عائلة بأسماء: خموس وحايم وشمعون وديدو وجوزيف وماموس وإبرهام، وهذه أشهر الأسماء عند اليهود.

(السَّفارديم: هم اليهود الشّرقيون الذين عاشوا في إسبانيا والبرتغال، والأشكناز هم اليهود الغربيون ذوو الأصول الفرنسية والألمانية والبولندية، وقد انتشروا في أوروبا خلال القرن السابع عشر الميلادي، ثم في الأمريكتين وأستراليا.)

وفي التاريخ أن يهود إسبانيا ساعدوا العرب حين غزوا الأراضي الأيبيريّة (إسبانيا والبرتغال) بدءاً من عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد (**92**هـ/ **711**م) وبسبب ذلك تعرض اليهود للتنكيل بهم من قِبَل الإسبان حين طَرَدوا العرب، فهاجرت جماعات كثيرة منهم – أثناء فترة محاكم التفتيش الإسبانية – إلى مدن الشَّمال الإفريقي، ومنها المدن الطرابلسية.

باحتلال الإسبان طرابلس **1510**م، التجأ بعض اليهود هربًا إلى أدغال غريان ويفرن وجادو وغيرها من مدن جبل نفوسة، حيث كان أسلافهم هناك منذ العصر الروماني

الأوّل، وتذكر المصادر: ناحوم شلوش، وإسحاق الفاسي، والحاخام ناحم جوزيف، والقاضي جاكوب.

وباستقرار طرابلس في أيدي العثمانيين (1551م) كان التّسامح مع الأقليات الدينية، من حيث إقامة شرائعهم ومزاولتهم للتجارة، فعاد كثير من اليهود النازحين إلى طرابلس المدينة، وقد نَوَّه المؤرخون باليهود الذين جاؤوا من مدينة «جادو» لِمَا أسهموا به من تقدّم ملموس في الصناعات الحرفية من: سروج الخيل، والحُلِيّ، والسّيوف المطرزة بالفضة والذهب، والعاج، والشمعدانات التي وُجِدَ البعض منها في المعابد اليهودية بليفورنو Livorno والبندقية - Venice بإيطاليا.

وُتَوَثّق المصادر حضور يهود من مدينة ليفورنو بقيادة «إبراهام كردوز» الملقب بـ«سباتينو» على رأس بعثة طبية وفنية أرسلها دوق توسكانا Toscana بإيطاليا، كما تشير المراجع إلى وصول أفواج أخرى من يهود تونس والجزائر ونابولي، ما جعل الكثافة السكانية تزداد بشكل واضح، وكان ذلك على وجه الخصوص في عهد القرمانليين (على باشا القرمانلي وابنه يوسف باشا) حيث غَدَتْ طرابلس تأخذ زخرفها وزينتها ومكانتها صناعيًّا وتجاريًّا.

وسُمِحَ لليهود إقامة مقبرتهم الخاصّة، وموقعها في الركن الغربي من المدينة على امتداد عرض البحر، وبحلول سنة 1930 عُنِيَ بها على نسق المقبرة المسيحية، فَزُوِّدَتْ بألف شتلة من أشجار السّرو، لتكون سياجاً يحيط بها، وقد نَصَبَ الألمان والإيطاليون مدافعهم على أسوارها خلال الحرب العالمية الثانية، وأُجْرِيَتْ عليها إصلاحات سنة 1943م، زمن الإنجليز في طرابلس.

ويهود طرابلس شرائح: عائلات أرستقراطية ثريّة (حسّان وأربيب وناحوم وركّاح) وتُجَّار الصّادارات والواردات، وحرفيّون وفقراء، واليهود الطرابلسيون طائفتان: الحاخامات المتمسّكة بتعاليم التِّلْمُود، والقراؤون المتعلقون بالتَّوارة.

وكان لليهود وجود بارز في طرابلس القديمة، استقروا في مناطق عُرِفَتْ بالحارة الكبيرة، والحارة الصغيرة، والحارة الوسطيّة، وهي في حومتين (ناحيتين): حومة باب البحر، وحومة غريان.

وتكوّنت لليهود جمعيات ولجان خيرية: جمعية عيد الفطير، ولجنة العُمْيان، ومركز

رعاية الأُمومة والطفولة، وجمعية التثقيف الصِّحي، وجمعية إيواء المسنِّين، وبرزتْ حديقة للأطفال ضمت مجمعًا رياضيًّا، وموِّلَتْ مشاريع من مؤسسات اليانصيب والوقفيات والوصايا والحفلات الفنية الخيرية اليهودية.

وفي الوثائق أنَّ اليهودي الثري «أوجينيو أريبب» أسهم بعشرة آلاف جنيه إسترليني للطائفة اليهودية الطرابلسية، واعترافا بفضله علا شاهد من المرمر بالصَّلاة الكبرى، وأُثْنِيَ عليه في جريدة «بريد طرابلس» **1944**م، ووُضِعَت القيمة المالية في صندوق التوفير، وبلغت فوائدها قرابة العشرة آلاف ليرة إيطالية.

*(شاهد مرمري محفوظ بجهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس للمُحْسِن اليهودي «أنجلو أريبب **Anglo Arbib** وهو عَزَاء في وفاته، وأريبب المذكور من مواليد طرابلس **1896/1/15**م ووفاته بتاريخ **1949/11/10**م.)*

وَكُثَرت المعابد اليهودية، ومن محفوظات جهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس إحصائية مستقاة من «رفائيل فلّاح» تحتوي على **38** صالوتًا منها: صلاة الكبرى بشارع الصلوات، ودار الرّبي الحاخام حايم ميمون بالحارة الوسطية، وصلاة البيضاء بالحارة الكبيرة، وصلاة دار بيشي بشارع الهدّار، وصلاة دار كوحا بحومة غريان، وصلاة الفرنك بشارع الأربع عرصات، وصلاة الحاخام ديفيد روبين بشارع الإسبانيول، وصلاة الحاخام شالوم تيتو بزنقة الحاخام نسيم، وصلاة الفوقية بالحارة الكبيرة وغيرها، كما يحقّق الباحث الاكاديمي الطرابلسي خليفة محمد الأحوّل في رسالته لدرجة الدكتوراه عن يهود طرابلس وتترجم الآن إلى اللغة العبرية.

وازدهرت الحياة الثّقافية والتعليمية فَشُيِّدت مدرسة أبناء ليفورنو سنة **1876**م، التي اعتمدتْ أسلوب التعليم الغربي، وتأسست مكتبات في الحارتين الصغيرة والكبيرة منها: مكتبة دار ميمون، ومكتبة دار روبين.

وشاهد مرمري محفوظ بجهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس يوثق لاثنين وعشرين متبرعًا لإنشاء مدرسة، وتاريخ النقش سنة **1944**م (عهد الإدارة البريطانية)، ويبدأ بإبراهام تمّام مينو، تَبَرَّعَ بـ: **45,620** ليرة إيطالية، وينتهي بجانو السُّروسي وابنه، تبَرَّعَا بـ: **2000** ليرة إيطالية.

ومن المدارس اليهودية «دار السُّروسي للأيتام»: **seruss**، استقطبت **550** طفلاً،

واعتمدت في تمويلها على الإعانات والتبرعات من المجلس اليهودي العالمي، ومن المُحسنين اليهود في أمريكا وجنوب إفريقيا ودول أوروبية، وفي هذه المدرسة كانت تُؤَدَّى الطقوس الدينية إلى جانب الوظيفة التعليمية.

*(جرى ترميم هذا المبنى ما بين عامي **1990** و**1994**م، وَوُظِّفَ فضاء للوثائق والمخطوطات باسم المؤرخ الطرابلسي النائب الأنصاري صاحب كتابي المنهل العذب والنَّفحات، وبالمبنى غُرفة بالشَّواهد العبرية، وقد زرتها وأطلعت على لوحاتها.)*

من النُّخبة المثقفة من الشّعراء والأدباء والكُتّاب والمؤرخين الذين تباهت بهم طرابلس القديمة في القرن التاسع عشر الميلادي:»إبراهام خلفون» الذي عاش حتَّى عام **1820**م، وكان من المقرَّبين إلى الباشا يوسف القرمانلي الذي حكم من **1795** إلى **1832**م.

وخلفون مؤرخ وشاعر، له: سِفْر الدّاروت (كتاب الأجيال)، وهو تراجم وأخبار لأعيان طرابلس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقناصل أوربا، وأثريا الجاليات الأجنبية وما يتعلق بباشاوات القرمانليين، ولإبراهام خلفون قصيدة **Camuha Mi**، وسيجيء الحديث عنها.

وانتعشت الحياة الرياضية، فتأسَّسَت نوادٍ: الشبيبة اليهودية الطرابلسية، والمُكابي، وبن يهوذا، والجيتو **Ghitto** بالحارة برعاية شركة أربيب المصِّدرة للحلفاء، وفي زيارة الرّحالة الإيطالي كامبيريو سنة **1880**م لهذا النادي ذي الغالبية من اليهود من رعايا إيطاليا- دَعا إلى تأسيس نادٍ أكبر يجمع المسلمين واليهود والمسيحيين حيث وجدهم في حالة عداء، وهو أمر خطير على تطور التِّجارة والصِّناعة، لفقدان روح التجمّع والتضامن، بتعبيره.

وفي ميدان الفنون كانت الفرقة الموسيقية اليهودية تُشاهَد في مراسم الخِتان، والأعراس، والصَّلوات الدينية، ومن مشاهيرها «برامينو برْدَعَة»، وبرعاية الكوميدي الإيطالي «برمانيو بتولي» الذي أقام بطرابلس ما بين **1881**و**1883**م – تأسَّس المسرح اليهودي على يد «مبوراخ «**Meborh**»، وتركَّزت عروضه على الملاحم مثل: شمشون ودليلة، ويوسف الصِّديق وإخوته.

وبإعلان الدستور العثماني- أيام السلطان عبدالحميد الثاني- الذي يقضي بإطلاق الحريات العامّة للأقليات الدّينية الخاضعة للحكومة التركية صدرت صحف يهودية، وكان

لليهود مطبعتان من مطابع الولاية.

وسيطر اليهود الأثرياء على تجارة الرّقيق، وعملوا في تجارة الملح الذي يُستخرج من مناجمه في تاجوراء وزوارة، وكانت جمهورية البندقية تحتكره، وتصدره إلى السويد والنرويج والدنمارك.

وكان لليهود دور بارز في صناعة معاصر الزيت، وكبس الحلفاء، ومطاحن الحبوب، ولُعب الأطفال، والأثاث المنزلي، وصناعة الحُلِيّ، وشركات التأمين، ووكالات الشّحن، والملاهي، واشتهرت صالوناتهم ببيع المنسوجات الحريرية الإيطالية، والأقمشة، والأحجار الكريمة، والخزف، والروائح العطرية.

ويذكر الرّحالة باديا لبليك (علي بك العباسي 1805م) أنه كان بطرابلس ثلاثون أُسرة يهودية غنية تمسك مقاليد التِّجارة مع المدن الأوربية، وأكثر تعاملها مع ليفورنو والبندقية بإقليم توسكانا بإيطاليا، وكذلك البندقية ومارسيليا ومالطا، واختصوا بتصدير المواخ والحبوب والمواشي والإسفنج والجلود، واحترفوا الصِّناعات التقليدية كالحُلِيّ والدباغة وسبك المعادن، وكانت قرية «العمروص» بها أعظم ورش الحدادة اليهودية».

وثيقة: «في عام 1919م تقرَّر إجراء حصر للمنازل الرفيعة المستوى في المدينة القديمة أطرابلس لصيانتها، وشملت منزل الحاخام «نسيم» في الحارة الكبيرة، وبهذا استعاد رسومه وجماله، مثلما كان عليه في سابق عهده، بعد أنْ ظَلَّ مستهلكًا لمدة طويلة (أورنيلا سان جوفاني)

وَعُظمَتْ مكانة اليهود عند الباشوات القرمانليين «إذ كانوا يوفِّرون لهم جميع حاجيات حريمهم، من ذهب وفضة وملابس فاخرة، كانت تُستورد من المدن الأوربية» بعبارة الباحث الطرابلسي خليفة محمد الأحول، وعُهِدَ إلى اليهود بمناصب حيث تَربَّع «صلامون خلفون وصموائيل فرفارة» على وزارة المالية، وتألَّقَ مركز اليهود أكثر أثناء فترة حكم علي باشا القرمانلي الأوّل.

ولليهود أعياد ومواسم ومن ذلك، عيد الفِصْح، وأوّل أيامه 15 نيسان بالتقويم العبري (أبريل)، ويرتبط بخروجهم من مصر، وأصله بالعبرية «بِيسَحْ» وتعني: «مَرَّ وجاوز» وسُمِّيَ بعيد الفطير، لأن يهود مصر أَعَدُّوا خبزهم فطيرًا وهو الذي أُنْضِجَ قبل أنْ يختمر، إذ خرجوا على عجلة.

(عيد الفِصْح عند المسيحيين هو ذكرى قيامة المسيح من الموت.)

ومن عطلاتهم الرسمية: عطلة يوم السَّبْت، وهو مكرّس للراحة والعبادة (تَذَكَّرْ – اِحْرِصْ – تبَرَّكْ – قَدِّسْ) وفي هذا اليوم لا يُوقد اليهودي نارًا ولا يفتح دكانًا.

ومن أعيادهم «عيد السكوت» (عيد المظلة) ويبدأ في الخامس عشر من شهر تشري **Tishrie** (تشرين) حسب التقويم اليهودي (أكتوبر)، ويستمر أيامًا وهو إحياء لذكرى خيمة السّعف التي أوت اليهود في العراء أثناء خروجهم من مصر، وفي نهاية أيام العيد يُحْتَفَل بتسلّم التّوراة، وتُسَمَّى «سمحات تورا» أي: فرحة التّوراة.

ومن أعيادهم الفوريم (البوريم) **Purim** وفيه يخرج اليهود إلى الحدائق في الصباح الباكر، إلى المعابد يُردِّدون قصيدة في هجاء الوزير الفارسي «هامان» (هكذا ورد في العهد القديم، التوراة)، وقد سجَّل سِفْر إستير **Esther** مأساة تاريخية مَرَّ بها الشعب اليهودي أيام الملك أَحْشُورُوش الفارسي الذي اختار فتاة يهودية لتكون زوجته أو محظيته اسمها «إسْتير» كان يحضنها عمّها (مَردَكَّاي).

حدث أنْ حصل هامان وزير الملك على أمر يقضي بإهلاك جميع يهود المملكة الفارسية، وحينئذ تدخلتْ إستير، وحصلت على أمرٍ يقضي بإبعاد هامان، وإلغاء الأمر الملكي، وقد حفظ ذلك سِفْر إستير ذو السّتّة عشر فصلاً بالعهد القديم بالكتاب المقدّس لليهود في التوراة العبرية، ويُقرأ كل سنة في عيد الفوريم الصاخب الذي يُعَدُّ بمثابة ذكرى لهذا الحدث.

(تاريخ أحداث إستير ترجع إلى الجيل الثاني قبل ولادة المسيح.)

وثيقة: «قال هامان لأَحْشُورُوش: إنّه يوجد شعب منتشر متفرق بين الشعوب في جميع أقاليم مملكتك سُنُنهم مخالفة لجميع الشعوب، ولا يحفظون سُنَن الملك، فلا يوافق الملك أن يتركهم، فإنْ حَسُنَ عند الملك فَلْيَكْتُبْ في تدميرهم» (الفصل الثالث، سِفْر إستير)

أصدر أَحْشُورُوش أمره بإبادة اليهود عن بكرة أبيهم استجابة لنصيحة هامان، فأوصى مَرْدَّكاي إستير أنْ تدخل على الملك وتتضرع إليه وتتوسل بين يديه من أجل شعبها، وبجمالها وشجاعتها استطاعت أن تحظى بموافقة الملك فألغى قراره، ونجا اليهود من المذبحة.

وعيد الفوريم هو عيد المَسَاخِر، يتَّسِم بالمرح مثل عيد الكرنفال، يقام في اليوم الذي قبله، ذكرى صوم إستير، وبعد غروب الشّمس تُقام الصلوات في الكَنِيس (متعبَّد اليهود) والأطفال بأزياء تنكريّة، وخلال تلاوة سفر إستير تثار «قرقعات» عند ذكر هامان، سخريةً به، وفي هذا العيد مآدب وتبرعات وعروض واحتفالات ومهرجانات.

ويغلب الطّابع الأَسطوري على قصة إستير، «لكن مؤلفها يرسم بها الطريق للنِساء اليهوديات في كيفية تسخير أنفسهنّ لخدمة اليهود، ووفاءً لهذه المرأة يرد اسمها في سِفْر من أسفار الكتاب المقدّس (التّوراة).

وجعل اليهود الذين في القُرى الساكنون مدنًا غير مسوّرة اليوم الرابع عشر وجعل اليهود الساكنون في المدن المسوّرة اليوم الخامس عشر يوم فرح ووليمة ويوم خير وتوجيه أنصبة من بعضهم إلى بعض وعطايا للفقراء هكذا جاء في الوثيقة التي تقول: «وسَنَّ مَرْدَّكاي أن يبدؤوا في اليوم الرابع عشر من شهر آذار واليوم الخامس عشر منه في كل سنة، في اليومين اللذين استراح فيهما اليهود من أعدائهم» (سِفْر إستير)

*(الفوريم «البوريم» تعريب لكلمة **Purim** وفي العربية بالباء أو الفاء، وفي العهد القديم بالفاء، لأن حرف «**P**» ليس من ضمن حروف اللغة العربية، ويكتب بالباء مع وجود ثلاث نقط تحتها عند تعريبه، ومعناها «القُرعة» حيث ألقى هامان القرعة لتحديد يوم تنفيذ قتل اليهود.)*

وتذكر المصادر حادثتين اثنتين من البوريم في طرابلس القديمة، الأوّل هو: «بوريم كاذبوني» ويرتبط بإخفاق باشا تونس «إبراهيم الشريف» في دخول طرابلس (**1704**-**1705**م) وقد نظم الشاعر اليهودي «شباي طياري» قصيدة تُذَكِّرُ بهذا الحدث، وهي في ذَمّ باشا تونس طبعت في مدينة ليفورنو **1863**م، وفي طرابلس **1923**م.

وقصة إبراهيم باشا تُسَجِّلها الحوليات اللِّيبية للقنصل الفرنسي شارل فيرو بتفاصيلها، وملخصها أنه في سنة **1704**م اندلعت الحرب بين طرابلس وتونس، وكان ذلك بسبب مصادرة «خليل باشا» قافلة خيل لباشا تونس، كانت مارّة بالتُّراب الطرابلسي، وكذلك مصادرة الطرابلسيين لسفينة قرصنة تونسية كانت تخفر (تَحْمِي) سفينة تجارية أوربية محمّلة بالبضائع، حيث أُجْبِرَتَا على الدخول إلى مرسى طرابلس، واستولى الطرابلسيون على حمولة السفينة التجارية، وأَسَرُوا النَّصارى الذين كانوا على متنها، وكلّ هذا جعل إبراهيم

الشريف يستشيط غضبًا، ويُعلن الحرب على طرابلس.

في شهر ديسمبر 1704 كانت المعركة بين الطرفين بمنطقة جنزور تقريباً وفيها لاقى «خليل بك» الهزيمة إذْ قُتِلَ من عساكره نحو الثلاثمئة ويرتدُّ إلى طرابلس المدينة المسوّرة، ويأخذ الأُهبة للدفاع، ووصلت الحرب إلى منشية طرابلس، فكانت الاشتباكات بين أصحاب البساتين الطرابلسيين وعسكر باشا تونس الّذين كانوا يقومون بنهب المنازل، وقطع أشجار النخيل، وهو ما أثار حفيظة عرب الداخل، وجعلهم ينظمُّون إلى «خليل بك» الذي لم يكن لديه سِوَى ألف عسكري إنكشاري، وثلاثمئة فارس، وألفين من الأهالي، وبطلب نجدات استطاع أنْ يُوقف زحف خصمه.

وتفاقمت أحقاد كلا الجانبين ضِدّ الآخر إلى أنْ أصبح من المستحيل معه وضع حدٍّ للحرب، وبتفشِّي وباء الطاعون الذي أضعف جند باشا تونس، وتحالف المحاميد مع «خليل بك»- طوى باشا تونس خيام جنده وارْتَحَلَ في شهر فبراير من سنة 1705.

(في المنهل العذب: «جاءت هدية من بعض البايات بمصر لإبراهيم الشريف فانتزعها خليل باشا من يد حاملها غَصبًا، واتُّفِقَّ أنَّ الريح ألجأت سفينة تونسية إلى مرسى طرابلس فأخذ منها خليل باشا ما أراد، ليثير غضب إبراهيم الشريف ليكون هو المبتدئ بالحرب.)

والبوريم الآخر (الثّاني) يسمى «بوريم برْغُل» ويُصادف يومي 25و26 من شهر فبراير، وبُرغل هو الذي اكتسح طرابلس أيام علي باشا القرمانلي الأوّل (1793م) وبتورّط اليهود في محاولة اغتياله كان التنكيل بهم.

أَمَرَ برغل بشنق أحد أبناء الحاخام «إبراهام خلفون» لاشتراكه في المحاولة الفاشلة، ويَصُبُّ غضبه على يهود طرابلس جميعا، فيفرض عليهم الضرائب، ويهددهم بالفقر، ويتَّهمهم بإفساد الحياة السياسية والاجتماعية، ويخص بالتعذيب «روجينا أربيب» مَحْظِية علي باشا القرمانلي الأوّل المسماة بالملكة «إستير» تيمُّناً بزوجة الملك الفارسي أحشوروش.

وثيقة: «إنَّ جميع الامتيازات والطلبات التي يتقدم بها اليهود إلى الباشا إنّما تُرفع عن طريقها التي تُسَهِّل خدمة بنى دينها، وهي تأتي كل يوم من الدّكة (حارة اليهود بالحارة) إلى القصر، قبل قيلولة الباشا بساعة واحدة، وليست هذه المرأة شابّة، كما أنها

مفرطة البدانة، حتَّى إنَّ خمسة رجال أو ستّة يرافقونها في الطريق، ويظلون محاذين ركوبتها خوف أنْ تقع عن ظهرها فتنبعج، هذه هي مُسَلّية الباشا والأمينة على قيلولته» (الآنسة توللي)

لقد ترك اضطهاد «برغل» ذكرى أليمة في نفوس يهود طرابلس، فصاروا يذكرونها كلّ سنة يوماً، يصومون فيه ويحزنون، ولهم قصائد غنائية تروي فضائح الغازي، وتُمَجِّد الضحايا اليهود، وقصيدة «إبراهام خلفون» نموذج لذلك.

فائدة: السنة اليهودية تبدأ في موسم الخريف، من شهر تشرين (أكتوبر)، وأعياد اليهود ومواسمهم بالتقويم العبري:

1- Tishrei (تشري): أكتوبر
2- Mareheshvan (حشوان): نوفمبر
3- Kileu (كسليو): ديسمبر
4- Tevet (طيبت): يناير
5- Shevat (شباط): فبراير
6- Azar (آذار): مارس
7- Nisan (نيسان): أبريل
8- Iyar (إيّار): مايو
9- Sivan (سيوان): يونيو
10- Tammu (تمّوز): يوليو
11- Av (آب): أغسطس
12- Elul (أيلول) سبتمبر

وتأثرت علاقات اليهود بالطرابلسيين سلبًا في العهد الإنجليزي وما بعده، فلم يَعُدْ ذلك الصَّفاء الظاهري الّذي كان سائدا في العهدين العثماني والقرمانلي لعوامل كثيرة، منها: تصريح اللّورد بلفور (1917/11/2م) بشأن الوطن القومي لليهود الذي تَحَقَّقَ بإعلان قيام دولة إسرائيل في 14/5/ 1948.

وقد كان من ضمن مخططات اليهود إقامة وطن قومي في الجبل الأخضر، وهو مقترح اليهودي «إسرائيل زانجويل»، والكتاب الأزرق اليهودي يتضمن تقارير البعثة التي حلَّت

بالبلاد لفحص المنطقة المختارة.

«جريجوري» أستاذ الجيولوجيا بجامعة جلاسكو البريطانية، والطبيب «كيدر» أستاذ الصّحة، وناحوم سلاوش يصلون «بنغازي» 1908م ومنها يبحرون نحو «درنة» ويقومون في «شحات» بدراسة موارد المياه والزراعة وغير ذلك مما يرتبط بالاستيطان، ولكنَّ هذا المخطط يفشل لعوامل منها الغزو الإيطالي، وهيمنة المنظمات الصهيونية وقرارها باتخاذ فلسطين الوطن القومي لليهود.

في 2 نوفمبر من عام 1945م كانت موجة واسعة من أعمال الشعب ضد اليهود في مدن عربية وأشدّها في طرابلس الغرب التي كانت تحت الإدارة البريطاني، وقد تسببت أعمال الشعب في مقتل يهود وهلاك ممتلكاتهم، ولوحظ بطء الإدارة البريطانية في اتخاذ إجراءات أمنيّة، ويرجّح أنَّ الوكالة اليهودية العالمية كانت تؤَجّج الأحداث، بهدف جلب اليهود إلى إسرائيل، وفي حرب الأيام السّتة احتلت إسرائيل أجزاء من أراضي ثلاث دول عربية: مصر وسوريا والأردن، وفي هذا العام 1967م، تجدّد الصّدام، فطلب زعيم الطائفة اليهودية السّماح بالسفر لليهود الراغبين وكان ذلك بتاريخ 1967/6/17م وهكذا تم إجلاء الجالية اليهودية وقُدِّرت بسبعة آلاف، وفي أكتوبر 2011م حلَّ بطرابلس اليهودي «ديفيد جربي» بعد 44 سنة وقصد فوراً معبد «دار بيشي» **DAR BISHI** بالمدينة القديمة، ورأى أنَّ صيانة المعبد اليهودي فرصة لعودة اليهود إلى ليبيا.

الوندال في طرابلس (456-556م)

عصيان مُسَلَّح قام به الكونت «بونيفاس» الرّوماني ضِدّ سلطة روما في إحدى المستعمرات الإفريقية، وباستعانته بالوندال كان دخولهم إلى مدن الشّمال الإفريقي، وأصبح اقليم طرابلس جزءًا من المملكة الوندالية، وهم قبائل جرمانية الأصل، غزت إسبانيا، ومنها عبرت إلى شمال إفريقيا بقيادة أعظم ملوكها «جنسريك» وبموته سنة 477 للميلاد تشهد المنطقة المغاربية انتفاضات وتمرّدات على الوندال الذي كان وجودهم ضعيفًا.

(احتلّ الوندال قرطاجة (429م)، وصقلية(440)، وروما (455)، ومالطا وطرابلس (456م.)

وثيقة: «سحابة صيف عمرها قرن من الزّمان غطت شمال إفريقيا، وبَخَّرها فلول

الجيوش البيزنطية التي جاءت لتستعيد مجد الرّومان من جديد.

(محفوظ قداش وآخرون)

البيزنطيّون في طرابلس (556-643م)

(بدء دخول البيزنطيين طرابلس سنة 533م، عند ماتنجلي)

البيزنطيّون هم الرّومان الذين اتخذوا «بِيزَنْطة» لهم، عُرِفت بالقسطنطينية نسبةً إلى المؤسّس «قُسطنطين الأوّل» والّذي صيَّرها عاصمة للإمبراطورية الرّومانية الشرقية بدءاً من العام **330** للميلاد.

طرد البيزنطيّون الوندال حين أرسل الإمبراطور البزنطي جستنيان الأوّل أسطوله بإمرة القائد العسكري «بليزاريو» الّذي وجد الوندال في حالة ضعف، بسبب ثورات الأهالي من طرابلس شرقاً وإلى طنجة غرباً.

تدخل القوات البيزنطية قرطاج، وتحكم قبضتها على إقليم طرابلس، وتعلن استعادة مجد الرُّومان الأوّل، وأصبحوا سادة البلاد، وانطلقت المقاومة من الداخل، واستمرت نحو قرن من الزّمان، وتقلصت مساحة مدينتي لبدة وصبراتة بتشييد سور، ففي لبدة أصبح الفوروم القديم (السوق) خارج الأسوار، ثم تحولت صبراتة ولبدة إلى بلدتي أشباح تغطيها الرّمال، كما جاء في كتب التاريخ.

قبيلتا الناسامونس والجرمنت تثوران، ومعارك الفرّ والكرّ، ومهاجمة متواصلة لمؤخرة الجيش البيزنطي الذي يتقهقر إلى قرطاج، ثم يعود بقوة وينقضّ على الثُّوار، ويخيم على المنطقة الهدوء.

في سنة **544**م. وجّه «سرجيوس» الحاكم العسكري دعوة للزعماء المحليين لحضور مأدبة، وأثناءها انقضَّ الحرس عليهم، ولم يَنْجُ من الثمانين إلَّا زعيمًا أحدٌ، واشتعلت ثورة لواتة ضد البيزنطيين وحاصرت لبدة، وبمجئ المدد للروم فُكّ الحصار.

ويشير الأثري البروفسور «سلفاتورى أوريجيمّا» **Aurigemma**- الّذي عمل بمصلحة آثار طرابلس إِبّان العهد الإيطالي والذي أصدر كتابه سنة **1916**م - إلى أنَّ بقايا السُّور البيزنطي المبني بحجارة متوازية، يظهر في الطبقة السُّفلية من السور بباب زناتة، وهو في نقطة التقاء السور الغربي بالسور الجنوبي.

ويُعتقد أنَّ أساسيات أسوار طرابلس القديمة قد ترجع إلى الفترة التي اشتدت فيها هجمات قبائل الداخل ما أدّى إلى تشييد مجموعة من الحصون.

ورأى البيزنطيّون أنْ ينشروا الدّين المسيحي بين الأهالي لكسب ولائهم، فَشُيِّدَت الكنائس في المدن الطرابلسية وفي الداخل، وطافت الإرساليات بغدامس ومناطق فزان مبشِّرة بالمذهب الكاثوليكي، وبُنِيَتْ قلاع لحماية طرق القوافل، وبذلت جهود لإعمار لبدة وصبراته وأُويا، وأعادوا بناء الأسوار على مدينة طرابلس، وتُرِكَ الداخل في أيدي الأهالي، وأودعوا مهمة جباية الضرائب لرؤسائهم، وبإشراف الدَّولة البيزنطية وادّعوا ملكية الأراضي الزراعية.

ومع العام 546م وبانتشار الثورة في مناطق بالشّمال الإفريقي، تنظم القبائل اللّيبية صفوفها، وتزحف لواتة على السّاحل، ويحمل رجالها السلاح في وجه الإمبراطورية البيزنطيّة الغازية، وبأسلوب الكرّ والفرّ أخذت تهاجم مؤخرة الفيالق البيزنطيّة حتَّى أرغمتها على الجلاء عن السّاحل الطرابلسي، وهكذا أصبحت مهمّة القائد البيزنطي «تروغليتا» صعبة، ومع هذا فقد استطاع تنظيم جيوشه، وشنّ هجومات ساحقة على الخارجين عن السلّطة البيزانطية، وتعود المقاطعات الإفريقية إلى حضن بيزنطة، ويسود الهدوء حتَّى الفتح العربي.

(المذهب الكاثوليكي المسيحي عقيدة الكنيسة الرومانية ومركزها الفاتيكان، مقر البابا، وقد اجتذب المذهب الدُّوناتي المسيحي الأهالي وهو نسبة إلى القسيس الإفريقي «دوناتوس» وهي حركة ناصبت الكاثوليكية العداء في المنطقة المغاربية جميعها.)

العرب المسلمون

شهد الكون ولادة الرّسول الكريم محمد بن عبد الله (صَلَّى الله عليه وسلّم) بمكة سنة 571 للميلاد، وتروي كتب السّيرة قصة حياته، وبعد أنْ عَمَّ الإسلام شبه الجزيرة العربية توفي خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان ذلك سنة 632 للميلاد.

العرب في طرابلس (643 - 656م)

في خلافة عمر بن الخطاب والّتي كانت ما بين سنتي (13_ 23هـ/ 634-644م) يندفع عمرو بن العاص نحو طرابلس بجماله الوقيّة المخلصة التي عبرت الصحراء الغربية

لمصر، وشقت طريقها إلى إقليم برقة ومنه إلى إقليم المدن الثلاث، وكان ذلك الحدث في أواخر سنة 22هـ= 643م، وهذا هو الفتح الأوّل. (عمرو بن العاص من أبرز العسكريين العرب، حَفَلَ تاريخه بأحداث جسام، وُصِفَ بأنّه كان قصير القامة، قوي البنية، مرن الأعضاء، عريض الصدر، له عينان ثاقبتان، أدعج العينين (شديد سوادهما)، أبلج الحاجبين (أبيض ما بينهما) وافر الهامة (كثير شعر الرأس) يَخْضِبُ لحيته بالسَّواد.)

فتح العرب المدينة المسماة **Tripolis** فعرّبوها إلى «أَطْرَابُلُس» وهذا قريب من الأصل، ووجود السّين في الكلمة المُعَرَّبة لأنَّ الكلمة في لغة الرّومان تنتهي في آخرها بسين، وأوّل مصدر عربي ذُكِرَتْ فيه كلمة «أَطْرَابُلُس» هو جواب عمرو بن العاصّ للخليفة عمر بن الخطاب حيث جاء فيه: «إنَّ الله فتح علينا «اطرابلس»، وليس بينها وبين إفريقية (تونس وما جاورها غرباً) إلاَّ تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أنْ يغزوها ويفتحها الله على يديه فَعَلَ»، وفي التاريخ أن ابن الخطاب لم يوافق عَمْرًا على تقدُّم المسلمين، ويبدو حرصه في كلماته.

وهذه التسمية التاريخية «أَطْرَابُلُس» شائعة في كتب التاريخيين والجغرافيين المسلمين، ففي معجم البلدان لياقوت الحموي يقول: «أَطْرَابُلُس بألف مهموزة مفتوحة قبل طاء ساكنة»، وَذَكَرَ ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض: المسالك والممالك والمفاوز والمهالك»: أَطْرَابُلُس، بألف، فقال: «فأمّا أَطْرَابُلُس، فكانت قديماً من عمل إفريقية».

والسؤال اللُّغوي لأرباب علم اللِّسانيات: ما السبب في وجود الألف المهموزة قبل الطاء عند العرب الأوائل في تعريبهم لكلمة **Tripolis**؟

والإجابة على هذا التساؤل هيّنة لِمَنْ يعرف خصائص اللّغة العربية، أقول: إنّ العربية لا تعرف الابتداء بحرف ساكن في أوّل الكلمة، فإذا كانت كذلك، جُلبت إليها «همزة الوصل» وتُكْتَبُ على هيئة ألف من دون قطعة (نَبْرَة) والتي استحدثت في فترة متأخرة نسبياً، وهي على صورة عين صغيرة هكذا (ء)، والأمثلة على ذلك واضحة لعارفي اللغة العربية وقارئي القرآن الكريم (أُدْخُلْ- أُنْصُرْ- اِسْمَعْ- اِفْهَمْ...)

وبما أنَّ الكلمة الأعجمية **Tripolis** تبدأ بتاء ساكنة، فمن الضروري أنْ تُسْبَقَ بهمزة الوصل في لغتنا العربية حين تُعَرَّب، ولأن الكلمة «عَلَمٌ» على بقعة محددة، فجاز أنْ تُوضع القَطْعَة (ء) على الألف فقيل: «أَطْرَابُلُس»، وتحوّلت التّاء المرّققة إلى طاء

مفخّمة كما نطقها العرب الأوائل.

وفي فترة تاريخية أُخرى أخذ النّاس ينطقون الكلمة العربية بطاء مفتوحة، وهو ما تُسَوِّغُهُ قوانين اللغة العربية، وهكذا لم يكن هناك داعٍ لوضع الألف كتابة قبل الطاء فقيل: «طَرَابُلُس».

ولإبراز التّاريخ الطرابلسي أيام العرب الأوائل اتّخذ مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة أطْرَابُلُس– قراره بكتابة الكلمة كما وردت عند التاريخيين العرب الأوائل وهي « أَطْرَابُلُس» للدّلالة على «أَطْرَابُلُس القديمة»، ولا تزال تستخدم حتَّى اليوم في مراسلات جهاز إدارة المدينة القديمة أَطْرَابُلُس، حيث يُرْصَدُ التاريخ، أمّا في مؤسسات الدولة الأخرى فهي «طَرَابُلُس» –بفتح الطاء– من دون ألف، كما شاعت.

وقد تشرفت بلادنا بدفن عدد من صحابة الرّسول الكريم، والمعرفون بأسمائهم، وهم:

–1 رُوَيْفَع بن ثابت النّجاري الأنصاري، دَفِين برقة (باركي)، وهي المرج حاليًا وله مقام بمدينة البيضاء، وقد تولى رويفع إمارة برقة سنة 56هـ/ 676م، ولّاه مَسْلَمَة بن مخلّد الأنصاري، في عهد معاوية بن أبي سفيان.

–2 أبوسَجِيف بن قيس، دفين مصراته.

–3 عليم بن سَلَمَة الفهميّ، دفين برقة.

–4 زُهير بن قيس البلوي، دفين درنة.

–5 أبومنصور الفارسي، دفين درنة.

–6 عبدالله بن بر، دفين درنة.

–7 المنيذر الإفريقي، دفين طرابلس.

–8 عبدالله بن سعد بن أبي سرح دفين «أوجلة» وفيه خلاف.

وقد تشرفت مدينة طرابلس القديمة بدفن الصحابي «المنيذر الإفريقيّ»، عُرف بذلك لاتخاذه إفريقيّة دار هجرته، وطأت قدماه أرض الأندلس مع جيش موسى ابن نُصَيْر كما ترجمة له المقري في نفح الطيب، اتّخذ طرابلس إقامة له في أخريات حياته، فتوفي بها، ودفن في المقبرة الّتي تحمل اسمه، ولَفْظُ التّصغير «مُنَيْذر» جاءه لكونه من أحداث الصحابة، وقد ذُكِرَ أنّه من مُذْحَج أو كِنْده، وهو ما يدل على أَنَّ أصله يمانيّ.

دخل العرب المسلمون طرابلس فوجدوا لها سوراً من الشّرق والغرب والجنوب، ذا علوٍّ ومتانة، فعجزوا عن دخولها، فحاصروها شهرًا كاملاً بشرقيّها بالقرب من المكان الذي بُنِي فيه مسجد الشّعاب بعد ذلك، وقد اتفق أغلب المؤرخين على أنَّ جماعة من جند عمرو فاجؤوا الرّوم من جهة السّاحل حينما انحسرت عنها مياه البحر، فدخلوا المدينة.

(كانت مساعدة الأهالي الطرابلسيين للعرب من عوامل الانتصار على الحامية البيزنطية.)

في الوقت نفسه توجَّه عقبة بن نافع إلى زَوِيلة، وبِشْر بن أبي أرطاة إلى وَدَّان، وكان الفتح على يديهما (23هـ/ 644م)

أمر عمرو بن العاصّ بخراب أسوار طرابلس القديمة، كي لا تكون حائلًا تُستخدم ضِدّ قواته، وإنْ كان بعض الباحثين يعترضون على ذلك، وَيَرْون أنّ ذلك حدث لأسوار الإسكندرية وليس لأسوار طرابلس الغرب.

(عقبة بن نافع من مواليد 1ق هـ، وإذن: كان عمره 21 عامًا، قَدِم مع عمرو بن العاصّ.)

وبعد فتح طرابلس توجّه عمرو إلى صبراتة وهي بلدة بغربي طرابلس بنحو 70 كم، على ساحل البحر، ودخل زواغة وكانت تابعة لصبراتة، عشرة كيلومترات إلى غربيّها، ثُمّ قصد جبل نفوسة حيث مدينة «شروس» إحدى عاصمتي الجبل، بها قرابة 300 قرية.

(العاصمة الأُخرى للجبل هي «جادو» في ذلك الزمن.)

ومن مدينة شروس كاتب عمرو الخليفة «ابن الخطاب» يطلب الاستمرار في الفتح غربا، وبرفض ابن الخطاب لمقترح عمرو، يعود إلى مصر بعد أنْ سمع أنَّ الروم يريدون نكث العهد الذي أبرمه معهم، ويذكر المؤرخون أنَّ عمراً رجع مع عساكره (25هـ/646م)، ولم يترك أحدًا في المدن التي دخلها سِوَى «عقبة» في برقة، الذي عمل على كسب سكّان البلاد الأصليين.

(قاعدة كتابية: «عمرو» في حال النَّصب من غير واو، لأنه لا يشتبه بالعلم «عُمَر» الممنوع من التنوين.)

عُزل عمرو بن العاص وتولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح ولاية مصر فطلب من الخليفة عثمان بن عفّان أنْ يأذن له في غزو إفريقيّة، وإرسال المدد إليه لمواجهة الروم (26هـ/ 647م)، وكان الأمر كذلك، ويلتقي جيش الخليفة مع جيش والي مصر، ويتوجّه الجيشان في عشرين ألف رجل، معظمهم من الفرسان.

(إفريقيّة –بكسر الهمزة– والتّاء المربوطة، بلدة قديمة في تونس قِيلَ اخْتَطَّها إفريقش بن صيفيّ ولما فتح العرب القيروان خُرِّبتْ، وبقي اسمها، وحَدُّها من طرابلس الغرب إلى بجاية الجزائريّة وقاعدتها مدينة القيروان وعُرفت بالمغرب الأدنى، وعرضها من البحر الأبيض المتوسّط شمالاً وإلى الصَّحراء الكبرى، أمَّا إفريقيا – بالألف– فهي علم جغرافي على القارّة كُلِّها.)

وصل ابن أبي سرح إلى برقة فلقي عقبة بن نافع ومن معه، وتجهَّزَ الجمع وساروا إلى طرابلس، الّتي سُدَّتْ أبوابها في وجوههم، فَعَدَلُوا عن حصارها، وسارت كتائبهم نحو «سَبِيطْلَة» مباشرة وهي بلدة داخلية في جنوب غرب القيروان، وكان حاكمها «جرجير» وهو «جُرْجير» الّذي يحكم البلد باسم الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وكان مُلْكُه من طرابلس إلى طنجة، بإمرة إمبراطور القُسْطَنْطِينيَّة.

كان النَّصر في هذه الوقعة للعرب الّتي عُرِفت بـ: غزوة العبادلة»؛ لمشاركة سبعة من كبار الصّحابة فيها، كُلٌّ منهم اسمه عبدالله وهم: عبدالله بن العباس، وعبدالله بن أبي سرح، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن عمر بن الخَطَّاب، وعبدالله بن عمرو بن العاصّ، وعبدالله بن الزُّبير، وعبدالله بن مسعود، وبهذا الظَّفر والنَّصر ثَبَّتَ العرب المسلمون أقدامهم في المنطقة، وعَدَّ المؤرِّخون هذه الغزوة مقدّمة لما تلاها من غزوات، ومن فتوح للدِّيار المغاربيّة، إذ ساحت خيول العرب، وجالت إبلهم فيها، وهذا هو الفتح الثاني 29هـ/ 650م.

(عبدالله بن سعد أبي سرح أخو عثمان بالرَّضاعة حيث أرضعت أم ابن سعد عثمان، فهو أخوه لأُمه.)

الأُمويّون في طرابلس (661-750م)

وكانت الفتنة الكبرى بمقتل عثمان بن عفان (35هـ/ 656م) ولم تهدأ الأمور إلا بانفراد معاوية بن أبي سفيان بالسلطة هو وعشيرته (41هـ/ 661م)، وعَرَفَ العالم القديم الدولة العربية الأُموية والتي عاشت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام، وهي ألف ومئة شهر وشهر قمري(41-132هـ/ 661-750م) وعدة ملوكهم 14 شخصًا.

(*أقام معاوية الخلافة وأجرها على قاعدة المُلْك، فتحول الأمر من حكم شورى إلى حكم وراثي وهو ما نلحظه اليوم حادث في دول ذات حكم جمهوري ينص دستورها على التداول السلمي على السلطة، ويحدد مدتها، ولكن الواقع يشهد بأنها تنتهك كثيراً.*)

أثناء الفتنة الكبرى- والتّي دامت خمس سنين من الصِّراع المسلح بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان- ثار الأهالي في إفريقية (المدن اللّيبية والتّونسية) وخلعوا طاعة العرب، وأعلنوا استقلالهم القومي، واسترجع الرّوم البيزنطيون قوتهم، وأخذوا الأهبة لمجابهة العرب.

في خلافة معاوية كان الفتح الثالث لإفريقية حيث يتوجّه «حُدَيْج» القائد العربي في عشرة آلاف مقاتل، ليكون في مواجهة ضد قوات «نقفور» الرّوماني، ويُكَلَّفُ عقبة بن نافع بإخضاع الأهالي الذين تمردوا وأعلنوا عصيانهم في الدواخل.

تحرك عقبة بن نافع من برقة حتى نزل «مغمداس» بأرض سرت، ومضى في حملة صحراوية بأربعمئة فارس، وأربعمئة جمل، وثمانمئة قِرْبة ماء، حتى أتى وَدَّان الواقعة في المنطقة المعروفة بـ»الجُفرة»، ودانت له زَوِيلَة» واتخذها مركزا لقواته، وأقدم على فتح «غدامس»، ووصل إلى قفصة وشطّ الجريد بتونس، وأدت حملاته إلى استقرار عربي أوّلي (42 و43هـ/ 662 و663م).

اتّسَمَ الطابع العام لمرحلة العهد الأُموي في هذه المنطقة بالقلاقل والاضطرابات وكثرة الثورات والانتفاضات، وهو دور ارتبط بالمعارضة من جهة، والنزوع إلى الاستقلال من جهة ثانية، كما يحلّل الباحثون في التاريخ.

خاض عقبة غزوات وحروباً، واستطاع أَنْ يُوَطِّد أقدام العرب في البلاد المغاربيّة، وبوصوله إلى موقع نال إعجابه اختط قاعدة عسكرية ومدينة للناس عرفت باسم «القيروان» (50هـ/ 570م)، وهي في لغة العرب: موضع اجتماع الجيش، فكانت مدداً

لانتشار الإسلام في ربوع البلاد المغاربية والأندلسية، وأحدث فيها المسجد الأعظم الذي كمل بناؤه في خمس سنين وأعمدته: 414، وبلاطاته: 17، وطوله: 220 ذراعاً، وعرضه: 150 ذراعاً، والبلاط: ضرب من الحجارة تفرش به الأرض والمقصود: بالبلاطات المسافات بين الأعمدة.

ولم يزل عقبة بالقيروان حتى سنة 55هـ/ 575م، تم عزله مَسْلَمة بن مُخلّد الأنصاري القائم على مصر وإفريقية، وولى ابن أبي المهاجر، وفي عهد يزيد ابن معاوية (60_64هـ/ 680_ 683م) يعود عقبة أميرًا على القيروان مرة ثانية.

ويتحدث تاريخ المنطقة المغاربية عن كُسيلة بن لزم والكاهنة ديهية، واشتعال الحرب لسنوات طويلة أيام الدولة الأموية، فقد كانت البلاد المغاربية جميعها موقدا للانتفاضات ضد الحاكم العربي، ونشبت ثورات دامت عقوداً، وفي بسكرة، في الجهة الجنوبية من الجزائر دارت معركة بين عقبة بن نافع وكُسَيْلة الأمازيغي في نهاية سنة 63هـ/ 683م، قُتِلَ فيها عقبة وثلاثمئة من كبار الصحابة والتابعين، وكان بالقيروان زهير بن قيس البلوي، واعتزم على قتال كُسَيْلَة، فخالفه بعض رؤساء الجند، فاضطر إلى الخروج من القيروان معهم، ودخل كُسَيْلَة وجنده القيروان، ربض زهير وأصحابه في إقليم برقة إلى أنْ جاءه اختياره أميراً على إفريقية مِنْ قِبَلِ الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمَّده بالكتائب والسّلاح.

جابه زُهَير كُسَيْلَة سنة 67هـ/ 687م واستطاع دحره وقتله، واستقر الأمر بيد العرب في إفريقية مرة أُخرى، ورغب زُهَيْر في العودة إلى بلاده، وفي سواحل إقليم برقة (درنة) اعترضه أسطول صاحب بيزنطة، فكان مقتله وصحبه أواخر سنة 69هـ/ 689م، ودُفِنَ سبعون من الصّحابة والتّابعين بمقبرة الصَّحابّة بمدينة درنة.

أَولى الخليفة عبدالملك بن مروان ولاية المغرب لحسان بن النعمان الغساني سنة 76هـ/ 695م، وشهرت ديهية من زناتة –ملكة الأمازيغ، صاحبة جبل «أوراس» – السيف في وجه العرب، وتغلبت على «حسان» في بداية الأمر وبعد مدة استطاع حسان كسر شوكتها ودانت له إفريقية 84هـ/ 703م.

(قتل حسان ديهية ثم عقد للأكبر من أولادها على قومها، وأخذ منهم اثني عشر ألف رجل ليكونوا ضمن جنوده، وفي سنة 88هـ/ 707م، وَلَّى الخليفة الوليد بن عبد

الملك ابن مروان القائد موسى بن نُصَيْر إمارة إفريقية والمغرب، وبقيادة طارق بن زياد كان اجتياز البحر إلى الأندلس سنة 92هـ/ 711م.)

والأمازيغ من سلالة القبائل اللّيبية القديمة، ويرتبط تاريخهم بظهور «شيشنق» واعتلائه عرش مصر الفرعونية (950 ق م)، ويُرْجِع علماء النّسب الأمازيغ إلى جذمين عظيمين هما: برنس ومادغيس، فالبرانس نسبةً إلى ارتدائهم البرنس، وهو رداء يغطي الجسم من الرأس حتَّى القدمين، واستقر معظمهم في السفوح الشمالية لجبال الأطلس بالمغربين الأوسط (الجزائر) والأقصى (المغرب) أمّا البُتْر فنسبةً إلى لباسهم الذي يغطي الجسم سِوَى الرأس، وقد توطن معظمهم المغرب الأدنى (ليبيا وتونس)، وهم أربعة أجذام: أدّاسة، ونَفُوسة، وضريسة وبنولُوا الأكبر، وقد عرفتْ طرابلس القديمة من القبائل الأمازيغية: زناتة وهوارة، ونفوسة، وبالمدينة القديمة بابان يُعرفان ببابي زناتة وهوارة، وسيأتي الحديث عنهما.

واكتوى هشام بن عبدالملك- الخليفة العاشر من بني أُمية (105_ 125هـ/ 724_743م)، بثورات أهالي إفريقيّة. شَقَّ الأمازيغ العصا بعد أنْ سار فيهم الولاة بسيرة سيئة قبيحة، حيث استعمل الخليفةُ ابنَ الحَبْحَاب على إفريقيّة سنة 116هـ/734م، فوطأت عساكره بلاد السُّوس بالمغرب، فأثخن وسَبَى وغَنِمَ.

عَيَّن عبدالله بن الحبحاب نواباً له على المناطق، فعمد عمّاله في الأقاليم إلى ماشية النّاس، فجعلوا يبقرون بطونها، يطلبون الفراء الأبيض- ليرسلوه إلى الخليفة والأمراء والأعيان في دمشق، فكانوا يقتلون الصَّرْمَة من الغنم في جِلْدٍ واحد، وساموا الأهالي بأخذ كلّ جميلة من بناتهم، وكانوا يقولون لهم: «أنتم فَيْءٌ للمسلمين»، هكذا دون التّاريخ.

اجتمع الأهالي الأمازيغ وتباحثوا في الأمر، قال قائل: «لا نخالف الأئمة بما تجني العُمَّال»، فَأُجيبَ: «إنَّما يعمل هؤلاء بأمر أُولئك»، فارتحل وفد إلى الشَّام للشّكوى وإبلاغ الخليفة بالأمر، ولكن الحُجَّاب حالوا بينهم وبينه، فعادوا إلى ديارهم غَضْبَى.

وكانت ثورة عارمة ضد الحكم الأُموي استمرت ثلاث سنين انتشرت من السّوس الأقصى غربًا وحتّى أواسط ليبيا شرقاً، وكان الانتصار الكبير للأمازيغ على الجيش الأموي في معركة «الأشراف» قرب طنجة.

كان عبدالرحمن بن حبيب الفهريّ –في هذا الوقت– متطلِّعا إلى الحكم، راغباً في كرسي الرئاسة، وبإدراكه أنّ النّاس بدؤوا يتضايقون من والي إفريقيّة «حنظلة»، فقد اتَّصل ابن حبيب بالأعيان والوجهاء ورؤساء القبائل، فناصرته كُتامة، ووقفت إلى جانبه، فدعا إلى نفسه فأجابوه وبايعوه، فانطلق برجاله إلى القيروان، وانتزع السُّلطة من حنظلة الذي اتَّسم بالعنف تُجاه الأهالي الأمازيغ، وغدا الحاكم الجديد لولاية إفريقيّة والأندلس، وعَيَّنَ أقرباءه وجُلساءه في مناصب الدَّولة، واختار لطرابلس عمّه إلياس.

(الأسرة الفهريّة نسبة إلى نافع الفهريّ والد عقبة، حكمتْ الدّيار المغاربيّة، من: 126هـ _ 140هـ / 744 _757م، وقد استقل عبدالرحمن بن حبيب عن الأمويين وفي عهده جُدّدِ سور طرابلس من جهة البر 132هـ/ 750م.)

شعر الأمازيغ في جبل نَفُوسة بظلم الولاة والأمراء، ومعاملتهم باعتبارهم فَيْئًا للعرب، واحتقارهم واستصغارهم، فأخذوا يكتِّفون دعوتهم ويجوبون البلاد، من برقة شرقاً، إلى السُّوس الأقصى غرباً، وبدؤوا ينظِّمون أنفسهم، فأمَّروا عليهم رجلاً لَقَّبوه بِـ: «الرَّئيس» وهو: عبدالله بن مسعود التُّجِيبي، وكان معظم أنصاره من قبائل هوارة وزناتة، فاستاء والي طرابلس «إلياس» واحتدَّ، وقرّر اغتيال التُّجيبيّ لئلاَّ يصبح عثرةً أمامه، فأزهق روحه سنة 127هـ/ 743م، تقريباً، وملأ هذا الحادث نفوس الأمازيغ بالسُّخط على الوالي وبدأت الجموع تتهامس بإعلان الثّورة، ولكي يمتصّ عبدالرحمن بن حبيب نقمة النّاس عزل عمّه «إلياس» وعيّن حُمَيْد بن عبدالله العكيّ والياً على طرابلس.

(التُّجِيبيّ أحد العلماء الفقهاء العشرة الّذين أرسلهم عمر بن عبدالعزيز –في خلافته– إلى شَمال إفريقيّة؛ لتعليم النّاس أمور الدِّين. وهذا هو الرّاجح.)

بعد مقتل التُّجيبي اصْطَفَى الأمازيغ الحارث بن تليد الحضرميّ إماماً، وعيّنُوا عبدالجبار بن قيس المُرَاديّ قاضياً ومستشاراً، واستعدوا للقتال، فخاضوا معركة شديدة ضدّ قوات والي طرابلس حميد بن عبدالله العكّي الّذي انهزم واستسلم.

أرسل عبدالرحمن بن حبيب والياً جديداً واسمه يزيد بن صَفْوان المعافري، فحاول استمالة هوارة، وأغراهم بالمناصب والأموال، وبفشل الوالي ابن صفوان في مسعاه صمَّم على غزوهم في ديارهم، فتوجّه مع القائد العسكري «ابن مقرون» إليهم، ولكن الأمور

جرت على غير ما أرادا، إذْ كانت الأمازيغ قد استعدت استعداداً جيّداً، فهزمت عساكر ابن صفوان وأجهزت عليه، وعلى ابن مقرون، فاضطرب مجاهد بن مسلم لهذا الاندحار، فطلب المدد من القيروان، وخاض معركة قاسية قرب «حَطِيسَة» فَهُزِمَ وارتدَّ مع فلول جنده، فزحف الأمازيغ صوب طرابلس فدخلوها، ثم سيطروا على المنطقة الواقعة من سرت شرقاً وحتّى قابس غرباً.

أعَدَّ عبدالرحمن بن حبيب عساكره، وامتشق حسامه، وطلب ثأره، وبادر بالهجوم على الأهالي، وكان في جيش كثيف وإعداد حسن، فظفر بالحارث وعبدالجبار (من قادة الأمازيغ) فقتلهما، وأعمل السَّيف في رقاب النّاس، من خصومه وأعدائه، فاستسلم الجميع له ودانوا.

يذهب المؤرخ ابن عبدالحكم في كتابه فتوح مصر وأخبارها أنه بعد الانتصارات التي حققها الحارث وعبد الجبار دب بينهما الخلاف، ويذهب الباحث ابن دبوز في كتابه المغرب الكبير أن عبدالرحمن بن حبيب دس عليهما من يترقبهما، فلما كانا وحدهما تقدمت جماعة وادعوا من أهل الحاجات فقتلوهما، ودسوا سيف كل منهما في الآخر ليظهر أنهما قتلا بعضهما البعض.

في سنة 132هـ/ 750م، اختار الأمازيغ إسماعيل بن زياد النَّفُوسيّ رئيساً، فهيمن على مناطق واسعة، ووصل إلى قابس، فأصيب ابن حبيب بصدمة عنيفة للهزائم الّتي مُنِيَ بها جيشه، فيقود بنفسه رجاله ويعترض النَّفوسي فيقتله، ويدخل طرابلس في السّنة نفسها، ويأمر بذبح زعماء الأمازيغ، وكانت المجازر في كل ناحية، فخلد الأمازيغ إلى الهدوء، واستتبّ الأمر للأسرة الفهريّة لثماني سنين، من: 132هـ. إلى: 140هـ/ 750-757م.

العباسيّون في طرابلس (750-800م)

انقضّ العباسيّون في سنة (132هـ/ 750م) على آخر حكام الأُمويين وهو: مروان الملقب بـ»الحمار»؛ لأنه لا يَجِفُّ له لُبْد في محاربة الخارجين عليه، وهو الخليفة الرابع عشر من العائلة الأُمويّة وقد قُتِلَ وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة.

ومن خلفاء الدولة العباسية أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد وترتبط طرابلس

بأخبارهما، ففي سنة 180هـ/796م، أيام ولاية هرثمة بن أعين على إفريقية زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد كان بناء سور طرابلس من جهة البحر «الجهة الشمالية»، وقد بناه على يد ثقته زكريا.

الخطّابيّون في طرابس:(757-761م)

من الأحداث في هذه المنطقة في أوائل العهد العباسي ثورة أبي الخَطَّاب العربي الإباضي واسمه «عبد الأعلى بن السَّمح المعافري» الذي أوصى بزعامته لأهل جبل نَفُوسة «أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي» الشَيخ الثاني للإباضية في البصرة.

(*القائد الروحي للإباضية هو التابعي الإمام جابر بن زيد (21-93هـ/ 642-712م)*، والإباضية نسبةً إلى عبدالله بن إباض والذي كان يتحدث باسم الجماعة، ويتصدى لخصومهم، وبه عُرِف المذهب، وفي التّاريخ أنَّ سَلَمَة هو الداعية الأول للإباضية في الديار الطرابلسية، حيث كسب أنصاراً في طرابلس المدينة وجبل نفوسة وغدامس، وبوفاته يصبح ابن مُغَيْطر «محمد بن عبدالحميد الجَناوني» مقدمّ الإباضية، ويغدو جبل نفوسة الموقع الرئيس لإباضية المغرب الأدنى خلال الثلث الأول من القرن الثاني الهجري، وانتشر المذهب في الأمازيغ من: هوارة، وزناتة، والماية، ولواته، وغيرهم، ونُذكّر بأن الإباضية لا تشمل كل الأمازيغ، حيث يتمثل البعض بالمذهب المالكي.)

كاشف أبو الخطاب أتباعه، ودعاهم إلى إمامة الظهور، فالوقت قد حان للتخلص من التبعية لآل العباس، فبايعوه في بلدة صياد غربي طرابلس، واختاروا «إسماعيل بن دَرار الغدامسي» قاضيًا، وكان ذلك سنة 140هـ/ 757م.

(ابن درار من حملة العلم الإباضي الذين ذهبوا إلى البصرة، وأخذوا عن الإمام «أبوعبيد مسلم» في القرن الثاني الهجري)

أَعَدَّ أبو الخطاب خطته لدخول طرابلس، فأدخل المقاتلين في جَوَاليق حُمِلَتْ على الجمال، وكأنّها بضاعة للبيع، وعلى حين غِرَّة من الحُرَّاس، توسَّطت المدينة، فخرج منها الرِّجال وأشهروا السِّلاح وصاحوا صيحة واحدة: «لا حُكْمَ إلاّ لله»، وبمساعدة مَنْ كان بداخلها من أهل دعوتهم سيطروا على مداخلها، واقتحموا قصر الوالي، فلم يكن له بُدٌّ من الاستسلام، وأحسن أبو الخطّاب السِّيرة، وأظهر العدل، ولم يتعرض للسّكان بأذىً، كما يذكر المؤرِّخون.

(الجُوَالق: بضمّ الجيم: الغِرارة، والجمع جَوَالق، بفتح الجيم.)

وزحف أبو الخطاب في ستة آلاف مقاتل، فدخل «جربة» واستولى على «قابس» ثم رنا نحو «القيروان» لإنقاذها من ورفجومة بعد أن سمع بظلمها وفسادها، وما فعلته بالقيروانيات وما وصل سمعه من أخبار تدنيس الجامع الأعظم بالتبرز في أنحائه، وافترق أهل القيروان بالنواحي فرارًا بأنفسهم، وشاع خبرهم بالآفاق.

وثيقة: «دخلت ورفجومة القيروان فاستحلُّوا المُحَرَّمات، وسَبَوْا النِّساء والصِّبيان، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع، وقتلوا مَنْ بالمدينة مِنْ قريش، وندم الّذين استقدموهم أشد ندامة.» الرَّقيق

(ورفجومة قبيلة وثنية وقيل فرقة صفرية)

حاصرت جيوش أبي الخطاب القيروان، وبغتة أُمِرَتْ الكتائب بالرّجوع إلى «رَقَّادة»، وهي بلدة بالقرب من القيروان؛ إيهاماً بالانسحاب وعدم المواجهة، فتعقبته ورفجومة، وفوجئوا بكمائنه، وكان النَّصر حليف أبي الخطّاب، فَوَلَجَ «القيروان» وكان ذلك سنة 140هـ/ 757م، وتَذْكُرُ المصادر أنَّه أمر أتباعه بأنْ لا يتبعوا مُدّبِراً، ولا يُجْهِزُوا على جريح، وباستقرار الوضع الأمني له قَرَّرَ العودة إلى مقرّه بالبلاد الطرابلسية، ومجابهة خصومه من بني العبّاس، وقبل رحيله عن القيروان اختار لها عبدالرحمن بن رستم الإباضي أميراً.

اختار الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور قائده «ابن الأشعث الخزاعي» ليواجه أبا الخطاب ولكن حملة ابن اشعث انكسرت في بلدة مغمداس، ويستعد لحملة أُخرى بنحو أربعين ألف مقاتل، وفي «وِرْدَاسة» بالقرب من تاورغاء، وكانت المعركة العنيفة الّتي ذهب ضحيتها أبو الخطاب وأُبيد رجاله، وقُطِعَ رأسه، وأُرسِلَ إلى بغداد، وكان ذلك في شهر ربيع الأوّل من عام 144هـ/ 761م، وتمَّ ربط وإلحاق طرابلس بالدولة العباسيّة.

(مغمداس: على شاطئ البحر بالقرب من سرت، ووِرداسة تحريف كلمة قَدَّاس وهو قصر قديم بين وادي سوف الجين ووادي زمزم، غربي تاورغاء إلى الجنوب بنحو 30 كم. كما يوثّق المؤرخ الطاهر الزاوي.)

أسَّسَ ابن رستم مدينة «تيهرت» العريقة بالجزائر، وهي غيضة بين ثلاثة أنهار، فيها

آثار عمران قديم بين تلمسان وقلعة بني حمّاد، والتحق كثير من إباضية جبل نفوسة بابن رستم وتنادوا فجهروا بإمامة الظهور (إمامة بيعة) وبإعلانها وُلدت إمارة إباضية شمل نفوذها أغلب الجزائر والجنوب التونسي، والجناح الغربي من البلاد الطرابلسية.

(الدولة الرسّتمية من 160هـ إلى 296هـ/ 776-909م.)

عُرِفَ ابن رستم بالتقشف والزُّهد، والقدرة على التنظيم، وهو من حملة العلم عند الإباضيين، وكانت وفاته سنة 168هـ/ 785م، وفي فترة حكم ابنه «عبد الوهاب»(168-238هـ/ 785-852م) استولى الرستميّون بالتعاون مع أهالي جبل نفوسة على المناطق الداخلية لإقليم طرابلس، وتركوا للأغالبة الشواطئ، بعد مفاوضات بينهما وأصبح الجبل مستقلاً تابعاً اسميًّا للدولة الرستمية، ومع مرور الأيام انقضَّت الدولة العبيدية (الفاطمية) على الرّستميين سنة 296هـ/ 909م، فزالت إمارتهم بعد قرن وثلث تقريباً.

وثيقة: كان نظام الحكم في الدولة الرستمية شوريًّا، راجت الأعمال التجارية والفلاحية والعمرانية، وانتشرت الثقافة العربية بشكل ملحوظ، وغدت مدينة «تيهرت» ملتقى القوافل التجارية ووفود طلاب العلم». (يحيى بوعزيز)

الأغالبة في طرابلس (800- 909م)

أرسل أبو جعفر المنصور قائده الأغلب التّميمي إلى إفريقية؛ لإعادة الهدوء والسيطرة على القلاقل- كما يرى-، وفي أحد المعارك يُقْتَل، ويتولّى القيادةَ من بعده أبناؤه وأحفاده الذين استقر المقام بهم في تلك الربوع، وفي عهد هارون الرشيد يلتمس «إبراهيم بن الأغلب» الحكم الذاتي في ظلّ الدولة العباسية ليكون في مواجهة الأدارسة وبني رستم المناهِضَيْن للعباسيين.

(دولة الأغالبة عربية، مستقلة عن العباسيين إداريا، مع الارتباط بالسّياسة العباسية الخارجية العامة، وقد عاشت دولة الأغالبة 112 سنة (184 _296هـ/ 800_909م)

وثيقة:«في شهر المحرم 184هـ/ 800م، ولّى هارون الرشيد الأغلبي «فقام بالولاية، وضبط الأمور، وسكنت البلاد» (النائب الأنصاري).

وثيقة:«ثورات الأهالي في عهد الأغالبة، بعضها ناشئ عن ضيق بالحكم الأغلبي ونفور منه، وبعضها ناشئ عن تفاعل مع الدّولة الرستمية الإباضية الخصم للدولة

العباسية السُّنية» (خليفة محمد التليسي).

من الأحداث في فترة الأغالبة محاصرة الجند لوالي طرابلس «عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب» (196هـ/ 812م)، وبمفاوضات سمحوا له بالخروج من داره بالمدينة، فخرج واجتمع عليه الناس وبذل العطاء، وزحف إلى طرابلس فهزم جندها، واستولى عليها ثم اضطرلمغادرة طرابلس ليخلف أباه في الحكم.

وَوُلي سفيان بن المهاجر «ولايته الثانية» فثارت هوارة واقتحمت المدينة فحشد إبراهيم بن الأغلب جيشًا في ثلاثة عشر ألف، وأُعاد معهم ابنه، «قَتَلَ وأَثْخَنَ فيهم، واسترد المدينة، وجدّد ما خُرب من أسوارها.

خفَّ الرستميون لمناصرة هوارة، فاستعد عبدالله بإغلاق باب زناتة والدفاع عن المدينة من جهة باب هوارة، وأثناء ذلك توفي إبراهيم بن الأغلب الأب في شوال 196هـ/812م وعمره 56 سنة، وعهد بالولاية إلى ابنه عبدالله فأخذ في مصالحة هوارة على أنْ تكون المدينة داخل السّور والساحل البحري والغربي للأغالبة، وأنْ يكون ما خارج السور إلى سرت تابعاً للدولة الرستميّة، ولم تَطُلْ إمارة ابنه «عبد الله» على إفريقية حيث مات في ذي الحجة سنة 201هـ/ 817م.

(هوارة: قبيلة أمازيغية امتدت ديارهم من طرابلس المدينة إلى الجنوب، وباب هوارة بالمدينة القديمة هو باب المنشية (الفتحة في بداية سوق المشير) ويقود إلى ديارهم، أمّا هوارة بني الخَطَّاب فهي في زَوِيلَة «فَزَّان».)

اهتم الأغالبة بالأهالي الأمازيغ كثيراً، حيث كانوا يشكِّلون الأكثرية، ولأنهم ذوو شوكة وجرأة، فكانوا ظَهْراً يُعتمد عليه، وقد احتوى الأغالبة قبيلة هوارة، فدفعوا بها إلى فتح جزيرة صِقِلّية، ففي أسطول من مئة مركب حربي يندفع «أسد بن الفرات» نحو الجزيرة سنة (212 هـ/ 827م)، ويتوغل في المدن الواقعة على خليج «تورنتو» في الجنوب الغربي لإيطاليا، ثُمَّ قصد جزيرة «مالطا» التي تقع بين أيدي العرب.

وثيقة: « وهكذا يبدو بوضوح الدّور الذي لعبته طرابلس كمدينة، وأهل نواحيها الداخلية في فتح صقلية، وتكاد تغفل المصادر الحديثة هذا الدّور ولا تتحدث عنه، وقد ذكر صاحب «رياض النفوس» أنَّ أحد زعماء هوارة وهو «زواوة بن نِعْمَ الخَلْق» قد انظمَّ إلى المحاربين المتجهين إلى صِقِلّية.» *(خليفة محمد التليسي)*

وفي أيام الأغالبة ظهر الرّجل الصالح الزّاهد «عبدالله الشّعاب» المولود بطرابلس، امتهن حرفة التّجارة، واتّخذ المسجد مقاماً له، ودُفن في ساحته، وحمل اسمه منذ وفاته (243هـ/ 857م) حتّى اللحظة، وقد أرّخ المؤرخون والرّحالة الأقدمون به في كتاباتهم، وبعد 17 فبراير 2011م أزيل قبره، فلا شاهد!!.

وثيقة: «وكان من أهم أعمال الأغالبة مصاهرة العرب للبربر واختلاط هذين الشّعبين.» *(حسين سليمان محمود)*

شجّع الأغالبة العلم والأدب، وعَنَوْا بالتجارة والزراعة، وازدهر العمران في عهدهم، فنظموا البريد، ورمّموا الحصون والقلاع، وعَنوا بالأسوار، وتأسّستْ مساجد على السواحل، لتكون رباطات للعبادة، ومحارس للمرابطين.

بُنِيَتْ الحصون والمحارس بساحل البحر حتّى كانت النار توقد في ساحة «سَبْتة» المغربية للإنذار من العدو، فيصل إيقادها إلى الإسكندرية المصرية في ليلة واحدة، وهو ما جعل مشاعل النيران بمثابة البريد المستعجل، وقد اتّخذ بعض النُّساك والعُبّاد هذه الرباطات مثوى لهم، فأدُّوا وظيفة حُرّاس السواحل.

(سبتة ومليلة من الأراضي المغربية، ولاتزال إلى يومنا هذا تحت الاحتلال الإسباني.)

الطُّولونيّون (881م)

وشهدت طرابلس في أواخر العهد الأغلبي بها حملة «عباس بن أحمد طولون» الذي خرج عن حكم والده بمصر إذْ توترت العلاقات بينهم، فقدم لاحتلال طرابلس في 800 فارس، و10 آلاف مقاتل على ظهر 5000 بعير، وحمل معه الذهب لإرضاء رجاله.

(الدولة الطولونية نسبةً إلى أحمد بن طولون الأوّل، الذي حكم من 868م إلى 884م، وقد دام الطولونيّون إلى سنة 905م.)

زحف على برقة سنة 265هـ/ 878م، وأخذها، وواصل سيره إلى نواحي سرت أوْ لبدة ، وهناك تصدّى له «ابن قَهْرُب» الذي كان يتولّى طرابلس، والذي تجهّز بنحو عشرة آلاف جندي، ومع هذا لم يقدر على حشود الطولونيّين فآثر الانسحاب.

(توليت ابن قَهْرُب من قبل أبي الغرانيق الأغلبي فاتح جزيرة مالطا 255هـ/ 869م.)

بلغ الطولونيّون طرابلس 267هـ/ 881م فحاصروها ثلاثة وأربعين يوما ولم يقدروا

على اقتحامها، وبانتشار الجوع والمرض فيها وتعدى بعض الجنود على البدو وهتكوا الحرم–فلجأ أعيانها إلى أمير جبل نفوسة الذي كان يحكم باسم الرستميين (غير خاضع للأغالبة) وهو: «إلياس بن منصور النفُّوسى» ذو السّيرة العطرة، الذي استجاب لطلب الطّرابلسيين، وفي جيش من اثني عشر ألف مقاتل كان الهجوم القوي من رجاله على عساكر الطولونيين في منطقة قصر الحواتم، ما اضطر الطولوني على التقهقر والتراجع منهكًا إلى قواعده في مصر، وقد ترك الطولونيّون في أرض المعركة ستين حملاً من الذّهب لم يأخذ الإباضيون منها قطعة واحدة، ويُعَقِّب الوارجلاني، المؤرخ الإباضي على هذا الحدث بقوله: «يالها من خسارة كبيرة! « كما جاء في أطروحة الدكتوراه للباحث عمرو خليفة النّامي وغيره من الدراسات التي اطلعتُ عليها.

وثيقة: «ولم يتلبس منها أهل نفوسة بشيء تورعًا منهم» (النائب الأنصاري).

(وادي الحواتم بترهونة، به بقايا أبنية.)

وثيقة: «فاستغاث أهل طرابلس بابن منصور، صاحب نفُوسة، فقام محتسباً وناصراً جيرانه من المسلمين، وزحف في اثني عشر ألفاً من رجال نفوسة، وقد أَلَحَّ أهل نفوسة في محاربة ابن طولون فانهزم، وخرج إلى برقة بعد انتهاب أهل طرابلس لجميع عسكره، ولم يلتبس النَّفوسيّون منه بشيء، بل تورعوا عنه» (ابن غازي المُكناسي).

العبيديّون (الفاطميّون) في طرابلس (911 - 972م)

العبيديُّون نسبةً إلى عُبَيْد الله الشّيعي الذي تلقب ب»المهدي» وأعلن قيام دولته (296هـ/ 909م) بِـ «سِجِلْمَاسة» الواقعة في الصحراء، جنوب المغرب الأقصى، ثُمَّ قَدِمَ إفريقية (تونس)، ودام حكمه قرابة ستّ وعشرين سنة قمرية، ابتنى المهدية بتونس 303هـ/ 915م وجاء بعده ابنه القائم بأمر الله (12 سنة) ثم ابن القائم وهو المنصور (22 سنة) ثم ابن المنصور وهو المعزّ لدين الله (24 سنة).

والشيعة هم أولئك الذين والُوا عليًّا وآل بيته، والإمامة عندهم أصولية إيمانية، والتشيع لآل البيت ركن من أركان الدين، ولا تخرج الخلافة عن آل البيت، فإن خرجت فهي مغصوبة منتزعة من مستحقيها.

(ومن الطوائف الشيعية: الأثنا عشرية (الإمامية) والزيدية والإسماعيلية، والعبيديّون

من الطائفة الإسماعلية ونسبها إلى إسماعيل بن الصادق «جعفر بن محمد» وآخرهم المهدي صاحب السّرداب، دخله: 260 أو 265هـ/874 أو 879م والشيعة ينتظرون خروجه.)

خاضت الدولة العبيدية حروبًا طاحنة متواصلة على مدى سنين قضت بها على حكم الأغالبة والرستميين والأدارسة، وتوحَّدَ المغرب الكبير تحت راية الأئمة الإسماعليين في دولة شيعية واحدة في الشَّمال الإفريقي.

وبتولي العبيديين أمر طرابلس انتقضت هوارة بقيادة «أبو هارون الهواري» وساندتها مجموعات من زناتة والماية، وضَرَبَتْ حصارا على طرابلس المدينة التي كان واليها «ماكنون بن ضبارة اللَّحياني وهو من كُتامة التي ساندت العبيديين، فأولوهم طرابلس.

تطاول ماكنون في الحكم، وبسط أيدي بني عمه من «كُتامة» في أموال الناس، وامتدت إلى حرماتهم، فثار به الطرابلسيّون وأخرجوه، وأغلقوا أبواب المدينة، وقتلوا أنصار ماكنون، وولّوا عليهم القرشي الملقّب بـ» ابن القرلين»، وكان ردّ عبيد الله المهدي أنْ أرسل أسطولا (خمس عشرة سفينة) فقابله الطرابلسيون بمراكبهم وهزموه، فانصرف عنهم.

وثيقة: استمرَّ أمد هذه الثورة شهوراً «أظهر أهل طرابلس ضروبا من البطولة والشجاعة في البرّ والبحر، وسجلّوا مفاخرهم كمقاتلين بحريين مهرة.» (التّليسي)

وغاضت الهزيمة عبيد الله، فوجه عساكره برًّا هذه المرة، في جُمَادَى الأولى **300هـ/913م** بقيادة ابنه أبي القاسم الملقب بالقائم بأمر الله، فَشَهَرَ سيفه في منازل هوارة، وشدّد الحصار على طرابلس «حتى نفد قوت أهلها وأكل النّاس الميتة» وأخمدت الثورة، وعُوقب الأهالي بدفع نفقات حملته، وبعث برؤوس القتلة إلى رَقَادة حيث نُصبت، وأمر بتعذيب زعماء الثورة، ومصادرة أموال الأغنياء، وظلَّت طرابلس تقبل عمال العبيديين وقضاتهم رغم الضيق والتّبرّم من نظام الحكم وإنْ لم يقصروا في الطاعة والانقياد إليهم.

(رَقَادَة بلدة جنوبي القيروان، وقعت فيها حروب بين أبي الخَطَّاب الإباضي وقبيلة ورفجومة، وقد قُتِلَ من ورفجومة خلق كثير، وهكذا سُمِّيت المنطقة بِرَقَادَة، لكثرة ما رَقَدَ فيها من القتلى.)

وأكّدت انتفاضات الأهالي الأمازيغ ضد العبيديين- وعلى وجه الخصوص ثورة أبي يزيد اليفرني في جبال الأطلس والتي انتهت مع العام 336هـ/ 947م أهمية نقل عاصمتهم إلى القاهرة، واتخذ القرار أيّام المعزّ لدين الله.

بوفاة كافور الإخشيدي المُكَنَّى بأبي المِسْك صاحب مصر يخلفه حفيده في إدارة شؤون البلاد، وكان صغير السن فَكَثُرَ الطامعون في العرش، وعمّت الفوضى وتهيأت الفرصة للعبيديين للانقضاض على الإخشيديين فاشتدت هجماتهم على مصر، فيتقدّم جوهر الصِّقلّي القائد العسكري للخليفة «المعز لدين الله» ويغنم المحروسة، ويؤذن الشيعة «حَيَّ على خير العمل»، ويخطب جوهر لمولاه بالجامع العتيق بالفسطاط، ويختط مدينة القاهرة، ويشرع في بناء الجامع الأزهر (رمضان 362هـ يونيو 972م)، الذي استغرق نحو العامين، وفي ذلك الوقت كان هناك ثلاثة مساجد: مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط (21 هـ/ 641م)، ومسجد العسكر في مدينة العسكر (133هـ/ 750م)، ومسجد أحمد بن طولون في مدينة القطائع (265هـ/ 879م).

بعد سنوات معدودات من دخول جوهر الصِّقلي إلى مصر، ينتقل إليها المعزّ ليوطد سلطانه فيها، وليشهد عظمة ملكه، وتسمَّت الدولة العبيدية بالفاطمية نسبةً إلى فاطمة الزهراء، ودَوّن التّاريخ أنَّ أيام المعز وهي زُهاء ثلاث وعشرين سنة قمرية كانت العصر الذهبي للفاطميين، فقد كان مثقفاً، محبًّا للعلوم والآداب، مشجعاً للعلماء ورواد الثقافة، حسن التدبير، وغادر الدنيا بعد سنتين وأشهر من دخوله القاهرة (365هـ/ 975م).

وتشهد طرابلس هدوءاً، ويكثر المهاجرون إليها من القيروان والمهدية، ويُزَادُ في بناء سورها وجاء في كتب التاريخ أنَّ طرابلس أخذت تزداد في سعة عمرانها، فنمت وعمَّها الهدوء، وكان ذلك أيام المعزّ، وتغدو المدينة ذات أسطول تجاريّ جيّد.

امتدت الدولة الفاطمية من الأطلس غرباً وإلى الشام شرقاً، وخضعت الحجاز (مكة والمدينة) لسلطة الفاطميين. أنشؤوا المشهد الحسيني في القاهرة، واقتحموا مدينة «جنوة» في أقصى الشّمال الغربي لإيطاليا، وضربوا الدنانير الذهبية بأحجام مختلفة.

ويُرْوَى أَنَّ رحلة المعز لدين الله إلى مصر بدأت من بلدة قابس بتونس، حيث أمر بحفر آبار المياه في طريقه، وبناء قصر في كلّ موضع ينزل به، وفي حشد ضخم من أتباعه دخل طرابلس في 24 من ربيع الأول 362هـ/ 972م، فَرَحَّبَ به الأهالي، وأقيمت

المهرجانات، واستقر بطرابلس 22 يومًا، ومنها واصل سيره إلى سرت وإجدابيا، ثُمَّ نزل برقة، ومنها إلى القاهرة.

والرّواية الشفهية عند الطرابلسيين أنَّ جامع الناقة بحي الفنيديقة حاليًّا بالمدينة القديمة يرجع إعادة تشييده إلى ذلك العصر، حيث أهدى المعزّ بعيراً محمولاً بالنفائس إلى الطرابلسيين فشكروا له ذلك الصنيع، واجتهدوا في بناء مسجدهم العتيق، وقد تعرّض الجامع للدّمار أثناء الاحتلال الإسباني لطرابلس فَجُدِّدَ في عهد الوالي العثماني صِفْر داي سنة 1610م، وآخر الترميمات القديمة كانت بعد الحرب العالمية الثانية حيث تحطمت بعض الأروقة بالقنابل.

(يبدو أنّ جامع الناقة قد شُيِّدَ في أوائل الفتح الإسلامي، وعبارة إعادة تشييده في عهد العبيديين- عند بعض المؤرخين- توحي بذلك، كما انَّ الباحث التاريخي الطرابلسي علي مسعود البلوشي يشير إلى أنّ بناءه يعود إلى ما قبل العهد الفاطمي.)

وجامع النّاقة من أشهر مساجد طرابلس القديمة، يخلو من النقوش والكتابات الزخرفية، أعمدته من مبان رومانية قديمة، ويتميز بطراز المساجد الإسلامية الأولى، من حيث وجود صحن مكشوف محاط بأروقة من أربع جهات، وبيت صلاة مربع الشّكل تقريباً، له ثلاثة أبواب، اثنان منها تقود إلى بيت الصلاة، والثالث يَفِيضْ إلى الميضأة، وببيت الصلاة 26 عمودًا مختلفة الأشكال تحمل عقوداً، تيجانها تمثِّل عناصر من العصر الرّوماني، مستخلصة من مدينة أويات القديمة، وتحمل الأعمدة أقواساً متقاطعة تسند السقف المكوّن من اثنتين وأربعين قبّة صغيرة، وسبعة أقبية برملية، وللجامع مئذنة ذات قطاع مربع من الطراز المعماري المغربي، وبأسلوب المدرسة المعمارية المحلية، كما وصف من قبل الباحثين.

قال عنه التّجاني الذي رآه في زمنه: «بين القصبة وهذه المدرسة (المستنصرية) جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بني عبيد، جامع متّسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار متّسع مرتفع على أعمدة قائمة على الأرض مستديرة، وكان بناؤه في العام المكمل للمئة الثالثة (الهجرية) على يد خليل بن إسحاق وأصله من طرابلس، وإنَّ «شكراً» المعروف بالصقلي ابتني الماجل والقبة التي عليه.»

(يعترض بعض الباحثين على كون جامع طرابلس الأعظم هو جامع الناقة، وقد يكون وصفه بالأعظم عند بعض الرّحالة باعتباره أقدم المساجد وقتئذٍ، إذ إنّ جامع عمر بن العاص اندثر.)

ومكانة هذا الجامع العتيق عظيمة عند الطرابلسيين بمختلف المناطق التي ارتحلوا منها واتخذوا طرابلس القديمة إقامة لهم، وقد كنتُ في صباي ألجأ إليه وأتردّد عليه، واتخذ ركنًا في صحنه الخارجي للمطالعة والمذاكرة، وكان القيّم الشيخ محمّد الورّاق وأخوه عبد الله يرحبان بي، جزاهما الله كلّ خير، والجامع عُرِف برجالٍ من ذوي الصَّلاح، منهم الشيخ علي سيالة، والشيخ علي خِضر، والشيخ محمد زريق، والشيخ حافظ قنبور، والشيخ مصطفى التريكي وغيرهم من العلماء والزُّهاد والصالحين أمّا الآن فيؤم المصلين ويخطب الجمعة صديقنا الشيخ سالم المحمودي.

*(في ترميم جامع الناقة اكتشفت اللجنة الفنية لجهاز إدارة المدينة القديمة (**2020**م) الميضأة القديمة والتي قد تؤشر إلى فترة بناء الجامع، كما يقول المهندس نوري سالم أعويطي عضو لجنة الجهاز.)*

وبعد أربعة عشر مستخلفاً انقرضت الدَّولة الفاطمية إذْ تمكّن صلاح الدين الأيوبي من إنهائها وإقامة دولته الفتية، وإعادة الخطبة للخليفة العباسي في بغداد.

*(عاشت الدّولة الفاطمية **263** سنة شمسية (**909–1172**م) منها «**63** سنة في إفريقية، **200** سنة في مصر».)*

الزِّيريّون الصَّنهاجيّون في طرابلس (972م)

حضر الوقت لمغادرة العبيديين المهدية صوب القاهرة، فالتمس أحد أتباع المعزّ وهو بُلُكِّين الزِّيري الصِّنهاجي أنْ يحكم هو وأولاده المهدية، وتعهد بأنْ تكون تبعية إمارته للعبيديين(الفاطميين)، وهكذا نشأت الدّولة الزيريّة.

أراد المعز لدين الله الفاطمي أنْ تكون طرابلس وما يليها شرقًا خاضعة له مباشرة، فألحقها بمركز خلافته في القاهرة، وأولى إقليم طرابلس عامله «ابن يخلف الكُتامي، إرضاءً لقبيلة كُتَامة، ولكي تكون في مراقبة بني زيري الصنهاجيين وأعطى «الصِّقلِّي» عامله إقليم برقة، من إجدابيا حتى السّلوم، والصقلِّي من الحراس في بلاط الخليفة.

بوفاة المعزّ الفاطمي وتولّى ابنه « العزيز بالله، نزار « طلب بُلُكِّين إضافة ولاية طرابلس إلى أعماله، فوافق العزيز بالله ضم طرابلس وسرت وإجدابيا إليه، وكان ذلك سنة 365هـ/ 976م.

وأمراء الدولة الزيريّة الأوائل هم: بُلُكِّين المؤسِّس، والمنصور، وباديس، والذين كانوا تبّعًا للدولة الفاطمية، وخلال عهودهم عرفت طرابلس عادة ذميمة بعبارة محمود ناجي صاحب كتاب «تاريخ طرابلس الغرب» وهي: «أنَّ كلّ صاحب بيت كان يخبئ رأس أحد الخراف التي يذبحها في عيد الأضحى حتّى إذا كان يوم عاشوراء (العشرة من المحرّم) تُؤْكَلُ تلك الرؤوس، ومن عاداتهم المقيتة أنهم كانوا يزينون جملا يجوبون به الشوارع والأزقة، مشيرين بذلك إلى وقعة الجمل ولذِكراها، فالجمل الذي يطوف به شبان طرابلس هاتفين «أهو الفول يا فلفول»، لم يكن تقليداً لا معنى له.»

ومن المعروف أنَّ وقعة الجمل بالقرب من البصرة، نسبةً إلى الجمل الذي كانت تركبه عائشة بنت أبي بكر في حربها لعلي بن أبي طالب، وقد استطاع جند علي دحر أصحاب الجمل بقتل طلحة وفرار الزُّبير، ويتتبعه أنصار علي ويقتلونه، وتُؤخذ عائشة أسيرة، ثم يُفرج عنها بكفالة أخيها «محمّد»، الذي كان في صفّ علي، فتعود إلى بيتها، وتلزمه إلى حين وفاتها.

من ولاة طرابلس أيام العبيديين في مصر، وباديس الصنهاجي في إفريقيا «زيان الصِّقلِّي» (أبو الفتوح) وهو المذكور باعتنائه بإصلاح أسوار المدينة من جهتي البرّ والبحر حيث زاد في ارتفاعها، سنة 390هـ/ 1000م، ويُشْهَد له بأنه قام بأعباء الحكم خير قيام وحَسُنَتْ سيرتُه ولكن باديس لم يرض به فزحف عليه وقتله.

(لم يبق من الأسوار الآن (2021) سِوَى: السُّور الغربي، والجزء الجنوبي خلف وزارة الداخلية سابقًا، وجزء من السّور الشمالي المجاور للمدرسة البحرية العثمانية بباب البحر.)

انتهت الإمارة إلى المعزّ بن باديس بن منصور بن بُلُكِّين وهو الأمير الرابع من العائلة الزيرية الصَّنهاجية، له سجل حافل بالأحداث، وقد نودي به بعد وفاة أبيه وعمره ثماني سنين وأربعة أشهر وكان تابعاً لدولة الفاطميين في مصر، يخطب لهم على المنابر، ولمّا عُهِدَ إلى وزيره «أبي الحسن الزَّجَّال» تربيته وتنشئته، فقد حرص على أنْ يُنَشِّئ الأمير الطفل على اعتقاده، وهو ولاؤه للسُّنّة وإن كان الأمر تَقِيَّة.

أثمر جُهد الزَّجَّال، فتبنَّى المعزّ طريقة مذهب أهل السّنة وجاهر بذلك، وأصبح مالكيًّا في فقهه ومعاملاته، أحرق أعلام الفاطميين وشعاراتهم، واتخذ أعلام العباسيين، وجعل المالكية المذهب الرسمي للدولة.

وفي مدونة التاريخ أنَّ أضخم مُلك عُرِفَ للأمازيغ بإفريقية وأترفه وأبذخه كان في فترته، ويُذْكَرُ أنَّ كثيراً من أمازيغ الشَّمال الإفريقي تمذهبوا بالمذهب المالكي للترغيبات التي قدمها إليهم المعز بن باديس، بل لقد تعرَّبَتْ مجموعات منهم، وأتقن علماؤهم ومشايخهم وطلبة العلم منهم العربية حديثاً وكتابة، ودافعوا عن الإسلام دفاعاً عظيماً.

(اقتصر مصطلح أهل السُّنّة «على أصحاب المذاهب الأربعة: أبو حنيفة النّعمان (80-150هـ/699-767م) ومالك بن أنس (93-179هـ/711-795م) والشافعي(-150 204هـ= 767-820م) وابن حنبل (164-241هـ/ 780-855م)، وعُرِف مصطلح الشّيعة للطوائف الشيعية ومنهم الإمامية (الاثنا عشرية) والزيدية والإسماعيلية، وشاع مصطلح الإباضية نسبة إلى ابن إباض، من أصحاب التَّابعي جابر بن زيد الأزدي، أبو الشَّعثاء، وظهر مصطلح «السلفيّة» لأصحاب ابن تيمية وابن القيم الجوزية ومحمد بن عبدالوهاب، ومَنْ سبقوهم، وكل هذه مجرد تسميّات للدلالة على الفِرَق الإسلامية، وأصبحت من أدبيات التاريخ الإسلامي، فلا مشاحة في استخدامها.)

بنو خزرون الزَّناتيّون (1001م)

أحسَّ بنو خزرون بالغبن والحيف بتقديم المهدية وطرابلس لبني زيري الصنهاجيين، وهو ما أدى إلى معارك طاحنة بين الفريقين، وعمل كل فريق على الاستيلاء على طرابلس، فكانت تخضع لأحدهما حسب الأحداث.

في سنة 391هـ= 1001م يأتي ذكر «فلْفُل (فلفول) بن سعيد بن خزرون» والذي دانت له المناطق الواقعة بين قابس وطرابلس التي افتكّها من الزّيريين الصّنهاجيين، وأقام إمارة صغيرة امتدت فترة من الزمن، وكان آخر ولاة بني خزرون «محمد بن خزرون بن خليفة بن ورُّو» الذي قرَّب مشيخة بني مطروح، فأسند إليهم رياسة الجند.

في سنة 540هـ/1145م ضربت مجاعة البلدة، واضطر بعض السّكان إلى الجلاء عنها، واعتمد الوالي القوة في جباية الأموال من الناس، فتدخلت أسرة بنى مطروح،

فأخرجت الوالي وشيعته من المدينة، وحكموا طرابلس، وأثناء حكمهم هاجم النورمانديون الصقليّون طرابلس واحتلوها، وكان ذلك الحدث سنة 541هـ/ 1146م، وسيأتي الحديث عن هذا الأمر.

(عادت طرابلس إلى الحكم الزِيرى في عهد تميم بن المعزّ (1107م)، وخرجت طرابلس من حكمهم أيام الحسن (1121م) قبْل مجيء الصقليّين.)

وبعد وفاة فُلْفُل (400هـ/ 1010م)، بايعت زناتة أخاه «ورّو بن سعيد»، ولما مات ورُّو انقسمت زناتة بين مُؤَّيد لأخيه خزرون، ومؤيّد لابنه خليفة الذي تمكّن من بسط يديه على طرابلس إذ كانت أكثر زناتة إليه.

(في المنهل العذب: «وروا»، وهي غير مضبوطة بالشكل.)

زحف باديس بن المنصور الزيري إلى طرابلس فهرب ورُّو ودخلها باديس ونزل قصر فلفول، وأرسل ورُّو إلى باديس يطلب الأمان، فأمّنه ومن معه وطلب منهم أن يرحلوا عن طرابلس، وولَّى باديس محمدًا بن الحسن ثُم إن ورّو خالف على باديس وزحف إلى طرابلس، وخسر معركته أمام محمد بن الحسن، ويتدخل خزرون بن سعيد الملقب بـ»المنتصر» لصالح باديس فيحارب أخاه «ورّو» الذي يهلك سنة 405هـ/ 1114م. وتمضي الأحداث إلى سنة 460هـ/ 1068م حيث يموت المنتصر غيلة في بَسْكرة، ويتولى ابنه «خليفة» إلى سنة 488هـ/ 1095م، وقد «اشتد عسفه وقوية وطأته» بعبارة الأنصاري، فكرهه الطرابلسيّون، وبقدوم شاهملك «شاه ملك»- وهو من أولاد بعض الأمراء الأتراك ببلاد المشرق- في مئة فارس اقتنص الفرصة، وتولى أمر البلاد حين لجأ أهل البلاد إليه.

وحين سمع تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي الخبر، أرسل العساكر التي اقتادت شاهملك في السلاسل إلى المهدية، وولي على طرابلس محمد بن خزرون بن خليفة ورُّو الذي استخلص لخدمته جماعة من مشيخة «بني مطروح» الذين انتهت إليهم الرئاسة في فترة استلاء الإفرنج على طرابلس في عهد «رجار» صاحب صقلية، كما تقدم قوله.

من أبرز الشخصيات في ذلك الوقت «ابن المُنمّر»، الذي ساند «خزرون بن خليفة بن ورُّو»، حيث أمر بفتح باب المدينة له فدخلها (429هـ= 1038م)، وأقام بها أشهرًا،

وبعودة طرابلس لحكم خصمه الملقّب بـ: «المنتصر»- يضطهد ابن المنمّر، الفقيه المالكي «المشتهر فضله وعلمه ورئاسته» بعبارة التّجاني، والّذي كان له دور في القضاء على آثار المذهب الشِّيعي، وممّا سجّله التِجاني عنه أنه استبيحت أملاكه، وعُذِّب كثير من أقاربه، ونُفِيَ إلى بلدة (غنيمة) الواقعة على البحر التابعة لبلدة قماطة، شرقي طرابلس وكان ذلك سنة 430هـ/ 1038م، فأقام بها عامين ثم مات ودُفن على الطريق سنة 432هـ/1040م.

وابن المنمّر هو علي بن محمد، أبو الحسن، من مواليد طرابلس 348هـ/ 959م، رَأَسَ مجلس الشورى، من أهل السُّنَّة، ويُذْكَرُ لابن المنمر كتابه في الفرائض وهو «الكافي»، وكان طلبة العلم يقصدونه لقراءاته عليه، والكتاب مفقود، تَرْجم له الكثيرون حيث كان من المشهورين في علوم الفرائض والهيئة والميقات، وكان بيته بالمدينة القديمة بطرابلس، بالقرب من الجامع الأعظم (جامع الناقة)، وبجوار دار أبي إسحاق الأجدابي اللُّواتي الطرابلسي اللّغوي الشهير.

والأجدابي هو إبراهيم بن إسماعيل (القرن السابع الهجري)، المولود والمتوفَّى بطرابلس، له تآليف منها: كتاب مختصر في علم الأنساب، واختصر كتاب نسب قريش، قال عنه التّيجاني: وحسبك بهذا التأليف علمًا وفائدة، وقال ابن مغيث: هو كتاب عجب، لا كتاب نسب، كما حقق النائب الأنصاري.

وكان الأجدابي من أحسن الناس خطًّا، وكان خطّه لا يزال موجودا في جدر داره، أيام التِجانِي، وهو صاحب كتاب «كفاية المتحفّظ ونهاية المتلفّظ» والذي ظهر للوجود بتحقيقات كثيرة، ودار الأجدابي بالقرب من مسجد وكُتَّاب المقرئ الطرابلسي الشهير مختار حورية من أعلام القراء في عهده، وكُتّابه بقوس المفتي، وأَخَذَ عنه القراءة بأحكام التجويد نفرٌ من مشايخ طرابلس، منهم الشيخ القارئ الأمين قنيوه، له ختمة بإذاعة القرآن الكريم بطرابلس المحروسة برواية قالون عن نافع، وقد عاصرته في جامع مولاي محمد برفقة الشيخ القارئ بشير مالك الغدامسي، وكان يقرأ برواية ورش عن نافع المدني.

بنو هلال وبنو سُلَيْم في طرابلس (1051م)

من القبائل العربية في شبه جزيرة العرب، الهلاليون نسبةً إلى «هلال بن عامر»

والسُّليْمِيّون نسبةً إلى «سُلَيْم بن منصور» وهما من بني مُضَر العدنانية.

في أيام الخليفة الأموي العاشر»هشام بن عبد الملك» استقدم والي مصر بيوتاً من عرب الشَّمال، من بني هلال وبني سُلَيْم، واستوطنهم منطقة «بِلْبِيس» شَمال شرقي القاهرة، ومع مرور السنين اتّسع ذلك الاستيطان في مناطق أخرى، وبالأخص في صعيد مصر، والصَّعيد لغة الموضع الواسع والمرتفع من الأرض، وسميت به المنطقة جنوب القاهرة ومنها: المِنْيا، وأسيوط، والأُقْصر، وأُسوان.

(ولي في المحروسة ذكريات حلوة، إذْ تحصلتُ على درجة الماجستير من جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، في علوم اللغة (1977م)، بإشراف اللغوي الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين، وكانت لي صحبة مع الأستاذ الدكتور كمال بشر، (1972-1977م)، وبمشاركاتي الثقافية بالقاهرة والمنيا والأقصر، وزياراتي لمدن وقرى مصر تعرفت على الشعب المصري.)

بإعلان تخلِّي «المعزّ بن باديس» المُسْتخلف الرّابع في الدولة الزيريّة الصنهاجية عن الفاطميين- كما تقدّم قوله- حيث أحرق بنودهم، ومحى أثرهم على العملة، وأوصى باللباس الأسود شعار العباسيين، وقام بتوزيعه على القضاة والفقهاء والمؤذنين- يغتاظ الخليفة الثّامن الفاطمي في عاصمته القاهرة، والذي تربع على العرش ستّين سنةً وأربعة أشهر قمرية (427- 487هـ/ 1036-1094م) ويقرّر هدم مُلك بني زيري في إفريقية، فشرع وزيره اليازوري سنة (442هـ/ 1050م) في إغراء القبائل العربية الهلالية والسُّلَيميّة الرابضة في وادي النيل، فمدّها بالمال والسلاح والمؤنة، وأطلقها نحو غرب مصر: برقة وطرابلس وتونس.

وثيقـة: «لقد أعطيناكم إفريقية، ومُلك ابن باديس، العبد الآبق، فلا تفتقرون بعدها» (المستنصر بالله، الخليفة الفاطمي)

وتشهد الأرض جموعًا بشرية «لا يدرك أوّلها ولا ينتهي آخرها» بعبارة ابن خلدون، ويصل عددها إلى نحو نصف مليون نسمة، تتحرّك رجالًا ونساءً وأطفالًا، بعرباتهم وخيولهم وإبلهم في اجتياح شُبِّه بالجراد.

وبعد اشتباكات لمدة ثلاث سنوات تقريبًا كان أغلب بني سُلَيْم في برقة ونواحي طرابلس، أمَّا الثقل الأكبر من الهلالية فقد آثرت وسط تونس ونواح أخري بمدن المغربين

الأوسط والأقصى.

وإذا كانت أنظار بعض الرَّحالة والمؤرخين قد تركزت على الجوانب السّلبية لسلوك هذه القبائل، مثل الإدريسي الذي يُسجِّل أنَّ العرب أضرت بالمناطق التي دخلتها، أجلتْ أهلها، وأخلت بواديها، وغيرت أحوالها، وأبادت أشجارها، وغوّرت مياهها، وعبدالوهاب المراكشي الذي يشير إلى تخريبهم للحصون على الساحل الإفريقي، ولكن مع كل هذا لا يغفل الدّارسِون والباحثون أنَّ من مآثر هذه القبائل العربيّة أنهم ربطوا المدن المغاربية ببقية المدن المشرقية، وأدَّى وجودهم في كلّ المناطق السَّهلية والجبلية والصحراوية إلى تعريب المنطقة لغة وسكانًا، وبامتزاجهم بالأهالي ومصاهرتهم تعرّب قسم كبير من الأمازيغ.

وثيقة: «تسببت هذه القبائل في القرن الحادي عشر الميلادي بتغيير ثقافي في شَمال إفريقيا أكثر عمقًا بكثير من التغيير الّذي حصل مع أوائل وصول الدين الإسلامي في القرن السّابع» (المؤرِّخون)

حاصرت العرب المعز بن باديس ورجاله من صنهاجة وزناتة في القيروان (**446**هـ/**1054**م) فيرتحل إلى المهدية حيث ابنه تميم، ويقيم علاقة مصاهرة مع أحد زعماء بني رياح الهلالية بالزواج من ابنته ويعيش في حماه إلى أن وافته المنية (**455**هـ/ **1063**م).

يتولى «تميم بن المعز» الحكم (**1061**/ **1107**م)، ويتخذ من المهدية دار ملكه، ويَمَّم نحو طرابلس للاستيلاء عليها، ولتعود إلى الحكم الزيري الصنهاجي، وتنتهي حياته، وعمره ستٌّ وسبعون سنة.

وثيقة: «كان شهماً شجاعاً ذكياً، محبًّا للعفو، وله شعر حسن، حسن السيرة، محبًّا ومقبلاً على الشعراء وأهل الأدب.» (المنهل العذب)

وثيقة: «إنَّ تميم بن المعز بن باديس من خيار الملوك حِلْمًا وكرمًا وإحسانًا كثير العفو على الجرائم السياسية العظيمة، أعاد للدولة الزيرية الصنهاجية هيبتها، واستمال زعماء القبائل العربية فصاهرهم، وقدّم لهم العطايا، وجعل من العرب جنودًا يحمون الدولة، وفعل ذلك كلّه بكياسة وفطانة.»(المؤرّخون).

*(دولة بني زيري من **922**م إلى **1148**م أُمراؤها سبعة: بُلُكِّين (**922-983**م) – المنصور (**983-996**م) – باديس (**996-1015**م) – المعزّ (**1015-1061**م)*

تميم (1061–1107م) يحيى (1107–1115م) – علي (1115–1121م) الحسن (1121م)، وُلي غلامًا ابن اثنتي عشرة سنة، وفي مدته كانت فتن كثيرة، وتغلب النصارى على الكثير من ممالكه، واستبد لعهده بنو خزرون وبطانته من بني مطروح، وطمع رجّار الصقلي في ملكها، وفي التاريخ أن المنصور بن بُلُكِّين ختن ولده باديس، فأرسل إليه والي طرابلس 100 حمل من النفائس هدية، ولَك أيها القارئ أنْ تتخيل من أين جاءت هذه الأموال !!!)

النّورمان الصِّقليّون في طرابلس (1146م):

اجتاحت صقلية، الجزيرة الإيطالية شعوب الوندال والقوط الشرقيين 535م، ووقعت تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية. وفي القرن التاسع للميلاد حلّ مسلمو شمالي إفريقيا بها فازدهرت زهاء مئتي عام، وبتنامي قوة النورمانديين العسكرية يلجأ البابا إلى احتضانهم، فيعلن أنَّ صقليّة إقطاعية لهم إن استخلصوها من العرب، فغزاها النورمانديون خلال القرن الحادي عشر الميلادي، وضموها إلى الجنوب الإيطالي.

من نابولي قاعدة رجار الأول النورماني تنطلق الحملات القتالية على العرب في صقلية، والّتي كانت آنذاك تحت حكم العبيديين (الفاطميين)، وفي غضون سنين قليلة تمكّن من أنّ يُجْلِيَ العرب منها إلى الأبد، وغدا هو صاحبها وآمرها، وعُرِفَ من ذلك الزمن بـ: رجار الصِّقلي.

وصِقِلِّيَّة **Sicilia** ذات أنهار ومنتزهات غَنَّاء وثمار جيدة وعاصمتها باليرمو، ولا تزال آثار المسلمين بها في كل ناحية، وفيها يقول الشاعر العربي «ابن حمديس الصقلي»:

ذكرتُ صقلية والهوى يُهَيّج للنفس تذكارَها
فإنْ كنتُ أُخْرِجْتُ من جَنّة فإنّي أُحَدِّث أخبارها

فطن الصِّقليّون إلى أهمية طرابلس المدينة فكان قرارهم احتلالها، ومع فجر اليوم التّاسع من ذي الحِجّة من سنة (539هـ/ 1143م) كانت سفنهم في ميناء طرابلس.

نزل الصقليّون البرَّ الطرابلسي، وعلقوا الكلاليب في سور المدينة، وكادوا يستولون عليه، وتنادى الطرابلسيّون بالجهاد، وجاء المدد من الأرياف والبوادي في اليوم الثاني للغزو، وشهدت طرابلس مقاومة عنيفة، حيث حمل الأهالي (من الداخل والمدينة) على

جند رجار، فقتلوا وغنموا، ما دعا قائد الأسطول الصِّقلي إلى الفرار على عقيبيه، والعودة إلى صِقلّية، كما تُوثِّق المصادر في حملة الإفرنجة الأُولى.

اغتمّ رجار الأوّل لهذه الأنباء، وصَمَّمَ على احتلال طرابلس في قابل الأيام، وأخذ أُهْبَة الاستعداد، ويتقدّم أسطوله نحو «المهدية» بتونس، فينهب كنوزها، ويدخل صفاقس وجربة، وتصل الأنباء إليه عن مجاعة رهيبة تضرب إقليم طرابلس، وحرب أهلية بين عائلتين تتصارعان على السلطة وانقسامات بين الأهالي، ما أدّى إلى قتل ونهب وتدمير، وجعل أغلب السّكان الذين لا علاقة لهم بما يجري يلتجئون إلى الضواحي.

(في أغلب الأحداث يتفرّج معظم النّاس على ما يحدث، فيلجؤون إلى الحياد ثُمَّ يُطيعون الغالب- أيًّا كان-، فيقعون بين فكّيه فيذيقهم ألوان العذاب، فللموقف السلبي تبعاته، وهو ما يحذر منه الثّوار في كل مكان وزمان!)

ينتهز رجار هذه الأحداث فيرسل أسطولًا عظيمًا لميناء طرابلس بقيادة أمير البحر «ميخائيل الأنطاكي» وكان ذلك بعد نحو ثلاث سنين أو أكثر قليلاً من تاريخ قدومهم الأول.

حاصر الأسطول ميناء طرابلس، ونشب القتال لثلاثة أيام، وفجأة خلت الأسوار من المقاتلة الطرابلسيين- بسبب صراع محلي بين مؤيدين ورافضين لزعامة أسرة بني مطروح- وتسلق الصِّقليّون الأسوار ودخلوا البلد بسلاسة، وأفحشوا في القتل والنهب والسَّبي، وَفَرَّ الطرابلسيّون إلى البراري، وأقاموا بها ستة أشهر، كما وُثِّق في التاريخ- في الحملة الثانية للإفرنجة-، وكان ذلك في شهر المحّرم من سنة (**541**هـ/ **1146**م) وهكذا لم يَعُدْ لآل زيري الصنهاجيين بإفريقية وبني خزرون الزناتيين بطرابلس وجود.

(الصّراع بين الأخوة على السّلطة يمكّن الأجنبي من احتلال الأرض، وهو مشاهد قديمًا وحديثًا في تاريخ ليبيا، والعبرة لمن اعتبر.)

أقام الإفرنج ستّة أشهر في طرابلس، وخلالها حصنوا أسوار المدينة، وحفروا خنادقها، وولُّوا أحد الأعيان المحليين وهو رافع بن مطروح (أبو يحيى) حاكمًا كما رغب معظم السّكان، وهذه هي ولايته الأولى، وأخذوا «رهنه على الطاعة» بكلمات ابن خلدون، وعُيِّنَ «أبو الحَجَّاج» وهو يوسف بن زيري قاضيًا، وكانت أحكام الناس كلها موكلة إليهما، وانضم أهل صقلية إليها، فعمرت سريعاً وحَسُنَ حالها بعبارة المؤرخ «ابن الأثير»،

وذان رافع بن مطروح طيلة اثنتي عشرة سنة (1146م– 1158م) بالخضوع والإذعان للصِّقليين الّذين ملكوا ما بين المهدية وطرابلس باستثناء قابس، وانتظر الطرابلسيون الفرج، فكان على يد الموحِّدين.

الموحِّدون في طرابلس (1160م)

الموحِّدون أصحاب «ابن تُومَرْت» وهو من المصاميد (المصامدة) الأمازيغ، الذين سكنوا السُّوس الأقصى من بلاد المغرب، أطاعته قبيلة هنتاتة وهي أكثر قبائل الأمازيغ وأوفرهم، كان فقيهاً ورعاً ناسكاً، حصوراً لا يأتي النساء وصار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأخذ يحدث نفسه بأن الدولة تكون له وبُويع على أنّه المهدي المنتظر، ودام حكمه تسعة أعوام.

(ولد ابن تومرت سنة 491هـ/ 1098م، وكانت وفاته سنة 524هـ/1130م، وفي هذا التاريخ برزت دولة الموحدين بقيادة عبدالمؤمن بن علي.)

وعلى يدي تلميذه «عبدالمؤمن بن علي» تأسست الدولة الموحِّدية باستيلائه على مراكش، وإزالته دولة المرابطين وكان بها أحد أحفاد ابن تاشفين، ملك فاس وتلمسان سنة 539هـ/ 1144م، ثم ملك مدائن المغرب، واتسع ملكه إلى الأندلس ودخل المهدية أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

(عبدالمؤمن بن علي: حكم من 1130م إلى 1163م.)

وكانت ولاية عبدالمؤمن بن علي ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً، قال عنه المؤرخون إنه كان سديد الرأي، كثير البذل للأموال، سفَّاكاً للدماء على كبير الذنب وصغيره، والغالب على مجلسه أهل العلم والدين، وهو على مذهب الإمام مالك في الفروع، ومذهب أبي الحسن الأشعري في الاعتقاد وأصول الدين، وكانت وفاته ببلدة «سلا» المغربية.

(للمؤلف في بلدة «سَلَا» ذكريات جميلة، جمال سهوب المغرب وهضابها وجبالها، وسلا تبعد كيلومترات قليلة عن الرباط، وهي ناحيتان، قديمة معروفة في التاريخ، وجديدة، وكانت زيارتي الأولى للمغرب 1968م، برًّا ثم توثقت زياراتي لها في مهام علمية وسياحية.)

رغب الطرابلسيّون أنْ ينضموا إلى الموحِّدون فيصبحوا تحت حمايتهم، وبازدياد الحماس تعاقدوا على الثورة، والتخلّص من الإفرِنْجَة، وأسَرُّوا النَّجوى بينهم، وفي ليلة جديرة

بالتذكُّر قاموا قومة رجل واحد، فنصبوا الخُشْب والأناشيط في الطرقات، فلم تستطع خيول الإفرنجة على السير، وتنادى الطّرابلسيون، وانقضوا على عساكر الصِّقليين قتلًا، «ذُبِّحوا، وأُحرقت منازلهم بالنّار»، وكان ذلك في عهد غاليالم وهو رجار الثاني الذي كان شديد الوطأة على المسلمين، وقد ابتدأت الثورة ضده في صفاقس وانتشرت في البلاد الساحلية، ووصلت إلى نواحي طرابلس (**555**هـ/ **1160**م).

*(مات رجار الأوّل **549**هـ/ **1154**م، وملك ابنه رجار الثاني «غاليالم»، وأساء التدبير واختلّ أمره)*

وكان الموحِّدي عبد المؤمن قد دخل المهديّة تلك السنة، فاتّجهت إليه جماعة من أهل طرابلس يتقدمهم رافع بن مطروح لمبايعته، فأقرّ الموحِّدي رافعًا على ولاية طرابلس، وهذه هي ولايته الثانية، وعرفت فترته- كما جاء في الوثائق التاريخية - بالحكمة والصلاح، وحقّق للبلاد الأمن والحكمة، وازدهرت البلاد في عهده واستقرت، وهي تُحْكَمُ حكمًا ذاتيًّا في ظلّ السيادة الموحِّدية.

وبمضي السنين تُدْرِكه الشيخوخة، ويشعر بأنَّ الهرم يقيده، وهو غير قادر على الإيفاء بمتطلبات الرئاسة، فيطلب إعفاءه، ويرتحل إلى الإسكندرية (**568**هـ/ **1173**م)، وبها كانت وفاته.

وحَنَّ ابن مطروح إلى طرابلس بلدته - أدام الله على مدينتي نعيم الأمن والأمان والرَّخاء والازدهار- فأنشد:

لوقفةٍ بين باب البحر ضاحِيةً وبابِ هُوَارةٍ أو مَوْقِفِ الغَنَمِ

أشْهَى إلى النَّفْسِ من كَسْرِ الخَلِيج ومِنْ دير الزُّجاجِ وشاطِئِ بِرْكَةِ الخَدَمِ

وشرح المؤرخ الطاهر الزاوي البيتين فقال:

«باب البحر كان يَطُلّ في الناحية الشَّمالية من المدينة، وقد أُزيل في عهد الاحتلال الايطالي، وباب هُوَارة هو الفتحة التي يدخل منها النّاس إلى سوق المشير، وهو في السّور القديم نسبة إلى هُوَارة الأمازيغية، وموقف الغنم كان حينذاك بقرب برج الساعة بالمدينة

القديمة وهي بطحاء متسعة يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم، أمَّا كسر الخلِيج، ودير الزُّجاج، وبركة الخدم، فهي أمكنة بالإسكندرية».

قره قوش وابن غانية في طرابلس: (1173م)

رغب الأيوبيّون في مصر أنّ تكون طرابلس ضمن أملاكهم، وهو ما جعلهم يتوسعون غربا، فتجهّز أخو صلاح الدين الأيوبي المعروف بـ «تقي الدين» وقاد حملة توقفت، إذْ أُخْبِرَ بأنَّ مهالك كثيرة بين برقة وطرابلس، وأَنَّ الأهالي لا يرضخون لغريب إلاّ تَقِيّة، فزهد فيها، وامتنع عن التَغريب، ولكن جماعة من جنده المغامرين نفروا لتحقيق ذلك المطلب.

(صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي من أتباع السلطان محمود الدين زنكي، من السلجوقيين، مؤسس الدولة الأيوبية، ملك مصر واستولى على قصر الفواطم بخزائنه، في أول جمعة من شهر المحرم 567هـ/ 1171م، ودخل الشام وحرّر بيت المقدس.)

استعد قره قوش الأرمني المغامر بعد أخذ الإذن من سيده «تقى الدين أيوب» وزحف برجاله عبر واحة «سيوه» على المناطق الداخلية اللِّيبية، وأخذ ينهب مدن الصحراء وواحاتها واحدة بعد أُخرى.

(قراقوش اسم طائر أصغر من العُقاب، من كواسر الطير، قوي المخالب)

اقتحم أوجلة عند بحر الرمّال العظيم، ومنها إلى زَلَّة على امتداد أوجلة إلى الغرب منها، ويَمَّمَ بعدها نحو الجنوب إلى زَوِيلَة (568هـ/ 1173م)– الواقعة في سرير القطوسة شرقي مرزق، وهي بلدة الأشراف بها قبور صحابة– وأزال منها إمارة الخطّاب الهواري.

(يجعل ابن واصل الحموي في كتابه مفرج الكروب خروج قره قوش سنة 568هـ وفيها وصل إلى زويلة)

هاجم قره قوش جبل نفوسة، وحاصر طرابلس، فتصدى له عرب بني ذُباب من بني هلال، ولكنه استطاع بدهائه وبتقديم الأماني لهم، وبمساعدة الثائرين على الموحّدين أنْ يستولي على طرابلس، ثُمَّ دخل قابس، وخطب لصلاح الدين الأيوبي في المساجد، وأصبح يملك ما بين طرابلس وفزان، ومن جبل نفوسة حتى حدود برقة الشّرقية، وبعد فترة قصيرة انتفضت طرابلس، ولكنه استطاع استردادها ثانية.

وأراد قره قوش التخلص من أشياخ العرب الذين يقفون ضده فقبض على سبعين منهم وقتلهم دفعة واحدة في قصر العروسيين، ومنهم: محمود بن طوق جدّ المحاميد، وحميد بن جارية جدّ الجواري.

(سكن المحاميد بجبل نفوسة، وسكن الجواري بالنواحي الأربع.)

وأقام قره قوش حصنًا في المنطقة المعروفة باسمه وهي قرقارش، ولا تزال أطلال الحصن موجودة حتى سنة 1931م، وهو حصن مبني بالحجر المنحوت وتحته دهاليز، كما وُصِفَ.

من الأحداث في إقليم طرابلس في هذه الفترة ظهور رجل يطالب بثأر بني تاشفين من الموحدِّين، وهو المعروف باسم «علي بن إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين» وهو ابن غانية الميورقي.

وبنو غانية من المرابطين الملثَّمين، الذين كانوا ملوكًا بالمغرب الأقصى، والمرابطون من الأمازيغ كانوا يسكنون الصحراء الكبرى، ومن عاداتهم أنْ تُسْفر النساء عن وجوههنَّ، ويتلثم الرَّجال، وأول من سّماهم المرابطين عبدالله بن ياسين.

ومن زعمائهم ابن تاشفين الذي اشتهر بانتصاره في وقعة الزّلاقة (1086م)، وبها استرد المسلمون «بِلِنّسِيّة» وفكّوا الحصار عن «سَرَقُسْطة»، وعادت إليهم السيادة على الجزيرة الخضراء (الأندلس).

(وصف يوسف بن علي بن تاشفين بأنّه كان حازمًا، سائسًا للأمور، ضابطا لمصالح مملكته، مؤثرًا لأهل العلم، كثير المشورة لهم، وهو الذي افتتح مدينة مراكش وجعلها دار ملكه فكانت مقرًّا له لثمانٍ وثلاثين سنة، ووفاته تؤرَّخ بسنة 500هـ/ 1107م، وانقراض دولة المرابطين على يد المَوحدين سنة 542هـ/ 1147م فكانت مدة حكمهم نحو ثمانين سنة قمرية، أيْ: سبع وسبعون سنة شمسّية تقريبًا.)

في شعبان 580هـ/ 1184م خرج علي بن إسحاق (ابن غانية الأوّل)، واستولى على بجاية بأسطوله 581هـ/ 1185م وبملاحقة عساكر الموحِّدين له هرب في جموعه من المدن الجزائرية إلى إفريقية (تونس) ومنها إلى طرابلس حيث التقى بقره قوش، واتفقا معًا على محاربة الموحِّدين، ولكن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحَّدي يتصدّى

لهما في ظاهر بلدة «الحامّة» التونسية، ويُوقع بهما خسارة كبيرة فيفرّان إلى الصحراء، ويعود يعقوب إلى مراكش، وكان ذلك سنة 584هـ/ 1188م

في العام 587هـ/ 1191م يموت علي بن إسحاق (ابن غانية الأوّل) في بعض حروبه ويقوم بالأمر أخوه «يحيى بن إسحاق» (ابن غانية الثّاني) وحالف صاحب أبيه قره قوش، وواصلا تخريب القُرى والمدن «فمحيتْ آثار العُمران، وصارت خالية من الأنيس» بعبارة النائب الأنصاري.

اختلف قره قوش مع ابن غانية الثاني، وأعلن كلّ واحد منهما الحرب على الآخر، وفي سنة 591هـ / 1195م، رأى ابن غانية الثاني أن الظروف مواتية لانتزاع طرابلس من قره قوش، فجهز عساكره، وحاصر المدينة بسفنه، وشنَّ حربًا بريّة ضد خصمه، وكانت الوقعة الشديدة على قره قوش في وادي الهيرة جنوب طرابلس.

(الهَيْرَة: الأرض السهلة، ومن هذا المعنى أُخِذَ اسم الوادي، لأنّه يفيض في أرض منبسطة.)

لجأ قره قوش إلى بلدة ودان بمنطقة الجُفرة واتّخذها مقرًا له، ودخل ابن غانية طرابلس مزهوًّا بانتصاره، وإثر ذلك استصحب ابن غانية جماعات من العرب الذُّبابيين من أولاد محمود، وجاريه بني وشاح، الموتورين من قبل قره قوش، وأوغل نحو وَدَّان، وحاصر خصمه، فلّما فني طعامه خرج هو وولده إليهم، وسأل الولد أباه: يا أبت إلى أين يروحون بنا؟ فأجاب الأب: إلى حيث رحنا بشبابهم، فقتلوه وقتلوا ولده بعده، وصلب بظاهر ودّان.

(يذكر مؤرخون وباحثون أن مقتل قره قوش كانت سنة 609هـ/ 1212م تقريبًا)

لما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولَّى عليها ابن عمّه «تاشفين الغاني» ثم ذهب إلى جبل نفوسة فأغرمهم ألف ألف دينار، وعاد إلى حاله من الإجلاب، فاستولى على المهدية وقابس وصفاقس والجريد وباجة وبسكرة والقيروان وتونس(599هـ/ 1203م).

(في مراجع: استولى على إفريقيّة جميعًا، سوى تونس والمهدية، وكان بهما الموحّدون)

وثيقة: «وكثر عتوّه وإضراره بالرعية وعَظُم طغيانه، وانضاف إلى ابن غانية كل مفسد في تلك الضواحي، من يريد الفتنة والنهب والفساد والشر، فخربوا البلاد

والحصـون والقـرى، وهتكـوا الحـرم وقطعـوا الأشـجار» (المنهـل العـذب).

امتعض الناصر بن يعقوب الذي خلف أباه – بامتلاك ابن غانية مدنًا كانت خاضعة للموحِّدين، فأرسلٍ جنوده يتعقّبونه بقيادة ابن أبي حفص (أبو زكريا)، فيفرّ ابن غانية إلى الفيافي، وفي بريّة تلمسان كان حتفه ينتظره.

*(يشير الباحث إحسان عباس في كتابه تاريخ ليبيا أنه لما استقل أبو زكريا الحفصي في إفريقية وأعمالها (625 –647هـ) ظل يدفع ابن غانية ويشرده في الأقطار فعاش بقية عمره مع الأعراب إلى أن مات في برية تلمسان سنة **631**هـ/ **1234**م أو سنة **633**هـ/**1236**م)*

أراد الناصر الانتقال عن المهدية إلى أرض المغرب، فاختار الشيخ أبي محمد بن أبي حفص وهو من أنصاره، وبقبول الحفصي حكم المهدية استقر ملكها وملك طرابلس في يده، ثم يد بنيه من بعده.

الحفصيُّون في طرابلس: (1228م)

ومؤسس الدّولة الحفصيّة هو «يحيى بن عبد الواحد أبي حفص (أبو زكريا)، عُيِّن أميرًا على إفريقية من قبل النّاصر الموحدي (رجب 625هـ/ 1228م)، واستقلَّ بإفريقية بعد فترة وجيزة، ودام حكمه 22 عاما، وتوفي وعمره 49 سنة (1249م).

دانت للحفصيين معظم مدن الجزائر وتونس، وخضعت طرابلس لرايتهم، ودام حكمهم أكثر من ثلاثمئة عام، وخلال هذه المدة كان لهم سجل حافل بالإنجازات العمرانية والثقافية والعسكرية.

ويذكر التِّجاني أنّه رأى الناس قد شرعوا في حفر خندق متسع في طرابلس يرمون أن يصلوه بالبحر في كلا جانبي البلدة، وابتداء حفره من الركن الغربي بين القِبلة والمشرق، فقال: «وعارضهم في حفره هنالك موضع يعرفونه بالرّملة، وهو حقف رمل متّسع لاصق إلى جانب السور، ولا يزالون أبداً يتكلفون نقله من ذلك الموضع، فإذا جهدوا جهدهم في حمله ورميه في البحر أعادته الريح كما كان».

ومِمَّنْ كُتبتْ له الشهرة في طرابلس إبّان ذلك العهد، الفقيه والقاضي ابن أبي الدنيا الطرابلسي الذي عاش في الفترة الزمنية، ما بين (606–684هـ/ 1209–1285م)،

كلّفه الخليفة المستنصر الحفصي ببناء مدرسة في طرابلس، فكان تشييده للمدرسة المستنصرية ما بين (655-658هـ/ 1257-1260م)، وقد حلَّ بها أحد الرّحالة الأدباء فقال: «فدخلتُ إليها وقعدت مُسَرِّحًا طرفيَّ في روضة حَبْق، حَبَسْتُ حاستي البصر والشّمّ عليها، ثم قلت:

ياحبّذا نسمة هَبَّتْ لناشقها غَبَّ الكرى سحرًا من روضة الحَبَقِ

حسبتُها عندما هَبَّتْ وقد نعشتْ ببلةٍ من نداهــا روح مُنْتَشِقِ

وشاهدها الرّحالة ابن رُشَيْد السِّبتي ووصفها بأجمل العبارات، (وسيأتي وصفه لها في فصل الرّحالة والمؤرخين)، ومِمّا ذُكِرَ أن الأمير الحفصي استدعى ابن أبي الدنيا إلى تونس مقر ملكه، فأولاه قضاء الجماعة والأنكحة والخطابة بالجامع الأعظم بتونس، ومن مؤلفات ابن أبي الدنيا، العقيدة في أصول الدين، والتذكرة في الوعظ، ومُذْكِي الفؤاد في الحضّ على الجهاد.

ويسجل التّاريخ الوالي زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني (أبو يحيى الحفصي)، كان جّده ذا لحية كبيرة فلقّب باللحياني، وتوارث اللَّقب أبناؤه وأحفاده.

وصل طرابلس سنة 709هـ/ 1309م، فبايعه أولاد أبي الليل- بطن من الكعوب- بالإمارة، ومن أعماله أنه بنى قصرًا عظيما سماه الطّارمة، وهو تحت السّور القبلي مما يلي البحر.

(في المنهل: قَفَلَ من المشرق إلى طرابلس سنة 711هـ/ 1311م، ورأى اضطرب الأحوال بإفريقية، وعُقِدَ له بطرابلس، الطّارمة كلمة فارسية الأصل، وهو بيت من خشب كالقُبَّة.)

بقتل ولده في تونس في حروبه ضِدّ خصومه (718هـ/ 1318م) جمع اللَّحياني أمواله، وهرب إلى مصر، ونزل ضيفا على «ابن قلاوون» وبقي هناك إلى أنْ مات 727هـ/ 1327م.

(أخذ اللَّحياني أموال الشّعب المغلوب على أمره، وهي تزيد على عشرين قنطارًا، فيها جوالان من حصى الدُّرِ والياقوت!!)

وكَثُرَتْ مشاغبة المحاميد والجواري للدّولة الحفصية، ومازال هذا شأنهم حتّى تقَلّص

ظلّ الحفصيين عن قابس وطرابلس، وانقسمت رياسة أولاد وِشَاح إلى قسمين، فتولّى «الجواري» طرابلس وضواحيها، وباشر «المحاميد» سلطتهم في أجزاء من مناطق الجبل.

الوشاحيّون بنو ثابت في طرابلس (1324م)

في فترة من حكم الحفصيين شعر الطرابلسيون بالسأم والضجر من الولاة، فرفعوا راية العصيان وثاروا، وبتوالي الأحداث إذا بطرابلس في قبضة أسرة عربية طرابلسية هي أسرة بني ثابت، من أولاد مرغم، من قبيلة الجواري، من أولاد وِشَاح، التي تنتمي إلى بني سُلَيْم، وكان ذلك الحدث في سنة **724**هـ/ **1324**م، وتوارثوا حكمها **79** سنة.

«واعتباراً من هذه المرحلة تبرز ملامح الدولة المدنية، التي نجدها منتشرة في كثير من بلدان البحر الأبيض المتوسط»، بعبارة صاحب كتاب «حكاية مدينة»، ويذكر الباحث إحسان عباس في كتابه «تاريخ ليبيا» أنَّ إمارة بني ثابت العربية كانت بعد الغزوة الهلالية بثلاثة قرون تقريباً، وهي مدة كافية لتحولهم من حياة البداوة إلى حياة الحضر، وأصبحت أسرهم تعتمد على الثروة ونقاء النسب العربي في وضعها الاجتماعي.

وثيقة: منذ مطلع القرن الرّابع عشر الميلادي كانت أسرة بني ثابت قد استقرت في طرابلس وحازت الثراء، فضلاً عن النسب العربي النقيّ بحسب اعتقادهم. (بشير رمضان التليسي)

اختار الأهالي «ثابت بن محمد بن ثابت بن عَمَّار» ليكون أمير البلدة (**1324**-**1329**م)، وبعده تولى ابنه «محمد» (**1329**-**1349**م) وتذكر كتب السِّيَر والتراجم أنَّ محمد بن ثابت سار في الناس بسيرة مرضية، أظهر التواضع، وأشاع العدل، وَعَيّنَ ممثلًا لإدارة شؤون البلاد، وترك لنفسه مظهر السيادة، ودعا للسلطان الحفصي الّذي كان يحكم تونس، فلَّما استولى المرينيوّن على تونس أصبح ولاء بني ثابت إليهم.

بوفاة محمد بن ثابت آلت طرابلس إلى ابنه «ثابت الثاني» الذي أعلن استقلاله عن المرينيين، وأثناء حكمه كان التُّجار الأوربيُّون يترددون إلى طرابلس، فعرفوا أماكن ضعف حصونها، وعقدوا العزم على غزوها وامتلاكها.

(يختلف المنهل العذب عمّا اوردناه من أسماء آل ثابت)

الجنويّون في طرابلس (1354م)

جنوة مدينة ساحلية في أقصى الشّمال الغربي لإيطاليا، عرفت ازدهارًا عظيمًا، ويرجع نموها في العصور الوسطى إلى تجارتها مع بلدان البحر الأبيض المتوسط ومنها المدن الطرابلسية الّتي كانت عامرة بالصّوف والجلود وريش النّعام والشّمع والنّحاس والذهّب ممّا يجلب من إفريقيا.

وثيقة: «ثابت الثاني وُلِيَ الأمر بعد أبيه، وكان شابًّا غِرًّا ذا غفلة، أحاط نفسه بمظاهر الملك، وتصرَّف تصرف الملوك، وكانت له حاشية ذات ملذات، تَجْبُنُ بالنصيحة، ينخدع إذا خُدع، فاحتال عليه الإفرنج بأنْ قَدِمَ منهم طائفة في عدّة مراكب في صورة التّجار وهم مقاتلة، تَسَوَّروا السّور ليلًا وهجموا على البلاد دفعة واحدة وأهلها غافلون، فقتلوا منهم كيف شاؤوا، وحاصروا القلعة، فهرب ثابت متدليّاً بعمامته من القصر، وتوجه إلى محلّة الجواري، جهة النواحي الأربع، وهناك قتله الأهالي جَرَّاء توليه الأدبار، واستباح الجنويون البلد، وأخذوا المتاع والأسرى إلى سفنهم، وكان ذلك في العاشر من شهر ربيع الأوّل عام 755هـ= 1354م» (المؤرِّخون)

المرينيّون في طرابلس (1354م)

يذكر المؤرِّخون أنَّ صاحب قابس وهو ابن مكِّي الحاكم بأمر المرينيين فاوض الجنويّين في فداء طرابلس، فاشترطوا خمسين مثقال من الذهب العَيْن، فَجَمَعَ ما عنده، واستوهب ما بقى من أهل قابس والحامّة وبلاد شطّ الجريد بتونس، فوهبوها له رغبة في فعل الخير.

(المرينيّون من الأمازيغ في سجلماسة بالمغرب الأقصى (610-875هـ/ 1213-1470م)

وكان خروج الجنويين من طرابلس في ثاني عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة، بعد نحو خمسة أشهر من غزوها، وقد نَقَلوا جميع ما فيها من خيرات إلى بلادهم، وتركوها خالية خاوية، كأنْ لم تَغْنَ بالأمس.

أرسل السلطان أبو عنان المريني مَلِك المغرب مالًا لابن مَكّي، وطلب منه أنْ يَرُدَّ على الناس ما أعطوه، « لينفرد هو بمثوبتها وذكرها « كما عَبَّرَ المؤرخون، فأبى أكثر

الناس، ورأوا أنْ تكون أموالهم صدقة في ميزان حسناتهم.

آلتْ طرابلس لأحمد بن مَكّي المريني، «فأزال ما دنّسها من الوضر» وبوفاة ابن مكّي سنة (766هـ/ 1365م) خضعت لابنه «عبد الرحمن» الذي انتهج سيرة سيئة، فكرهه الطرابلسيون وانقضوا عليه بعد ست سنوات من حكمه.

عودة بني ثابت ورجوع الحفصيين:

وحانت الفرصة لرجل من أسرة بني ثابت وهو: أبو بكر بن محمد بن ثابت (772هـ/1370م) فجاء بأسطول خاص من الإسكندرية، وحاصر المدينة بسفنه، ونزل رجاله إلى البرِّ، واتصلوا بسكان النّواحي، واقتحموا المدينة، واستقرّ في الحكم بموافقة السلطان الحفصي الذي رضي بالهدايا من المتاع والرّقيق، ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة 792هـ/ 1390م.

ومع مرور الأيام يرجع الحفصيّون إلى طرابلس، ففي سنة 796هـ/ 1394م تولّى أبوفارس عزّوز، وبحلول سنة 803هـ/ 1401م سار إلى طرابلس وملكها من أيدي بني ثابت، وولّى عليها أحد ثقاته من رجاله وهو «عبد العزيز» الذي توفي سنة 823هـ/ 1420م، فأسندت الولاية إلى محمد المنصور ابن أبي فارس إلى أن مات سنة 833هـ/1430م، فعقد أبو فارس عزّوز لعبد الواحد الحفصي في تلك السنة، فقدمها وتسلَّم زمام الأمر فيها «وشَمَّرَ عن ساعد الجدِّ والاجتهاد وفيما يؤول لاستتباب الراحة وتعميم الأمن» بعبارة النائب الأنصاري.

وقد اتصف بالحزم والشجاعة والعدل وقوة الإرادة، وأُطْلِقَتْ الحرية لعبدالواحد في إصلاح البلاد، فبذل من حزمه وسداد رأيه ما يبذله المخلصون القادرون على الإصلاح فاستتبت الأمن، وشعر الناس بالطمأنينة، واندفعوا بكل قواهم الي العمل في التجارة والزراعة والصناعة، وبقوا في ولاية هذا الرجل الذي استمر واليًا إلى حين وفاته 858هـ/ 1434م، فكانت مدة حكمه 24 سنة شمسية تقريبًا.

ومنذ ذلك الحين بدأت طرابلس «اقتطاف ثمرات الراحة وأنوار الفيض والنعم الي نشرت أشعتها حتى دَوْر الإسبان، «ذاقوا فيها من ألوان السعادة ما لم يُرَ أجدادهم قريبًا منه في مئات السنين الماضية.» وبعبارة الباحث محمود ناجي الأرناؤوطي.

وثيقــة: «وأخـذت السـكّنة في تعاطـي أسباب الثـروة والغنـاء مـن التجـارة والزراعـة فنمـت زراعتهـم وربحـت تجارتهـم وأقبلـوا علـى أنـواع اللـذات واسـتطابوا خفـض العيـش، وتركـت الحاميـة السـلاح حتّى كان ذلـك سـببًا لطمـع العـدو فيهـم» (النائـب الأنصـاري)

ويُذْكَرُ أنَّ الأمير عبد الواحد بن أبي حفص قد أمر ببناء سور قصير سُمِّيَ بـ:» السِتّارة « وكان ذلك أيام وصوله إلى طرابلس، ولم يصلوا هذه الستارة بالبحر، وإنّما انتهوا بها إلى الباب الأخضر وبينه بين البحر فسحة.

وثيقــة: «الأمـير عبدالواحـد كان حازمًا في أمـوره، ذا رأي صائـب، قـوي الإرادة، حَصَّـن المدينـة، ورفـع سـورًا باسـم السّـتارة أمـام الأسـوار الشـرقية بالمدينـة، وأقـر الأمـن، وأشـاع الطمأنينـة». (المؤرخـون)

وجـاءت ولايـة محمـد بـن الحسـن الحفصـي «وكان عاجـز الـرأي، ضعيـف الشـكيمة، خفيف القياد، واهي العزيمة»، واستبدَّ به بنو غراب، فكان التّصرف التَّام لهم، ولم يكن لـه معهـم إلاَّ الاسـم، فطمـع الإفرنجـة في البلـد، وكان الإسـبانيول بالمرصـاد 1510م.

وأخـذت طرابلـس تحكـم نفسـها برجالهـا بعـد ذلـك، فاختـار النّـاس أحـد الأعيـان وهـو الشّيخ منصور الذي حكـم إحدى عشرة سنة، (1460م) الذي تحولتْ أخلاقه الكريمة إلى طغيان رذيل ممقوت، بعبارة شارل فيرو، ثم جاء الشّيخ يوسف (1471م) الذّي مات بالطاعون بعد تسع سنوات من المُلْك، ووصل إلى الكرسي الشّيخ عبدالله شرف الذي لُقِّبَ بالمرابط، حيث كان يعيش حياة زهد وتعبّد، وفي عهده احتلّ الإسبان طرابلس الآمنة في نحر البحر (1510م).

الإسبان في طرابلس: (1510 – 1530م)

تزوج فرديناند ملك «آراجون» بإيزابيلا ملكة «قشتالة» وقرّرا توحيد إسبانيا وطرد العرب منها، وفي اليوم الثاني من شهر يناير من عام 1492م سقطت الأندلس في أيدي الإسبان بانهيار آخر معقل للممالك العربية الإسلامية في غرناطة، واشتعلت نفوس الإفْرِنْجَة بالثأر، فأصدر الملك الإسباني «فرديناند» قراراً يقضي بإجلاء جميع المسلمين، وإرغام من يؤثر البقاء اعتناق المسيحيّة.

(دخل العرب شبه الجزيرة الأيبيريّة في شهر رجب 92هـ/ أبريل711م، وغابت

شمسهم عنها بتاريخ 897هـ/1462م، فكان استقرارهم فيها: 805 سنة قمرية أو 781 سنة شمسيّة، وشبه الجزيرة الإيبرية هي إسبانيا والبرتغال ومنطقة جبل طارق، والكلمة Iberia مأخوذة من اليونانية، وسماها الرّومان إسبانيا، واطلق العرب على الأجزاء التي دخلت تحت حكمهم اسم الأندلس.)

وفي رِدّة فعل عنيفة على استيلاء العرب على إسبانيا فترة امتدت إلى نحو ثمانية قرون، ورغبة في الانتقام من المسلمين عامة، والعرب على وجه الخصوص يقرّر الإسبان الانقضاض على مدن الشَّمال الإفريقيّ الّتي تقع قبالة ديارهم، ومن تلك المدن طرابلس.

بدأت الفرق البحرية الإسبانية باحتلال المرسى الكبير بالجزائر في سبتمبر **1505**، ثم استولت في مارس **1509** على مدينة وهران، وفي الخامس من شهر يناير **1510** اقتحمت بلدة بجاية بالجزائر.

ويتحدث التاريخ أنّ الطرابلسيين قد نعموا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بالأمن والأمان، وشهدت التجارة والزراعة والصناعة نموًّا، وأدّى ذلك إلى إثراء الطرابلسيّين، فكانت الرَّفاهية جزءاً أصيلاً من حياتهم- كما تقدّم القول، وقد لفت ذلك أنظار التُّجار الإسبان الذين كانوا يتردّدون على موانئ طرابلس كغيرهم من تُجَّار البحر الأبيض المتوسّط.

وثيقة: «طرابلس تحظى بموقع استراتيجي جعلها تتبوأ مركزاً تجاريًّا متقدِّما، هي حلقة وصل بين تُجّار مالطا والبندقية وصقلية من جهة ومدن جنوب الصحراء من جهة أُخرى، الأمر الّذي أكسب سكانها ثروات هائلة لاشتغالهم بالتجارة والصِّناعة»، تَعُجُّ بالذّهب والفضّة واللآلئ وغيرها من السلع القيّمة الأخرى... وكان يقوم في المدينة-عادة- حوالى **150** صناعة من صناعات نسج الحراير، زيادة على عدة صناعات أُخرى بنسج الكتفيات المغزولة من الصوف بشعر الماعز... هذا بخلاف ما لا يُحْصَى من دكاكين العطارين والبقالين» (مارمول **Marmol**، كتاب إفريقيا، عن الحوليات اللّيبية.)

تنبّه الإسبان إلى ثروة طرابلس، وتنعّمُ رجالاتها، وقلّة أسلحتها، حتَّى قالوا: «ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً، وأقلّ سلاحاً، وأعجز عن المدافعة»، وكانت طرابلس في تلك الفترة تُحْكَمُ حكماً ذاتيًّا قريبَ الشَّبه بالحكم الجمهوريّ، إذْ كان للمدينة مجلس شورى يرأسه

أمير، وكان آخر هؤلاء الشيخ «عبدالله بن شرف» الّذي عُرِف بعلاقاته الحَسَنَة مع موانئ المتوسّط، وفي فترته كان احتلال الإسبان لطرابلس.

وضع الإسبان طرابلس ضمن أهدافهم في خطّتهم؛ بغرض إقامة نظام الحاميات الذي من شأنه تعطيل أي نشاط بحري مضادّ، وبسقوط مدن بالشّمال الإفريقيّ كان الاستعداد لاقتحام طرابلس وإخضاعها.

تحرّك الأسطول الإسباني بقيادة الكونت «نافارُّو» نحو إيطاليا حيث تزوّد بالمؤن والمرتزقة، ثم رسا في جزيرة «قوزو» المالطية، فالتحقت به جموع من المالطيّين، وعلى رأسهم شخص عارف بطرابلس ويُدْعَى «جوليانو بيلا»، وبمئة وعشرين قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة، وعلى ظهرها خمسة عشر ألف جنديّ إسباني، وثلاثة آلاف جندي إيطاليّ وصِقلّي، وعدد من المرتزقة والمغامرين- كان الإبحار نحو المدينة الآمنة الواقعة في نحر البحر، صوب طرابلس بتاريخ **1510**م.

وثيقــة: «وطرابلس ذات مواقع دفاعية قوية ضخمة، ومحاطة بالبحر من جهاتها الثلاث، ولها ميناء ممتاز قادر أنْ يستوعب أربعمئة سفينة، ومن أجل ذلك كان فقدان تلك المدينة قضية مؤسفة، ويُقال إنه يسكنها أكثر من عشرة آلاف نسمة من العرب، وبعض اليهود.»   (دي تونيسيس، أحد رجال الحملة الإسبانية)

يمخر الأسطول مياه البحر الأبيض المتوسّط، وتتسرب الأنباء عن تحركه، فيأخذ الضُّعفاء والمسنُّون والنِّساء والأطفال في النزوح من طرابلس المدينة إلى الضواحي والبوادي، وأذَّنَ شيخ البلد بالجهاد، فصعد المحاربون فوق الأسوار وعلى القلاع، وتعالت الأصوات بالتكبير يستمدّون منه العون والتَّصميم.

(لم يبق في المدينة إلّا المحاربون وشيخ البلدة عبدالله بن شرف وأهله وبعض السكان الذين لم يقدروا على الفرار.)

رسا الأسطول الإسباني قبالة الساحل الطرابلسيّ ليلة الخامس والعشرين من شهر يوليو من سنة **916**هـ/ **1510**م، للميلاد، ومع انبلاج الفجر أخذت سفن الإفرنجة تُطلق مدافعها، وهي تدكُّ الأسوار والقلعة، وتزامَن ذلك مع إنزال ستّة آلاف جندي إسباني بجهة الشّعاب، واتجهت نحو المدينة، والتقت مع كتائب إسبانية أخرى، وكانت إبادة شبه كاملة للطرابلسيّين، والذين هم في هلعٍ واضطراب، يدفعون العدوان ببنادق

هزيلة، والعدو مُدَجَّج بأسلحة حارقة للأبدان، وقبل أنْ تغرب شمس ذلك اليوم المرعب المفزِع، كانت دماء الطرابلسيّين على كل منفذ وطريق، وأينما سار المرء تعثرت قدماه في جثث الأطفال والنّساء المقطوعات الأثداء، كما وصف ذلك «عمر الباروني» في رسالته «الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس»، وأشار إليها المؤرخ الطاهر الزاوي في أكثر من موضع، ولكثرة القتلى أُلقيت الجثث في صهاريج المساجد، وفي رسالة الكونت «نافارّو» يذكر أنَّ عدد القتلى من الطرابلسيّين نحو خمسة آلاف، والأسرى بأكثر من ستّة آلاف، وأمَّا قتلى الجنود الإسبان وحلفائهم فيقترب من ثلاثمئة، وقبل غروب يوم 25 يوليو من السنة المذكورة كانت المدينة في حوزة الإسبان.

وثيقة: «مات في جميع المعارك ستّة الآف مغربي، أُلقيت جثتهم في مواجل الجامع أو في البحر، بينما أُحْرِقَ بعضها، وأُسِرَ أكثر من خمسة عشر ألف شخص، وحُرِّرَ **180** إيطاليا كانوا رقيقا لدى المغاربة، ووضع الإسبانيون أيديهم على ثروات المدينة الطائلة، بالرغم من أنّ المغاربة كانوا قد تمكّنوا من نقل حمولة أكثر من خمسة آلاف جمل، بعدما أُشْعِرُوا باقتراب أسطول الإسبان من شاطئهم.

*(رواية مامول **Narmol** في كتاب إفريقيا عن شارل فيرو.)*

(يَستخدم المؤرخون والرّحالة الأجانب عبارة «المغاربة» في سياق الحديث عن سُكّان طرابلس، حيث تُعَدُّ طرابلس ضمن الأقاليم المغاربية في العهود السابقة حتَّى اليوم.)

أُسِرَ الشيخ «عبدالله بن شرف» صاحب القلعة، ونُفِيَ إلى «باليرمو» في الشَّمال الغربيّ من صقليّة، وأُخِذَ أسرى كثيرون حوالى **1400** إلى سجون «مِسِينا» الواقعة في أقصى الشَّمال الشرقيّ من صقلية، ويُذْكَرُ أنَّ بعض الأسرى بيعوا بالمزاد العلني، بين ثلاث وخمس دوكات للشخص الواحد، ولم يَنْجُ من أهلها إلاّ من تَسَوَّر ليلاً، وانحاز الطرابلسيّون إلى تاجوراء ومسلاتة وجبال طرابلس كما حقّق أحمد النائب الطرابلسي، وينقل الكونت دي نافارّو خبر احتلال المدينة إلى نائب الملك بصقلية فيقول:

وثيقة: «سيدي، إنَّ هذه المدينة لهي أكبر في واقعها ممّا كنت أتصوّر، ورغم أنَّ الذين يُشيدون بها ويطرونها يتحدثون عنها حديثاً حسناً إلاّ أنّي أرى أنهم لم يقولوا إلاَّ نصف الحقيقة، وبين المدن التي رأيتها في هذا العالم لم أجد مدينة تضاهيها، سواء في نظافتها أو تحصيناتها حتَّى لتبدو معها مدينة إمبراطور، أكثر منها مدينة لا تنتمي لأي

مَلِكٍ خاصّ.» (دي نافارّو)

في حادثة اغتصاب الإسبان لطرابلس يذكر بعض المؤرّخين ندرة السّلاح بالمدينة، وفي هذا الشأن تتداول بعض المراجع التّاريخيّة قصة «اللؤلؤة والدِلّاعة» المذكورة في التّذكار لابن غلبون وغيره من المراجع ذات الصِلة التي يعلّق عليها بقوله: «قصة عجيبة صيغت في قالب يبدو أنه مغرق في الخيال الي حدٍّ بعيد» واستغربها عمر الباروني في رسالته، ويبدو أنَّ الباحث «محمد بيرم الخامس» هو أوّل من ذكرها في كتابه: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار.

وملخص القصة أنَّ الطرابلسيّين في الفترة التي سبقت الغزو بعشرات السِّنين قد أثروا ثراء عجيبًا، فمالوا إلى الدَّعة والرَّفاهية، ولأنَّ بلادهم كانت مسرحاً للفتن والقلاقل والاقتتال فقد صار حمل السّلاح عندهم ممقوتاً.

وقد ذَكَرَ الرّحالة أنَّ سفينتين إسبانيتين قدمتا إلى ميناء طرابلس ببضائع أوربية فاشتراهما تاجر طرابلسي واحد، وهو ما أدهش الغرباء الإسبان، إذ دلّ ذلك على الغِنَى العظيم لتُجّار طرابلس، وقيلَ إنَّ تاجراً آخر دعاهم للضيافة، وأراد أنْ يُرِيَ الإفْرِنج غناه وثراءه وسعة ما يملكه، فدفعه غروره أنْ دقَّ لؤلؤة وذَرَّها على الطعام وهو يقول: «هذا مقام الفُلْفُل»، وتمضي القصة في سياق المبالغة فتقول: إنَّ التّاجر الطرابلسّي أراد أنْ يقطع الدّلاعة فلم يجد سكيناً في بيته ولا في بيت أحد من جيرانه، وحين تساءل الإفرنجة عن ذلك عرفوا أنَّ حمل السّلاح ولو سكيناً كان معيبًا عند الأهالي.

والتعليق على هذه القصة هي أنَّ القارئ قد يقبل حكاية الياقوتة بسبب طيش صاحبها وزهوه وعجبه بكثرة ماله كما أن دقها ونثرها يفسد الطعام ولا يصلحه، ولكنَّ عدم وجود سكين فذلك أمر استغربه دارسون وباحثون كُثْرٌ في مصنفاهم، حتَّى وإنْ كان كراهة اقتناء السّلاح هو السَّبب.

ابتهجت الأوساط المسيحية الرسمية لوقوع طرابلس في قبضة الإسبان، وأقيمت الاحتفالات، ووردت التّهاني للملك الإسباني «فرديناند» من جهات أوربية كثيرة، وهنأ المرشد الأكبر في جزيرة رودس فرديناند بالنّصر، وأمل أنْ يضمّ قواته إليه لخدمة الله في هذه المهمة السامية كما جاء عنه، وهو الأمر الذي يؤكّد الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي تمتعت بها طرابلس، وفي الجانب الآخر استاء المسلمون، وغضب

العثمانيّون المسلمون الذين كانوا يجوبون بسفنهم البحر الأبيض المتوسّط، وهجم المغاربة على فندق الإسبان في الإسكندرية احتجاجًا وتظاهروا ساخطين.

باحتلال طرابلس توقَّف الأهالي عن الزراعة والتّجارة والصِناعات، وانقطعوا عن العمل، فبدت الأسواق في كساد، فَعَمَّ الخراب والفقر، ولم توهن هذه المآسي في عَضُد الطرابلسيّين، وأَبَوْا إلاَّ الدِّفاع عن وطنهم، واستعانوا بإخوانهم في البوادي، ولم يستطع الإسبان أنْ يتقدموا أبعد من المدينة وقلعتها، وشكّلت بلدة تاجوراء قاعدة حربيّة تنطلق منها حركة المقاومة.

وثيقة: «هذه الكوارث لم تفت في عضد الطرابلسيين بل دأبوا على الدفاع، واسْتعانوا بإخوانهم في الداخل، وتألفت مراكز للمقاومة في الجبل الغربي وغريان وتاجوراء» (عمر الباروني)

هَبَّ أهالي البلاد التونسية لإعانة طرابلس، فوقع الاختيار على قائد بلدة «توزر» الصحراوية، الواقعة في الجنوب الشرقي من تونس، عند شط الجريد، وهو «أبوالحدّاد» قائداً، والذي وصَلَ إلى طرابلس في فبراير **1511**، ونزل خارج السُّور، وانضمَّ إليه المقاتلة من الطرابلسيين والبوادي، وحاصر الجميع المدينة لأشهر، وهاجموا القوات الإسبانية مرات، ولكنهم لم يظفروا منها بطائل، وأسرع «نافارو» بإسطوله الإسباني للنجدة من جزيرة لمبيدوزا، فَفَكَّ الحصار، وهاجم ضواحي المدينة- جنزور والماية- لمساعدتهم المجاهدين، وَفَرَضَ عليهم الإتاوات.

وثيقة: «وشُغِلَ النّاس بحرب الإسبان عن أعمالهم، ومتابعة نشاطهم في الزراعة والصناعة والتجارة، فعمّ الخراب والفقر العباد والبلاد، وكانت الحرب سِجَالاً، فلا العرب أمكنهم أنْ يقتحموا المدينة لحصانة سورها، ولا الإسبان أمكنهم أن يُجْلوا العرب من تاجوراء» (ابن غلبون)

بموت فرديناند ملك إسبانيا يخلفه «شارل الخامس»، ولأنَّ سياسة العنف مع الأهالي في طرابلس قد أفلست، فقد أمر الملك الجديد بإطلاق سراح الشيخ «عبدالله بن شرف» الذي قبع عشر سنوات في منفاه.

أُطلق سراح الشيخ عبدالله بن شرف- في محاولة من الإسبان لاسترضاء السُكّان- وجاء على إثره نحو خمسمئة عائلة طرابلسية إلى المدينة، وطمح الإسبان أنْ يكون

سراحه بادرة حسنة تمنحهم رضا الأهالي، وإذا بالشيخ وبعض الأهالي يفرّون إلى تاجوراء، ويلتحقون بالمجاهدين.

وثيقة: «من الجدير بالذكر أنَّنا لم نر في ديار المغرب قلعة أجمل من قلعة طرابلس، فكل برج فيها يُرَى وكأنه مصنوع من الشمع وخاصةً أن قلعة طرابلس هذه تُبيَّض بالجير كل ستّة أشهر، فتظهر للناظر كالفضة الناصعة» (بيري)

(القبطان البحري وراسم الخرائط العثمانية أحمد محي الدين بيري ***1470***م– ت. ***1554***م.)

والقلعة هي التي اشتهرت باسم «السّراي الحمراء» إبّان العهد العثماني، وهي كلمة فارسية دخلت اللّغة التركية ومعناها «قصر الحاكم»، وقد بُنَيتْ بحجارة حمراء كما يذهب الباحث الطرابلسي الأثري رمضان الشيباني، وقيل إنها كانت تطلى باللون الأحمر أو لأنها كانت تترك دون طلاء فيميل لونها إلى الاحمرار لأنها بنيت بالتربة الرملية الحمراء، وإن كانت في بعض السنوات تجير بالأبيض، كما يذهب الباحث سعيد علي حامد في كتاب معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، وقد أخذت هذه التسمية «في الظهور مع بداية العهد العثماني الأوّل كما يوثق «عريبي» في وثائق السّراي الحمراء.

وقلعة طرابلس على شكل رباعي، مساحتها قرابة ثلاثة عشر ألف متر، وهي تواجه الميناء، وتحمي المدينة من البر والبحر، وكانت مفصولة عن المدينة بخندق عريض مغمور بمياه البحر من ثلاث جهات، ويُرجّح أنّها بُنيت على مبنى قديم حيث عثر على بقايا آثار في الطبقات السفلي: قطع من الفسيفساء الملونة، وأعمدة من رخام تعود إلى العهد الرّوماني، ويشير الباحث محمود الصديق أبو حامد إلى أن قصبة البلاد (القلعة) كانت مقراً لحكام طرابلس أثناء العهود العربية الأولى، وكان الحكام يحتمون داخلها من الجند والأهالي إذا ثاروا عليهم.

ومن المعالم التاريخية للسراي الحمراء:

منازل الأسرة القرمانلية، والسّاحة المواجهة لها، والردهة الإسبانية، ومخزن اللّقيات الأثرية، والردهة القرمانلية، والدهاليز الأرضية، والمتحف الطبيعي، والسلم الحجري، والحديقة المعلقة، والحديقة السفليّة، ومكتبة الآثار، ومسجد القلعة (الكنيسة سابقًا)، وفي فترة الاحتلال الإسباني حُوّلَتْ أجمل قاعات السّراي الحمراء إلى كنيسة سُمِّيت بكنيسة

«ليونارد»، وقد ظلّت كذلك إلى أنْ تغيرت إلى قاعة عرش لباشاوات الأسرة القرمانلية، ويذكر أنَّ مباني القلعة بدأت تظهر وتتَّسع في زمن الإسبان والعهد العثماني الأوّل وأثناء حكم الأسرة القرمانلية، وفي هذا يقول الباحث التاريخي الطرابلسي سعيد على حامد: «وبناء القلعة لم يحتفظ بشيء يتقدم تاريخه على العهد الإسباني سوى الأسوار الخارجية.»

وثيقة: «من المرجَّح أنْ تكون القلعة–وكيفما كان وضعها وهندسها وطريقة تشكّلها المعماري–موجودة قبل الغزو الإسباني بقرون طويلة، وذلك في أصولها الرومانية والبيزنطية، وفي هيئتها العربية الإسلامية» (نجم الدين غالب الكيب)

وتحولت السّراي الحمراء إلى متحف في القرن العشرين، وقد أجاد الأثري فيليب كنريك في وصف غرفه، وممّا ذكره أنَّ الإضاءة والعرض وبطاقات التعريف مختارة بصورة عامة، وهناك مخططات أرضية، والعديد من اللافتات الجدارية باللغتين العربية والإنجليزية تبين طبيعة ومواضيع المعروضات، وغرف المتحف مرقمة، ولكن بطاقات تعليم القطع المنفردة مكتوبة باللغة العربية فقط.

وصف كنريك الغرف من رقم 1 إلى 16، والتي احتوت: الفن الحجري ما قبل التاريخ، والسكان المحليين، والفنيقيين، والإغريق، والتزيين المعماري للكنائس، والفسيفساء، وتماثيل الحسناوات الثلاث، وقوس سبتيميوس سيفروس، ونُصب من الفترة الإسلامية المبكرة التي يعود تاريخها إلى الفترة بين الدخول الأوّل للعرب في القرن السّابع الميلادي وغزوة بني هلال وبني سُلَيْم في أواسط القرن الحادي عشر، ومن أقواله: «وليس هناك إلاّ القليل من هذه الفترة، ولا يوجد أيّ شئ إطلاقاً من الفترة ما بين منتصف القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر، وتمثل هذه الفترة فجوه فاصلة في تطور هذه المنطقة».

قام الإسبان بدءاً من سنة 1518م بإصلاحات في قصر الحكومة وبعض الأسوار لتقوية الحصون «ولا شيء غير ذلك إلاَّ الخراب!» بعبارة الزاوي.

بنى الإسبان البرج الواقع بالرّكن الجنوبي الشرقي من القلعة الذي يشبه مقدمة السفينة، ويطلُّ على شارع 24 ديسمبر الحالي – وهو «برج القديس جورج»، وأنشؤوا برج القديس جاكومو (يعقوب) في الرّكن الشّمالي الشرقي من القلعة حيث يبدأ شارع أدريان بلت، وأقاموا برجاً بالمَدْرج الحجري الذي يؤدي مدخله إلى داخل القلعة المعروف

باسم «برج القديسة باربارا»، ويقوم بين البرجين السابقين، وشيدوا أيضًا برجا يحمي الميناء وهو برج القديس «بطرس» والذي سمي فيما بعد بالبرج الإسباني، عند الطرف الأقصى من ميناء طرابلس (خارج الأسوار).

*(البرج الإسباني هو البرج الأحمر، شُيِّدَ بالطوب الأحمر، وكان مخزنًا للبارود في العهد العثماني الثاني باسم «الجبخانة» وقد احترق بتاريخ **1864**م فعرف بالبرج الطايح وكان ذلك في عهد الوالي محمود نديم باشا.)*

وأشار الرَّحالة «الوزّان» المعروف بـ «ليون الإفريقي» إلى أنَّ القلعة كانت مجهزة بأسوار ضخمة ومزودة بمدفعية قوية وأن الحياة أخذت تنتعش فيها، وقد شاهد ذلك عيانا بعد ثمانية أعوام من احتلال طرابلس «والوزان» أصله من غرناطة، فَرَّ من الأندلس إثر مرسوم تنصير المسلمين، ووقع أسيراً في أيدي القراصنة، وعرف لاحقًا باسم: جوان ليون الإفريقي.

ومع كلّ هذا لم يطمئن الإسبان لوجودهم في طرابلس، وفكّروا في التخلّص منها، وتقديمها لجهة تتولّى الدفاع عن مصالح أوربا، فكانت منظمة فرسان القديس يوحنا هي منجاتهم، وكان ذلك الحدث في سنة **1530**م.

فرسان القديس يوحنًا في طرابلس: (1530 -1551م)

أدَّت الأحداث المؤلمة الّتي سادت العالم الإسلاميّ في مصر والشّام بانقسامه إلى إمارات، وتنازع الأمراء والسّلاطين على السّلطة، وتأجُّج الصراع المسلّح بين فئاته إلى أن أصبح هدفاً سهلاً للحملات الصليبيّة.

والفرسان الرهبان جموع غفيرة من الأوربيّين كان مقصدها «بيت المقدس» على وجه التحديد، ومدة الحملات الصليبية على سبيل التقريب ما بين **1096**م و**1291**م، وذلك**195** عامًا.

كانت الحملة الصليبية الأولى أكثرها من الفرنسيّين، وقد تمكّنت من دخول القدس سنة **1099**م، وكان ذلك بعد أن أطبقت حصارها القوي على البلدة، ولأنَّ الحامية الفاطميّة لم تتمكّن من فعل شيء فقد استسلمت، ويروي التّاريخ أنَّ الصليبيين قد أثخنوا القتل في أهالي القدس المسلمين.

وصفت المؤرِّخة الألمانية «أولد نبورخ» ذلك بالمذبحة، وأنَّها من جرائم التاريخ الكبرى، وتمضي السِّنون، وبعد تسعين سنة قمريّة وهي ثمانية وثمانون عاما شمسيًّا- يستردُّ القائد صلاح الدِّين الأيوبيّ القدس، بعد معركة حطِّين الفاصلة، وكان ذلك سنة 1187م.

ارتبط الفرسان الرُّهبان بالحروب الصليبيّة الأولى، والفرسان الرُّهبان منظمات دينيّة معروفة في أوربا في العصر الوسيط، وقد عَرفت ممالك الصَّليبيين في بلاد الشّام هذه المجموعات، وهم قوة عسكرية دينيّة كان لها دور في تثبيت تلك الممالك، وضمَّت: فرسان الهيكل، وفرسان التيوتون، وفرسان القديس يوحَنَّا، وكانت دعوتهم مدّ المساعدة إلى ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين، واستمروا يقومون بمهمة الصَّليب الأحمر في مواساة الجرحى ومنكوبي الحرب.

وقد اتَّخذت منظمة فرسان القديس يوحنا «القدس» مقرًّا لها بعد استيلاء الإفْرِنْجَة عليها، وقاموا بتقديم خدمات مهمّة للصَّليبيين ما جعل الهدايا والهبات تَرِدُ عليهم من ديار الغرب.

باسترداد صلاح الدين الأيوبي للقدس، لم يَعُدْ لمنظمة فرسان القديس يوحنَّا مكان في الأرض المحرَّرة، وتقرّر طردها، فلجأت الي «عكّا» ثم أُخْرِجُوا منها، فاتجهت صوب «قبرص» وهي جزيرة قبالة فلسطين، في جنوب تركيا، وبعد نحو مئة سنة من إقامتها هناك انتقلت إلى «رُودس» وهي جزيرة صغيرة قريبة من تركيا، في جنوبها الغربيّ، وفي «رودس» أسَّست المنظمة أوّل حكومة تمتّعت بحماية ملوك أوربا، وشملها البابا بعطفه، ومن رودس أخذت تعرقل خطوط مواصلات الأسطول العثمانيّ في البحر الأبيض المتوسّط.

السّلطان العثماني سليم الأوّل والّذي تربّع على عرش أجداده سنة 1512 للميلاد، وحكم حتَّى سنة 1520م، وضَمَّ الشام ومصر والحجاز والجزائر إلى امبراطوريته- يأمر بمداهمة رودس، وخلال عام أو أكثر قليلاً بعد وفاته تسقط الجزيرة في أيدي العثمانيّين حيث شَنَّ السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم الأوّل حربًا ضروسًا ضد الفرسان في رودس.

يلتجئ فرسان القديس إلى إيطاليا، ويرحِّب بهم البابا «كلمنت السّابع» باعتبارهم منظمة دينية تنطوي تحت لوائه، وبمضي السِّنين رأت المنظمة أنَّ طموحاتها قد تلاشت في ظِلّ إقامتها تحت سقف البابوية، فطالبت بأنْ يكون لها موطن قدم تستأثر به، واقترحت

جزيرة مالطا الواقعة قبالة السّاحل الطرابلسّي، والقريبة من صقلية وجنوب إيطاليا.

كانت مالطا في حماية الملك الإسباني «شارل الخامس» في ذلك الوقت، فأبدى موافقته على عرض الفرسان، واشترط للتنازل عن مالطا أنْ تقبل المنظمة ضَمَّ طرابلس إليها أيضاً، وهو بذلك يريد أنْ يتخلّص من عبء الموارد العسكرية التي يقتضيها وجود جنوده هناك، إذ غدت إسبانيا في حالة قلق واضطراب ماديّ بسبب غارات الأساطيل العثمانية المتكرّرة، وأراد الإسبان من جهة ثانية أنْ يكفيهم الفُرسان مجابهة العثمانيّين ومقاتلتهم، ومن جهة ثالثة رغب الإسبان في تعاطف الجماهير المسيحية في أوربا، وهم يمنحون أرضاً إلى منظمة دينيّة، وهكذا زار وفد من المنظمة طرابلس قبل الموافقة على ضمّها (1524م)، وكَتَبَ تقريراً:

وثيقة: «طَرَابُلُس صافية الأديم، وهؤاوها صحّي، وهي غير معرضة للأمراض السّارية، ويبلغ محيط سورها 3728 خطوة، وثلثا السُّور يطلان على البحر، والثلث الآخر يُشرف على البَرِّ، ويبلغ علوّ الأسوار قصبتين ونصْف قصبة، أمَّا الخنادق فضيقة وغير عميقة، وفي طرابلس آبار وصهاريج للمياه، وتشرف على المدينة ربوة (ربوة الظهرة)، وميناؤها جيد لأسطول صغير، وتهبّ عليه الريّاح الشّمالية الشّرقية، ولا يقيه من الرِّياح إلاَّ بعض الجزر الصغيرة، وفي طرابلس ستّون عائلة عربيّة، في حيازتهم خمسة وعشرون فرسخاً يتّخذونها لحماية المدينة»

(وفد فرسان القديس يوحنّا)

*(الفرسخ يساوي ثلاثة أميال، والميل يساوي **1609** من الأمتار، والقصبة طولها ثلاثة أمتار وخمسة وخمسون من المئة من المتر، وتُمسح بها الأرض، وبهذا فإن علّو الأسوار أقل من تسعة أمتار قليلًا.)*

وافق فرسان القديس على شيئين اثنين: أنْ تكون مالطا موطناً لهم، وأنْ تصبح طرابلس حصناً للإفرنجة، ومصدًّا لهجمات السّفن العثمانية الّتي تجوب حوض البحر الأبيض المتوسّط، ويشير أحد الباحثين أنَّ تقديم طرابلس وقلعتها إلى المنظمة كانت هدية مسمومة.

في تلك الأيام كان نشاط الأسطول العثماني قويا في غربي البحر الأبيض المتوسط «بل إنَّ مسلمي إفريقيا الذين أصحبوا مهدَّدين بتزايد القوة الإسبانية بعثوا يستدعون

الأتراك إلى ثغورهم، وطلبوا مساعدة سلطان القسطنطينية» بعبارة المستشرق الإيطالي إيتوري روسي.

استقرّ «عَرُّوج وخضر» بجربة، وكان عروج قرصانًا مرعبًا مُخيفًا، أطلقت عليه المصادر الغربية «بارباروسا» وهو الاسم الذي ورثه فيما بعد أخوه خضر، وهو خير الدين، وبارباروسا تعني اللّحية الحمراء، إذ كان عروج وخير الدين يَخْضِبَان لحيتهما بالحِنَّاء.

أثار الأخوان برباروسا (عَرُّوج وخيرالدين) القلق في أنحاء أوربا الجنوبيّة، وأصبحا يُهددان السّواحل الأوربية والمستعمرات الإسبانية في المنطقة المغاربية، واعتمدا أسلوب الكرّ والفرّ في البحر، وتحقق لهما إقامة إمارة مستقلة في «جِرْبة» التونسيّة، واتّخذا من «بجاية» بالجزائر قاعدة، ومع العام 1518م، يُقْتَل عَرُّوج على يد الإسبان إثر تراجعه من بلدة تلمسان، فيستنجد «خير الدين برباروسا» بصاحب الآستانة «سليم الأوّل» الّذي يمده بأسطول يصدّ به أعداءه.

وفي سنة 1529م تحدَّى خير الدين باربار وسا أسطول القوادس الشراعيّة الإسبانية، والتحم مع «فورتوناتو» وقتله في مياه الباليار، واستولى على سبعة قوادس، وفي السّنة التالية استولى على قلاع بناها الإسبان على الجزر الصغيرة المقابلة لميناء الجزائر.

(القادس: السّفينة الضخمة)

دخل فرسان القديس طرابلس في شهر مارس من سنة 1530 للميلاد، وأول ولاتهم: جاسباري دي سانجوسا **Saspare de Sanguessa** ، وتقاطر زعماء أوربا للمساعدة، فقدّم الأمير الإنجليزي تسعة عشر مدفعاً برونزيًّا مع ألف وثلاث وعشرين كرة من الحديد كما يشير المؤرخ أوريجيمّا في دراسته لأسوار مدينة طرابلس، كما وَهَبَ أوربيّون آخرون الأموال للمنظمة.

وتُسَجِّل الوثائق أنَّ فرسان القديس مدَّ نفوذه في بداية الأمر إلى الجهات الغربية السّاحلية من طرابلس: جنزور والماية وصياد والزاوية وصبراتة، وأخذوا يجبون الضّرائب منها، ويفرضون المغارم، وخضوع الجهات الغربية للفرسان سببه أنَّ موقعها في طريق عساكر أحمد الحسن الحفصي- الذي كان يحكم تونس- فعقد معاهدة نصرة مع الإفرنجة، بغرض أنْ يكون في مأمن من العثمانييّن الّذين كانوا يتربّصون بالحفصيين لأخذ ديارهم.

تولّى أمر طرابلس من الفرسان اثنا عشر حاكماً، ولم تتوقف هجمات الطرابلسيّين خلالها منطلقة من الضواحي، وهذا ما جعل سلطة الفرسان محصورة بعد ذلك في نطاق المدينة والقلعة، وتذكر الوثائق أنَّ طرابلس المدينة ظلَّت معزولة عن بقية البلاد، كما أنَّ نزوح الأهالي منها كان يتزايد عبر السِّنين حتَّى لم يبق بها سوى ثمانين عائلة طرابلسيّة.

لتضييق الخناق على الإفرنج يدخل أحد قواد برباروسا واسمه خيرالدين كرمان الملقّب بمطارد الشيطان- تاجوراء، ويخلع عليه قائده الإمارة، ولأنَّ ميناءها غير صالح لرسوّ السَّفن، فقد أمر بإعداد حوض ترسو فيها مراكبه، كما بنى قلعة محصّنة.

ويُعلن كرمان الحرب على الفرسان في البَرِّ والبحر، ما دعا سكان الجهات الغربيّة لطرابلس (جنزور وما حولها) شق الطّاعة، والامتناع عن دفع الضّرائب للفرسان، والمجاهرة بالمقاتلة، ولم يبالوا بجيوش أحمد الحسن الحفصي الذي كان يدّعي حقوقًا للسيادة على إقليم طرابلس، والذي مَدَّ يده للإفرنج.

في ردَّة فعل للحفصي كان تجهيزه جيشاً كثيفا للاستيلاء على تاجوراء وقاده بنفسه بطريق البرّ بغرض القضاء على الوجود العثماني فيها، وبوصول تلك العساكر إليها كان حصارها، ولم يقدر القائد كرمان على المقاتلة لقلة عتاده، فطلب النّجدة من خير الدين باربروسا الّذى أرسل إليه عشر قطع بحرية فبلغ عدد أسطوله في تاجوراء 15 قطعة كبيرة ما مكَّنه من الصمود، وفي الوقت نفسه شنَّ باربروسا حملة على صفاقس ثم دخلها، وأدَّى ذلك إلى انكسار حملة الحفصي (تقريبًا 1532م)، فطلب من عساكره العودة إلى تونس للدفاع عن أملاكه التي بدأت تتساقط تحت ضربات العثمانييّن.

ولمّا تغالى الإسبان في شروطهم تخلَّى أحمد الحسن الحفصي عن الحكم، وقَبِلَ الشروط أخوه «محمد» ففاجأه العثمانيون وأخذوا منه ملكه، وفي التّاريخ: دخل برباروسا تونس سنة1534م، وأعلن إنهاء الحكم الحفصي فيها، ثم استرجعها الإسبان بعد عام واحد.

ولنجاحاته المتواصلة دُعِيَ خيرالدين برباروسا إلى الآستانة، وأسندت إليه قيادة الأسطول العثماني كله، فازداد خوف الفرسان، وخرج برباروسا بأسطوله على سواحل إيطاليا، ودانت له تونس، وكتب برباروسا إلى الطرابلسيّين جميعًا طالباً منهم الالتفاف حول «كرمان»، فلَبُّوا النداء، ودفعوا له الأموال لتجهيز التشكيلات المسلحة.

وسار التواجير ومن معهم نحو طرابلس المدينة، وبتناقل الخبر إلى الجهات الغربيّة المجاورة لطرابلس انظمَّ أهل جنزور والماية والزاوية وصرمان وصبراتة وغيرهم إلى جيش كرمان، وتقدمت الجموع، واتّخذتْ من منطقة الظهرة- تبعد قليلًا عن منطقة الشعاب- قاعدة عسكرية، ونُصِبَت المدافع الّتي كانت قنابلها تصل إلى قريب من أسوار المدينة، ونشبت الحرب، وصعد بعض المقاتلة الطرابلسيّة على السّلالم الّتي وضعوها على الأسوار، وكاد فرسان القديس يستسلمون، وسرتْ أخبار بمقتل القائد «كرمان»، ما جعل الناس تتقهقر وتتحصن بقلعة الظهرة.

وجاء المدد إلى الفرسان من مالطا، واسْتُمِيلَ بعض الأهالى في الضواحي لمصلحة فرسان القديس يوحنّا، «فجاؤوا أفواجاً ليحاربوا إخوانهم» كما يذكر «عمر الباروني» في رسالته، واستطاع الفرسان ومن التحق بهم من الأهالي القضاء على جيوب المقاومة، أحرقوا معسكرات كرمان الّتي كانت في قبيلة أبي دبّوس، وهي بلدة تبعد نحو خمسة أميال عن طرابلس شرقي المدينة.

(قَضَى القائد العسكري «كرمان» نحبه في هذه المعارك.)

وظهرت شخصية جديدة على مسرح الأحداث وهو «مراد آغا»، وهنا نحن بين روايتين في المصادر التاريخية، فقد جاء في رسالة عمر الباروني أنَّ «مراد آغا» كان قد انضمَّ إلى أسطول برباروسا، فأرسله بعد مقتل كرمان إلى تاجوراء ليترأس الغزوات على الفرسان، وكان مراد قد انضم إلى برباروسا سنة 1538م وكان ساعده الأيمن.

وفي رواية أخرى ذكرها ابن غلبون والنائب في تاريخيهما هي أنَّ أهل تاجوراء أرسلوا وفداً إلى السلطان العثماني في الآستانة مستنجدين بالخلافة الإسلامية، وكان ذلك سنة 926هـ / 1520م، فسنحت إرادته السّنية بتولية مراد آغا عليهم، كما جاء في المنهل العذب.

وثيقة: «قابل الوفد السلطان العثماني سليمان القانوني المتربع على تخت السلطنة... وقد أرفق بهم مراد آغا مأمورًا بالتحقيق في أمورهم.»

(محمود ناجي الأرناؤوطي)

يُشَكِّكُ المُحَقِّق الطّاهر الزاوي في رواية طلب أهالي تاجوراء النجدة من الباب العالي لسببين اثنين، أولهما: أنَّ الاسطول العثماني كان موجوداً في البحر الأبيض المتوسّط،

والقادة العثمانيون كانوا يحاربون في الشّمال الإفريقي وفي تاجوراء، وثانيهما: أنه لا ذكر لمراد آغا إلاَّ بعد سنة 1540م، ويخلص الزّاوي في تحقيقه لهذه المسألة بقوله: «فإِنَّ مسألة إرسال الطرابلسيّين وفداً إلى الآستانة لطلب النجدة مازالت غير واضحة».

وثيقة: «الذي يطالع رسالة الأستاذ عمر الباروني «الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس»، يجد فيها من سرد الحوادث وترتيبها ما يجعل نفسه تطمئن إلى ترجيح ما جاء فيها، ولم أعثر فيما اطّلعتُ عليه من المصادر العربية التاريخية على من سرد سردها، ورتَّب ترتيبها لهذه الحقبة من تاريخ طرابلس.» (الطاهر الزاوي)

ومن الأحداث في فترة الفرسان بطرابلس أنّه كانت لدى الفرسان رهائن من المجاهدين فهربوا من سجون القلعة، ولَمَّا وصلوا إلى بلدة «الماية»، قام السُّكان بتسليمهم إلى مراد آغا، وجعل هذا الفعل الفرسان في غيظ وحنق شديدين، فجهزوا ثماني قطع بحريّة وجيشاً بريًّا وزحفوا على الماية، فَفَرَّ الضعفاء والشيوخ والنّساء إلى البادية، ودخل الفرسان البلدة وأسروا نحو أربعمئة، وغنموا ما فيها، وحُمِلَ الأسرى مكبّلين في الأغلال إلى القلعة، وكان ذلك في شهر يوليو من سنة 1545م.

(توفي خيرالدين برباروسا سنة 1547م، وهو أميرال الأسطول العثماني العظيم)

ومن تاريخ مراد آغا أنَّه كان– أثناء وجوده بتاجوراء في هذه الفترة– قبل ولايته– يتواصل مع أعيان طرابلس، ويتعاقد معهم سرًّا على قتال الفرسان، وتذكر المراجع أنَّه زار «عبدالقادر بن شوشانة» وزملاءه للتنسيق معهم، ولَمَّا عَلِمَ الفرسان بذلك قبضوا على ابن شوشانة وصديقه «ابن جوهرة»، وأرسلوهما إلى مالطا لمحاكمتهما، ولعدم ثبوت إدانتهما، فقد أُفْرِجَ عنهما، ورجعا إلى طرابلس، وكان ذلك الحدث في سنة 1549م.

ومن الحوادث المذكورة أثناء حكم الفرسان اتصال كبيرهم بالملك الإسباني لطلب الموافقة على أحد أمرين؛ إمَّا المساعدة لتسوير المدينة والقلعة وإحاطتها بأبراج وخنادق بُغية حمايتها من هجمات العثمانيّين والطرابلسيّين، وإمّا بنسف القلعة وتخريب الميناء؛ كيلا تقدر السُّفن العثمانية على الرُّسوّ واستهداف المدينة، وبهذا قَدَّم الملك شارل الخامس مبلغاً ماليًّا، وقدره سبعون ألف سكودو، وارتحلت السّفينة «كاتيرنتو» من شواطئ فرنسا وعلى متنها الأموال والعتاد والمؤن الّتي قدمتها فرنسا ودول أوربيّة أخرى إلى الفرسان، وتوجّهت نحو الشّاطئ المالطي، وفي طريقها إلى طرابلس تقع في شباك

الأسطول العثماني الّذي أطبق عليها، وصادر جميع ما فيها.

العثمانيون في طرابلس: (1551م)

العثمانيون نسبة إلى عثمان بن أرطغول بن سليمان، وسليمان هو الجدَّ، من التركمان الرّحالة من فخد التتر، وبعد تخريب جينكزخان بلاد بلخ، خرج سليمان وصحبه في خمسين ألف بيت، وتوجّه نحو أرض الفرات، وبوفاته دخل أرطغول بلاد السلطان علاء الدين السلجوقي وأصبح من رعاياه، وقد خَلّف أرطغول عدة أولاد أشدهم بأسًا وأعلاهم همّة عثمان، الذي أرسل إليه السلطان السلجوقي الراية السلطانية، وبسقوط دولة سلاجقة الروم على أيدي التتار، ومقتل سلطانها علاء الدين الثالث سنة **1300**م تأسست الدولة العثمانية، وبوفاة عثمان سنة **1326**م يتولى أبناؤه وأحفاده.

منذ أنّ فتح العثمانيون القسطنطينية على يدي محمد الثاني (الفاتح) **1453**م، وبدخول الإسبان إلى آخر الممالك العربية في غرناطة **1492**م، اشتدّ الصراع بين الدولة العثمانية الإسلامية ودول أوربا المسيحية، الذي امتد عدة قرون، واتخذ منحىً دينيًا واقتصاديًا.

أعطى السلطان سليمان القانوني الأمر بدخول طرابلس وطرد فرسان القديس منها، فتمّ التنسيق بين «سنان باشا» أمير الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط ومراد آغا بتاجوراء بغرض فرض حصار بريّ وبحريّ، فأقام مراد حصناً بين تاجوراء وطرابلس، وباشر في تحضير وسائل المحاصرة، منتظراً ورود الأمر والمدد، وبأسطول قوامه قرابة **150** شِراعًا بقيادة سنان باشا، ومساندة درغوت رايس، وصالح بك حاكم رودس- كان الحصار لمدينة طرابلس في الخامس من شهر أغسطس من سنة **1551**م.

*(سليمان القانوني من أعظم السلاطين العثمانيين، حكم من **1521**م إلى **1566**م، لُقّب بالقانوني لتوجهه إلى اعتماد القوانين في دولته، وعلى يديه كان توسّع الإمبراطورية العثمانية، ووالده هو السلطان سليم الأوّل، وسنان باشا من القادة العسكريين في جيش الإنكشارية، وصل إلى مرتبة آمر الأسطول في البحر الأبيض المتوسط، وهو من المهندسين المعماريين البارعين، أشرف على إنشاء منشآت معمارية كثيرة في تركيا؛ من جسور ومدارس ومساجد ومتاحف وحمّامات وأضرحة، وسيجيء الحديث عن مراد آغا ودرغوت باشا تفصيلا.)*

استعدّ فرسان القديس يوحنا للمعركة، وأمر الجنرال «ويلبه» بنصب ستّة وثلاثين مدفعاً على القلعة، واتخذَ قرابة ستمئة وثلاثين جندياً أماكنهم بإمرة ثلاثين ضابطاً.

حاصر العثمانيون طرابلس برًّا وبحراً، واستعدّ مراد آغا والأهالى فحفروا الخنادق ونصبوا المدافع قرب منطقة الشّعاب، وبإصرار قادة الفرسان على المقاومة وعدم الاستسلام- أطلق الطرابلسيون المدافع على الأبراج والأسوار والقلعة، وتنادوّا بالجهاد، وعمّت الفوضى جنود الفرسان، وأدركوا أنّهم لا طاقة لهم بهذه الحشود، وهم يشهدون أيام التّاسع والعاشر والحادي عشر من شهر أغسطس من العام **1551**م، والّتي كانت أشدّ أيام الحرب.

وصلت الكتائب العثمانية والطرابلسية إلى مسافة ثلاثين خطوة من القلعة، خلال خمسة أيام، وحمى الوطيس، وأدرك جنود فرسان القديس أنهم ينتحرون إن استمروا في المعركة، فأعلن البعض عصيانهم لأوامر ضباطهم، وأخدوا يطالبون بالتسليم بأعلى أصواتهم.

آثر جنود الفرسان النّجاة بأرواحهم- فطالبوا الحاكم جاسباري دي فالليسي **Gaspare de Vallies**- بتسليم المدينة، وهرعوا إلى الأبواب ففتحوها، ودخل «سنان باشا» وفي مقدمة جيوشه «مراد آغا ودرغوت باشا»، والطّرابلسيّون يكبّرُون ويحمدون الله سبحانه وتعالى، وعمّت شوارع المدينة القديمة وأزقّتها زغاريد الطرابلسيّات فرحًا بالنّصر.

(زغْردت المرأة: ردّدت صوتها بلسانها في فمها عند الفرح.)

ودخلت طرابلس في عداد الولايات العثمانية بإعلان الآستانة أنَّ طرابلس أصبحت محرّرة، وأنها منذ اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس سنة **958**هـ= **1551**م، تحت الحماية العثمانية، وولاتها يخضعون للباب العالي في الآستانة، وكان الاحتفال بالتحرير يوم **16** أغسطس حضره السفير الفرنسي ورئيس فرسان القديس يوحنا.

والآستانة لقب لمدينة «إسلام بول» ومعناها «مدينة السلام» وموقعها في نواحي بوغاز الدردنيل، المضيق المائي على البحر الأسود، في أقصى الشمال الغربي من تركيا، وهي مركز الحكم في تركيا، ويحدثنا التاريخ أنَّ محمد الثاني الملقب بالفاتح هو الذي

قدر على فتح هذه المدينة- التي كانت تُعرف بالقسطنطينية، وكان ذلك الحدث، سنة **1453**م كما تقدم القول، وأصبحت عاصمة منذ ذلك التّاريخ حتّى عام **1922**م.

(مالطا محل قيادة الفرسان العام، على سفن تحمل الراية الفرنسية بتاريخ 18 أغسطس.)

سمح العثمانيون للفرسان الأسرى أن يغادروا المدينة إلى بلادهم، وكان ذلك بوساطة السفير الفرنسي، أمَّا الجنود المرتزقة والأهالي الذين كانوا في خدمة الفرسان «فقد قُطِّعُوا تقطيعا» بعبارة روسي، وعبارة «جاء الترك بس» في نظام حساب الجمل بالأبجدية المغاربة تبيّن تاريخ التّحرير.

وأبجدية أهل المغرب في حساب الجمل (28 حرفًا) على النحو الآتي:

أبجد – هوز – حطي –كلمن – صعفض – قرست – ثخذ – ظغش، وقيمة كلّ حرف كما يلي:

الألف (1)، الباء (2)، الجيم (3)، الدال (4)، الهاء (5)، الواو (6)، الزاي (7)، الحاء (8)، الطاء (9)، الياء (10)، الكاف (20)، اللام (30)، الميم (40)، النون (50)، الصاد (60)، العين (70)، الفاء (80)، الضاد (90)، القاف (100)، الراء (200)، السين (300)، التاء (400)، الثاء (500)، الخاء (600)، الذال (700)، الظاء (800)، الغين (900)، الشين (1000).

وبتطبيق الأبجدية العددية على عبارة «جاء الترك بس» يكون الناتج (958)، وهي السنة الهجرية لتحرير طرابلس من الإفرنجة.

(الهمزة تساوي (1) مثل حرف الألف، وترتيب أهل المشرق: أبجد – هوز – حطي –كلمن – سعفص – قرشت – ثخذ – ضظغ.)

يُفسِّر صاحب الحوليات الليبية عبارة «جاء الترك بس»، أيْ: «لم يكن على التركي سِوَى أنْ يأتي» وهذا التّحليل بسبب الخراب الذي آلت إليه المدينة، ويعقِّب المُعَرِّب الباحث محمد عبد الكريم الوافي بأن المقصود هو «لقد أتيتُ ورأيتُ وانتصرتُ»، كما في المثل اللاتيني: «**Veni VIDI Vici**»

وثيقة: «وعادت مدينة طرابلس، بعودة السيادة الإسلامية إليها، إلى احتلال

مركزها كقاعدة هامة من قواعد البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، وبرزت مشاركتها في كافة الأحداث التي وقعت في هذه الفترة سواء في استرداد المواقع المحتلة من التراب التونسي أو في الإغارة على المواقع المعادية على السواحل الأوربية أو رد الهجمات المضادة أو في المعارك الكبرى.» (التليسي)

وثيقة: «إنَّ تحول سلاطين الدولة العثمانية منذ بداية القرن السادس عشر نحو البحر المتوسط كان من أجل حماية الإسلام، ورغم ما يثار حول مطامع العثمانيين الاقتصادية في المنطقة فإنَّ الجانب الرئيس كان الحافز الأساس لهذا التحوّل، وتحركات العثمانيين في غرب البحر المتوسط هي التي مكّنت من إيقاف المدّ المسيحي عن سواحل منطقة المغرب.»

«والدور الهام الذي قام به أسطول الدولة العثمانية في الدفاع عن الوجود الإسلامي في البحر الابيض المتوسط لا يستطيع أنْ ينكره أي مؤرخ منصف أو يقلّل من أثره في دفع الأخطار التي كانت تهدد هذه المنطقة في وجودها وعقيدتها.»

(أحمد أوزل، مركز البحوث الإسلامية اسطنبول)

وثيقة: «ومهما كان الحكم العثماني للأراضي الليبية، فإن الشعب التركي قد ارتبط مع الأمة العربية عموما ومع الشعب الليبي خصوصا خلال حقبة طويلة ارتباطا تاريخيًّا ووجدانيًّا وثيقاً، فخاض الشّعبان ملاحم خالدة حاسمة ضد الغزاة الأجانب، أسفرت عن حماية الأرض العربية من طمع الطامعين، وصانت الدين الإسلامي من الحاقدين الموتورين». (تيسير بن موسى)

وثيقة: «إن الدولة العثمانية جعلت الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام الركيزة الكبرى لوجودها، وأخذت على عاتقها نشر الإسلام وحماية المسلمين في جميع أنحاء المعمورة، وهي بذلك قدمت خدمة كبرى للإسلام وبذلت ما في وسعها لنشر لوائه واستطاعت أن تدافع عن المسلمين وعقيدتهم عبر القرون.

وعلى الرغم من تلك الصفحة المجيدة للدولة العثمانية، فقد وصف عدد من مؤرخي التاريخ الحديث– تاريخ الدولة العَلِيَّة بصفات لا تليق بتلك الأعمال التي قدمها العثمانيون على مدى العصور الطويلة، كما وصفوها بأنها كانت من وراء التدهور الذي

أحاط بالعالم الإسلامي، مندفعين في كتاباتهم بدوافع شتى تأصلت جذورها في عصور الاستعمار. (رضوان نبيل عبدالحي).

وخلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين ظهرت أبحاث ودراسات حول طرابلس في العهد العثماني الثاني ونشير إلى العمارة العثمانية بطرابلس الغرب (1850–1911م) رسالة دكتوراه من جامعة إسطنبول (1982م) للباحث محمود علي، أطروحة تلقي الضوء على ما شيّده العثمانيون من مدارس وخانات وحمامات ومستشفيات وقلع وأبراج ومبان عسكرية وتعليمية ومنشآت زراعية وتجارية اعتماداً على وثائق رسمية عثمانية، كما قدم الباحث الطرابلسي عمار جحيدر سنة 1996 رسالة لنيل درجة الماجستير بعنوان: «ولاية طرابلس غرب حسب المصادر العثمانية الرسمية (1865–1894): وتناول في بحثه تاريخ طرابلس السياسي، والحياة الثقافية والعلمية، والعمارة والبحرية، وطرق المواصلات وغيرها.

العهد العثماني الأَوّل: (1551 ـ1711م)

(160 سنة شمسّية)

«مراد آغا»: (الوالي الأوّل لطرابلس: 1551-1553م)

أسند سنان باشا أمر إيالة طرابلس إلى «مراد آغا» وهو الوالي الأوّل، وامتدت ولايته من شهر أغسطس 1551م، إلى شهر مارس 1553م، فحكم تسعة عشر شهراً وهذا التاريخ هو الأرجح، ويرجع مراد في أصوله إلى صقليّة، من مواليد سراقوزا، سباه القراصنة وباعوه في الآستانة بستين ليرة لأحد النخاسين بائعي الرقيق، فأهداه إلى أحد محظيات السلطان سليم الأوّل، فبقي في القصر، وأُسْبِغَ عليه لقب «آغا»، وهي كلمة فارسية الأصل، « تطورت دلالاتها في اللغة التركية فأصبحت تدلّ على لقب عسكري شرفي مساوية لرتبة كولونيل.

كانت طرابلس القديمة قد عَمَّها الخراب، فَشُغِلَ بتعميرها، جلب إليها النّاس من تاجوراء ومناطق أخرى، وشجع على استثمار الأرض، فأخذت الحياة تدبّ فيها شيئاً فشيئاً، وأخذ في تقوية السور الغربي لصِدّ هجمات الإفرنجة، كما أقحم الطرابلسيين في عداد جنده.

والحادثة الوحيدة المذكورة في فترة ولايته هي أنّ زوارة لم تدخل في طوعه ابتداءً، فقرّر أنْ يخضعها، ومع حلول عام 1552م،- بعد أشهر من توليه- يجهّز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف وستمئة مقاتل ويسير إليها، وقبل أنْ يتأهَّب باغث فرسان القديس زوارة بستّ عشرة سفينة، عليها نحو ألفي مقاتل، أبحرت من مالطا، واستطاع الفرسان اقتحام البلدة، وعاثوا فيها فساداً، مِنْ قتل وسبي ونهب، وهم في ذلك الأمر إذ حلّت كتائب مراد بالمدينة، فانقضت على جند فرسان القديس، فتشتتوا ورموا بأنفسهم في البحر يبتغون النجاة، فقُتِلَ كثير منهم، وأقلعت سفنهم بمن بقي منهم حيّاً، كما ذُكِرَ في التاريخ.

من أعمال مراد آغا تشييده لمسجد بهيّ مهيب في تاجوراء، وهي بلدة تبعد قرابة سبعة عشر كيلومتراً، شرقي مدينة طرابلس، حيث أوكل إلى ثلاثمئة من الأسرى النصارى أنْ يساعدوا الأهالي في بنائه بناءً محكماً، وثواب ذلك أنْ يُطلق سراحهم.

جُلبت الأعمدة الرُّومانية من لبدة الأثرية، واستقطعت الحجارة الضخمة من المقاطع الحجرية القريبة من البلدة، وشُيّد المسجد على شكل حصن على ثمانية وأربعين عموداً، وأُقيمت عليها أقواس بديعة من الحجارة الضخمة، وعلى الأقواس كانت القباب، وبدا المسجد مستطيل الشكل، طوله اثنان وأربعون متراً وستون سنتيمتراً، وعَرْضُه خمسة وثلاثون متراً وعشرون سنتيمتراً، والجامع مَعْلَم من معالم طرابلس الأثرية الإسلامية، وقد زرته مراراً وأديتُ الصلاة فيه في أشهر الصيّام، وله بهجة، وترتاح إليه النفس، وتستطيب العيون جدرانه، ويطلق عليه التواجير «الجامع الكبير».

وأنشأ مراد آغا في بلدته التي أوى إليها مدرسةً للعلوم الإسلامية، وهي المعروفة اليوم بمدرسة «أبو راوي» وخَصَّصَ وقفية عليها؛ ولأنَّ المِلْح من السّلع المهمّة فقد أمر بإقامة ملاّحة في شمال البلدة.

وفي سنة 1560 ميلادية انتقل إلى الرفيق الأعلى، بعد سبع سنوات من تاريخ تنحيته عن الولاية، ودفن في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد، في الصحن، وبُنيتْ عليه دار ذات قبة واحدة، أمَّا بعد 17 فبراير 2011م، فيشاهد الزّائر أرضا مستوية مبلّطة عليها علامة دالّة على مرقد جثمانه.

درغوت باشا (الوالي الثّاني): (1553-1565م)

بعد قرابة تسعة عشر شهراً من دخول العثمانيين طرابلس كان درغوت باشا العظيم في الآستانة يقدّم تقريراً عن أعماله الحربية في البحر الأبيض المتوسط، ويسعى للحصول على إيالة طرابلس لدي السّلطان سليمان القانوني، حيث ذَكَرَ أنَّ مراد آغا ضعيف في إدارة البلد لشيخوخته، وهو ما يجعله عاجزاً أمام غارات الدّول الأجنبية، والاحتفاظ بطرابلس ذات الأهمية الاستراتيجية للسّلطنة العثمانية، ولمكانة درغوت باشا عند السّلطان، وإدراكه لشخصيته ذات القوة والعزيمة والجَلَد والطموح، -إذْ عُدَّ درغوت باشا من أعظم قادة البحر العثمانيين الأبطال بعد «بارباروسا خير الدين»- كما نوّه بذلك المؤرخ محمود ناجي وغيره- فَقد وافق السّلطان على تعيينه والياً، وأصدر بذلك فرماناً في شهر مارس من سنة 1553م، وهو التاريخ كما حدده ابن غلبون، ويحوز رتبة بكربكي (الباشوية)، ويمتد حكمه قرابة ثلاثة عشر عامًا.

وثيقة: «وإذا كانت قوة خيرالدين قد خلعت أهمية كبيرة على مدينة الجزائر وأدخلتها التاريخ، فإن قوة شخصية درغوت قد خلعت نفس الأهمية على مدينة طرابلس التي اتخذ منها قاعدة لعمله الموجه إلي مهاجمة الدول المسيحية، ورد الخطر عن ديار الإسلام واستخلاص المواقع الإسلامية الرازحة تحت الاحتلال الأجنبي.»

(*خليفة محمد التليسي*)

في أيام تولّي خيرالدين بارباروسا قيادة الأسطول العثماني كان درغوت باشا أحد قواده، ودرغوت باشا محقِّق طرد الإسبان من مناطق متعددة بالتراب التونسي والجزائري، وكانت مشاركته لأسطول سنان باشا في تحرير طرابلس كما تقدم قوله.

شَمِلَ حكم درغوت باشا مسافات شاسعة من البلاد، وفرض على الدّاخل ولاءه، وبتمرد غريان وترهونة يتمكّن في فترة وجيزة بفضل مدافعة من إخضاعها، وأَجْبَرَ الجميع الانصياع إليه.

وقد أبقي أسرة «أولاد محمد» في فزان تدير شؤونها، وهي أسرة فاسية الأصول من المغرب الأقصى، امتدت سلطاتها إلى حدود الوديان الجنوبية وأحداثها التاريخية مدونة، وأقام درغوث علاقات مع مملكة بورنو بتشاد، وأخذت طرابلس صفة (غرب) فأصبحت تُدعى «طرابلس الغرب».

وتذكر الوثائق التاريخية أنّ طرابلس القديمة تمتعت في عهده بالأمن، فانتعشت فيها الزراعة والصناعات المحليَّة، وبدا الاهتمام واضحاً بالعُمْران، ولدرغوت باشا الفضل في تأسيس منطقة المنشية وانتعاشها.

ولكي يحصن درغوت المدينة دعَّم الأسوار وشيد الأبراج، ومن ذلك «برج التراب» وهو المعروف بِـ: «حصن درغوت الترابي» وقد استغرق العمل فيه قرابة السَّنتَيْن، وموقعه المرتفع الكبير بِـ: «القُبّة» بالمدينة القديمة بالقرب من خزَّان المياه حاليّاً بوسعاية البولاقي بباب البحر، وقد بلغ ارتفاعه 27 متراً فوق سطح البحر، وبُنِيَ بدقة وعناية لم يُدَّخَر فيها الجهدُ والوسائل، وكان في غاية المتانة والرَّصانة، في نقطة محكمة بنظر فنّ الحرب، وكان إنشاؤه على ثلاث طبّقات، ووضعت فيه المدافع اللازمة، مدافع كروب القلاعية الجسيمة في الجهتين اليمنى واليُسرى، وجُهِّزَتْ أطرافه بغيرها من المدافع.

(قوَّضَ الإيطاليون البرج، وأقاموا نُصْب الجندي المجهول، وفي فترة الاستقلال في العهد الملكي حُطِّمَ النُّصْب، وأُقيم في مكانه خزان كبير لتغذية المدينة القديمة بمياه الشّرب فعرف بخزان القبة.)

وفي تقرير لأسقف مدينة «كاتانيا» بصقليّة الّذي كان أسيراً بطرابلس يوليو 1561م، جاء فيه:

وثيقة: «في حالة إنجاز هذا التَّحصين سيتطلب الأمر قوة كبيرة للاستيلاء على المدينة»، وممَّا يُذْكر أنه كان لديه قرابة ثلاثة آلاف أسير، استخدمهم في تشييد ما هدمه الإسبان وفرسان القديس يوحنّا.»

(أُسِرَ أسقف كاتانيا حين كان في سفينة تابعة لنائب الملك الإسباني بصقلية، قبضتْ عليه مراكب درغوت باشا فقادته أسيراً، كتب تقارير عن الأوضاع الدفاعية في المدينة عرفت بـ «حديث عن أوضاع طرابلس».)

وفي عهد درغوت كان إنشاء برج «دار البارود»، وموقعه في أول مدخل باب هوارة (باب المنشية) ويطلّ على ميدان الشهداء، وكان مرتبطًا بالسور، وبه بروز إلى الأمام، ويذكر بعض المؤرخين أن «علج علي باشا» خلف درغوت باشا، وقام بإتمام دار البارود، ولا يبدو أنّه أقام بالبلدة مدة طويلة، إذْ كان بارزاً في القيادة البحرية فَأُسندت إليه قيادة

الأسطول العثماني.

(وُظّفت دار البارود سوقًا للصناعات التقليدية في الفترة الإيطالية، وهي مستغلة حاليًا لمحلات صناعات حرفية تقليدية، ومتاجر للبسط والمرقوم ومنتجات سياحية.)

وأقام درغوت باشا قصراً له من دورين، تزينة الشرفات والأروقة، وتحيط به الحدائق، وسطحه مغطى بالقرميد ما جعله منظراً جميلًا وحيداً بين بيوت الطرابلسيين، ويُذْكر أن القصر تعرض للقصف بعد وفاة درغوت، بسبب صراع على تولي شؤون البلاد بين الباشوات، أمّا موقعه فإن الأثري أوريجيمّا يعتقد أنه كان بين الكنيسة الأرذوكسية اليونانية وجامع قورجي، وحدّه من الجنوب الوسعاية، ومن الشرّق الزنقة الضيقة بالمدينة القديمة.

(ولايزال قائمًا منه جناحان تشغلهما القنصليتان الفرنسية والإنجليزية، وبناء «سراي درغوت» فوق أرض خربة آنذاك كان يقوم عليها الجامع الكبير الذي أحرقه الإسبان، هكذا ورد في الحوليات، وتُكتب قورجي بالواو، اسم أعجمي كما هو في الأصل، أمّا قرجي فهو من غير واو في الكتابة القياسية كما ينطقه الطرابلسيون.)

وأخذاً بمبدأ التسامح الديني فقد أَذِنَ درغوت باشا للأسرى المسيحيين إقامة مقبرتهم الخاصة بهم، بناء على رجاء أسقف كاتانيا، وقد ظلت الكنيسة بمكانها إلى أنْ نقلها الإيطاليون سنة 1922م، وأقاموا مكانها النُّصب التذكاري لقتلاهم في الحرب، في القبة بباب البحر، كما تقدم القول.

استقدم درغوت باشا طائفة الإنكشارية إلى طرابلس– وهم الأطفال الذين كانوا يُؤْخذون من المدن التي دخلها العثمانيون، وقد شملت ضريبة الدّم (ضريبة الغلمان): اليونانيين، والصِرب، والبلغار، وسكّان كرواتيا، وأهل المجر، والألبانيين، والأرمن...إلخ.

تربّى الإنكشاريون تربية إسلاميّة عسكرية في أحضان الّدولة العثمانية باسم «قراقول»، وأصبحت لهم أمكنة مخصّصة داخل المدن عُرِفت بِـ «أوطه لر»، وانطوَوْا تحت الطريقة البكتاشية الصّوفية نسبةً إلى «باركن بكتاش» الذي عُرِف بالورع، وتخليداً له يعتمر الإنكشاري قُلنسوة من اللّباد الأبيض تشبُّها بقلنسوة الدرويش بكتاش.

وكانوا الدّرع العسكري القوي الّذي أدّى مهمة صدّ الخطر الإفرنجيٍ عن الدِّيار الإسلامية من جهة، والعمل على امتداد النّفوذ العثماني خلال القرنين الخامس عشر

والسّادس عشر الميلاديين من جهة أُخرى، وكانوا وسيلة لحفظ الأمن والنظام بين المدينة والدّاخل، وعُرِفوا في فترات ضعف الولاة العثمانيين بالتمرّد على القوانين، والقدرة على عزل الولاة، واختيار من يريدون، ورأوا أنهم أحقّ النّاس بلقب «المرابطين» فهم حماة الثغور الإسلامية، ويُذكر أنَّ السلطان محمود الثاني (1826م) أبطل هذا اللّوجاق من الجند، وأقام العساكر المنتظمة.

ويذهب الباحث التاريخي المحقِّق عمّار محمد جحيدر إلى أنَّ المصطلح العثماني «يكي جرى» بالكاف النُّوني والجيم المثلثة في اللغة العثمانية، التي تُقرأ «يني تشري yeni ceri» قد تطور رسمه إلى الصيغة العربية «البكيجريّة» التي استعملها صاحب المنهل العذب، ثُمَّ تطورت إلى الصيغة الجديدة «الإنكشارية» في الإيالات المغربيّة.

أخضع درغوت باشا جزيرة «جربة» سنة 1559م، وضمها إلى طرابلس، وكانت تابعة لولاية تونس باسم الأمير الحفصي، وباستنجاد أهل القيروان به، من حاكمها الشّابي – نسبة إلى بلدة «الشّابّة» وهي قرية قريبة من القيروان قبالة المهدية – يُرْسِلُ درغوت جنوده الإنكشاريين إلى هناك، فتفتك بالشَّابّي، ويستخلف درغوت أحد رجاله، ويُعْلِن حاكم صفاقس وهو «المكْنِي» دخوله تحت نفوذ درغوت، وأصبحت صفاقس تابعة لحاكم طرابلس.

نَقَلَ درغوت باشا قرابة أربعين عائلة صفاقسية إلى طرابلس بقصد الإقامة بها والعيش في أحضانها لتعميرها، وهم أولئك الَّذين يتقنون المهن الحرفيّة، ويُذْكَر أنَّ الطرابلسيين فرحوا بقدومهم، وأنزلوهم في محلّ الكرامة، وأصبح المُكْنِي الأوّل من أعضاء مجلس الوالي، كما يؤرخ ابن غلبون.

وثيقة: «قال صاحب نزهة الأنظار محمود مقديش الصفاقسي « كنتُ في ساحل طرابلس سنة 1174هـ/ 1761م، فرأيتُ داراً عظيمة وحولها أطفال عليهم النعمة، فسألتُ عن الدار، فقيل: هذه دار المكني.»

(يُلْحَظ أنَّ عائلة المُكْنِي استقرت بطرابلس القديمة منذ عهد درغوت باشا (العهد العثماني الأوّل)، وأنَّ صاحب نزهة الأنظار يتحدث عن المكني في زمنه وأُشير هنا إلى معرفتي بزنقة المكني وهي غير نافذة، دخلة من زنقة زعطوط، قريبة من شارع سيدي الصفّار بالمدينة القديمة، واستمرت أسرة المكني في تولِّي المناصب والتاريخ يذكر المكني

الذي تولى حاكمية فزان أيام يوسف باشا القرمانلي.)

ومن الأحداث في عهد درغوت أن اتفقت إسبانيا وجنوة وفرسان القديس على الاستيلاء على مدن السّاحل الإفريقي وفكّها من العثمانيين، وعلى إثر ذلك التحق أسطول درغوت بالأميرال «بيالة باشا» الذي كان يحكم الحصار على مالطا بقيادة مصطفي باشا ابن اسفند يار.

وباثنتي عشرة قطعة حربية من المراكب الصغيرة اشترك درغوت بنفسه في هذا الحصار، وعند هجومه على حصن القديس الملاك أصابته شظية صخرية في رأسه أو في بطنه انفجرت من طلقة مدفع، فكانت ساعة وفاته، ولأنّه عشق طرابلس وأحبَّها، فقد أُخِذَ جثمانه إلى طرابلس حيث وُرِيَ الثرى بالمسجد الذي بناه في أيامه الأولى، وهو المعروف حالّياً بِـ: «جامع درغوت».

ومن كلماته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «اللَّهم بجاه ملايكة السماء السّبع، وبجاه ملايكة الأرض السبع، تجعل كل من حفر على طرابلس يكون مغلاقها رأسه»، هكذا ورد هذا الابتهال بنصّه باللّغة العربية في الأصل الفرنسي بكتاب شارل فيرو، والذي طبع بعد أربعين سنة من إعداده.

وثيقة: «حملت قوادس طرابلس جثمان سيدها إلى عاصمته يوم 23 يونيو 1565م، وأُقيمت له جنازة مهيبة... وقد اشتهر في جميع مواقف حياته بشجاعة خارقة، كما كانت نزاهته مضرب الأمثال... خاض طيلة حياته الحروب ضدِّ جميع الأمم النّصرانية فيما عدا الفرنسيين، وهوما لَمَّحَ إليه الشاعر الإسباني «دي سيبو لفيدا» في إحدى قصائده، ويوجد بمتحف قاعدة الدروع بمالطا «سيف عريض يُدَّعَى أنّه سيف درغوت، وهو أمر مشكوك فيه» (شارل فيرو)

(ذكر الباحث الطرابلسي يوسف خليل الخوجة في مصنفه» «كتاب درغوت، دراسة تاريخية»، أنَّ درغوت باشا وُلِدَ سنة 1485م، وحيث إنَّ وفاته مؤكَّدة سنة 1565م فيكون قد عاش 80 عامًا، وهو خلاف المذكور في الحوليات بأنه تُوفي وعمره 56 عامًا.)

ومسجد درغوت باشا بناحية باب البحر بالمدينة القديمة، وكان الإمام في ذلك الوقت يُقيم فيه، وهو الذي يعطي الأمر لبقية المساجد، ويُحدِّد الأذان (النداء للصلاة) بواسطة

علم أحمر يرفعه فوق المئذنة عند حلول الوقت، ولم يكن بالبلدة آنذاك إلاَّ مساجد قليلة منها الناقة والمشاط والخروبة والقيسي.

ومسجد درغوت باشا يتكوّن من بيت الصلاة ومساحته **438** متراً مربعًا والمصمم على شكل حرف T، والمسقوف باثنتين وثلاثين قبة، وروضة تتكوّن من حجرتين، كل واحدة مغطاة بقبة، في احداهما قبر درغوت باشا، وفي المسجد عدد من الغرف المسقوفة بقباب، ومقبرة مفتوحة، وميضأة، ومراحيض، ومئذنة أُسطوانية، وقد كانت ثمانية الشكل كما وصفتها مابل تود **1901-1905**، وبجهة من الجامع- غير مسقوفة على أحد القبور الموجودة بالتربة- مزولة (ساعة شمسية)، وأشار كتاب «المعمار الإسلامي في ليبيا- للباحث المستشرق جاسبري ميسّانا- إلى سنة بنائه وهو **1560**م.

ومن القبور بتربة الجامع: درغوت باشا (**1565**م)- محمد باشا الساقزلي (**1649**م)- الرَّيس مراد (**1832**م) وهو الشّهير في المعارك الطرابلسية الأمريكية- ومن النساء: زبيدة هانم (**1859**م) وفاطمة هانم (**1862**م) وغيرهم.

ويذكر شارل فيرو احتمالية كون جامع درغوت مُصَلَّى مسيحي، شَيَّده فرسان القديس يوحنا، وأضاف إليه درغوت مبنيين يمينًا وشَمالًا وحجرات، وهو ما جعل المستشرق «ميسّانا» يقول بأنَّ تصميمه غير مألوف في المساجد الأناضولية، ويُنبّه الباحث الطرابلسي يوسف خليل الخوجة في دراسته إلى أنَّ المستشرقين يتعمّدون أحيانا إخفاء المعلومات، ويذهب إلى وجود مسجد في هذا الموقع، قَوَّضه الإفْرِنْجة، وَبَنَوْا كنيسة مكانه.

*(بترميم الجامع سنة **1946**م عُثِرَ على أعمدة رومانية.)*

وبعد وفاة درغوت باشا بعدد من السنين بَنَى إسكندر باشا حمّامًا في الجهة الجنوبية من المسجد (**1604**م) عُرِفَ باسم حمام درغوت لمجاورته جامع درغوت، ولايزال يؤدى وظيفته، وتُعَدُّ هذه الإنشاءات أوّل مجموعة معمارية تشيّد في داخل مدينة طرابلس القديمة في العهد العثماني الأوّل كما ينص الباحث الطرابلسي البلوشي في مقالته القيّمة «نظرة على العمارة الدينية وتطورها في ليبيا».

وبعد وفاة درغوت باشا بسنين قليلة تغلّب الجند على أمر طرابلس، واضطرب أمرها، وفسد نظامها، وَكَثُرَ الهرج في الرعية، ولم يكن لواليها من قِبَلِ السّلطان تصّرف، كما عَبَّر

ابن غلبون في التَّذكار، وبدأ الضيق والاستياء يظهر عند الأهالي، وبرزت نزعة التّحرر والاستقلال.

جعفر باشا (1582-1603م):

من الولاة العثمانيين «جعفر باشا»، وُصِفَ بأنّه كان عاجزاً، ضعيف الشكيمة، مغلوباً لاتباعه وعساكره، وفي زمنه كَثُر البغي والفساد وقطع الطريق، «وأظلم الجوّ من بغي الجنود وجور العمال» بعبارة النائب الأنصاري، وفي آخر أيامه تمرد عليه العسكر، ولكنه نجا بجلده حين ثار عليه الجند وعزلوه.

(في ترتيب أحمد النائب للولاة ذكر بعد درغوت باشا: ولاية يحيى باشا ثم مصطفى باشا ثم محمد باشا، وأنبه هنا إلى أنني سأقتصر على ذكر بعض الولاة الذين كانوا لهم أثر ملموس في حياة المدينة.)

في عهد جعفر باشا كانت أحداث «يحيى السويدي» الذي سُمِّيَ أحد مساجد تاجوراء باسمه تكريمًا له، والوضع السياسي والاقتصادي الذي كان يعيشه الأهالي آنذاك هيأ لهذه الانتفاضة بتاجوراء.

(بتاجوراء قصر بناه «حُمَيْد بن جارية»، وهو أوّل من عَمَّرَ البلدة، نَقَلَ أهل منطقة «عبد رب» إليها سنة 550هـ 1155م، وهم من العرب، ينتمون إلى بني سُلَيْم.)

يذكر ابن غلبون في تذكاره قصة الرجل الذي قَدِمَ إلى تاجوراء، وكان لَسِناً فصيحاً جريئاً، فاكرموه، ولمّا رأوْا فيه القوة والجهر بالحق بايعوه على الثورة ضِدّ الوالي جعفر باشا وجنده.

(اندلاع ثورة السويدي 996هـ/ 1587-1588م)

خرج يحيى السّويدي إلى مسلاته لتكون مقراً لقواته، وليكون بعيداً عن أعين الدّولة، وتسامع به الأهالي فأتوه من كل جهة، وبايعه «حاضر الوطن وباديه» وبانضمام النّاس إليه أعلن الثورة، فخرج إليه جند الوالي، وكان اللقاء بمسلاتة، فكسر السويدي الجندَ وقتل منهم الكثير، فقويتْ نفوس الأهالي به، وصار له صِيتٌ عظيم ومهابة في قلوب أهل البلاد ودانوا له كما عبر الرّحالة المغربي التمجروتي في رحلته المعروفة باسم «النفحة المسكية في السفارة التركية» وقد أقام هذا الرَّحالة شهراً واثني عشرة يومًا في طرابلس،

وفيها لقي أبا عبدالله المكي، الفقيه العالم المتفنن المشارك، ذا السمت الحسن والوقار وحسن المعاشرة، كان أهله من صفاقس فنُقِلَ إلى طرابلس فاستوطنها وصار مفتيها، ووثيقة التمجروتي في ذمّ السويدي من أندر الوثائق عن هذه المرحلة والتي أثبتها الباحث خليفة التليسي في كتابه «حكاية مدينة»، فلتنظر هناك.

بانتصار الأهالى بزعامة السويدي على عسكر جعفر باشا، بظاهر مسلاتة توجهوا نحو تاجوراء واستخلصوها، ومن ثَمَّ إلى طرابلس حيث حاصروها لسنتين حتى قاربوا أنْ يستولوا عليها، واهتز البساط الأحمر من تحت قدمي الوالي جعفر باشا فاستنجد بالباب العالى، وبوصول المدد من الآستانة بستين سفينة مَلْأَى بالجند والعتاد، لم يقدر مناصرو السويدي على المواجهة فانهزموا، وفَرَّ السُّويدي موغلا في الصحراء، واختلف الناس عليه وانسحب الكثيرون من حلفه، وكان ذلك سبباً في القبض عليه وتسليمه إلى جند الوالي الذين نكّلوا به، فنزعوا جلده فَحُشِيَ بالتّبن، وأُرسل الي الآستانة سنة **998هـ/ 1588–1589م**.

(قَبضَ على الثائر السويدي من كان في حلفه، ويُلحظ في التاريخ أنَّ مقتل زعماء الثّوار يكون غالبًا بتنكّر أصحابهم ورفقائهم لهم فيقعون فريسةً سهلة لعدوهم.)

وصف المؤرخ الطرابلسي النائب الأنصاري جعفر باشا بأن جنوده تغلّبوا عليه، وأنَّ البلاد اضطربت في عهده ونصّ عبارته «وأظلم الجوّ من بغي الجنود وجور العمال»، وفي الوقت نفسه وصف السويدي ورفقاءه بعد تغلُّب الوالي عليهم بقوله: «وتشتَّتتْ تلك الكلاب العاوية»، ويصف المناهضين للولاة من الثُّوار بأنّهم من جُفاة الأعراب وأجلافهم وفي المنهل العذب شواهد كثيرة في مثل هذا المعنى، فالأنصاري يصف الولاة ببسط يد الجور في الناس، وفي الوقت نفسه يعنِّف مَنْ يخرج عنهم، وفي هذا يقول عن أهل تاجوراء الذين كانوا ينتفضون ضدّ ولاة الظُّلم: «عادت أهالي تاجوراء إلى حالهم من الاستبداد، ومنع الجباية، وقطع أسباب الطاعة» ويتصدَّى المؤرخ الطرابلسي الطاهر الزاوي للنائب فيقول: «ويعلم الله أنهم أسود ضارية، دافعوا عن حقوقهم وكرامتهم، وما ضرّهم إن لم يُوفَّقوا» ويتأثر الزاوي بوصف النائب للثوار بأنهم كلاب عاوية، فينبّه بأنَّ ما ذكره النائب هو إجحاف لحقّ مواطنيه وعدم إنصاف لهم، يقول: «ولا يجوز للمؤرّخ أنْ يغيّر الحقيقة، ويصف المظلوم بما يجب أنْ يُوصف به الظّالم، ويُبَرّئ الظّالم بعد أنْ وَصَفَه بجميع

الأوصاف التي تبيح الثورة عليه وخلعه من الحكم»، ويلحظ الزاوي أنَّ بعض المؤرِّخين قد يخاف من بطش الحاكم في وقته فيقول: «وخيرٌ من قلب الحقائق أنْ تترك للزّمن، أوْ تُقَيَّد في أوراق يُحتفظ بها في بطون خزائن الكتب حتَّى تتاح لها فرصة الظهور.

سليمان داي (صِفْر داي) (1603-1617م)

بايع الجند رجلاً منهم يسميه الأهالي «صفر دايي»، ومن أعماله: ترميم جامع الناقة 1610م، ونقشةٌ فوق المدخل تُخَلِّد هذا العمل، كما شيّد أوّل حمَّام تركي (معقل خاص بالأسرى) يستوعب حوالي ستمئة إلى سبعمئة أسير، عُرِف باسم «الحمام القديم»، وقد عرفه الأسرى الأوربيون باسم «دي روزاريو»، وهو المعروف بالسجن التّركي القديم، ويحتمل أن يكون موقع هذا السجن بشارع محمود، وقد بني على أنقاضه المدرسة في فترة الاحتلال الإيطالي وهي الآن مقر لجهاز إدارة المدينة القديمة.

ومصطلح «حمام» يعود إلى المعتقلات الأوربية، ونقله عنهم بحارة «سلا» المغربية وغيرهم، وفي المعجم العربي «الحِمام» -بكسر الحاء والميم المفتوحة المخفّفة- قضاء الموت وقدره، فهل لذلك علاقة بهذه التسمية؟!

بعد ثلاث سنوات من تقلّده الحكم امتنع التواجير عن دفع الضرائب، وتبعهم أهالى الرقيعات الذين نزلوا حول بلدة تاجوراء في حِلْفٍ ضد الوالي، فكان أنْ توجّه إليهم صِفْر داي وقاتلهم «ولقوة الأعراب وشجاعتهم لم يُفِدْ فيهم شيئاً»، وبانسحاب الرقيعات بعد نزاع مع التواجير على الزَّرع حيث أُتُّهم الرقيعات بتخريب مزارع التواجير بترك خيولهم وإبلهم الكثيرة ترعى بها- انقضّت العساكر الإنكشارية على تاجوراء، قتلوا ونهبوا وامتلأت أيديهم من الغنائم، وازدادت بذلك شوكة الوالي «فسكر بنشوة الحظِّ والنصر، فأجاز لنفسه كلّ أنواع الجور والظلم في سبيل إشباع مطامع أعوانه كما يسجِّل محمود ناجي التركي، وهكذا لم يجد التواجير ما يفعلونه إلاَّ رفع شكواهم إلى السلطان العثماني في الآستانة وهو «أحمد الأوّل» صاحب البخت المحظوظ، كما وُصِفَ.

قَدِمَ نائب السلطان بأسطولين مشحونين بالعساكر، وذُعيَ «صفر داي» للتباحث معه في شؤون الولاية، وبصعوده السفينة قُبِضَ عليه، ووجهت إليه الدّعوى بالإضرار بسمعة السلطان والدَّولة العليّة، فكان الأمر بإعدامه، فَشُنِق في سارية السفينة أمام الناس.

(تقول روايات إن سليمان داي خَلَفَ صِفْر داي ويرى آخرون أنّ الرجلين شخصية واحدة، ومن المراجع من تجعل شنقه في سنة 1023هـ/ 1614م كما في الزاوي وروسي.)

مصطفى شريف باشا (1617-1630م)

بايع الجند رجلًا ينحدر من أسرة ذات مكانه، أصلها من مكّة، ثم انتقلت إلى الآستانة واستوطنتها، وكان يزاول مهنة التّطبيب، وُصِفَ بأنه ذو لطافة وظرف، قام عليه الجند فأغلق القلعة واستعدّ لقتالهم، فَكَبُرَ عليهم ذلك، فاستنزلوه منها بحيلة، حيث لبس أحد الجند شبه الشّيخ «محمد الصيد اليحياوى»، وأمره أنْ ينزل من القلعة، فألقى السُلَّم ونزل، فقطَّعوه قبل أنْ يصل الأرض.

(يشير الطاهر الزاوي أن مصطفي شريف من أهل اسطنبول في حين يذهب روسي بأنه أحد أشراف قسنطينة)

وكان لشريف باشا اعتقاد في الشّيخ محمد الصيد، وقد تألم الشيخ لغدر السّلطة، وهو الذي وَعَدَ بكفالته، ويُؤرِّخ الأستاذ محمد عبد الكريم الوافي معرِّب الحوليات للشيخ فيقول: «عُرِفَ بردعه للظُّلَّام، وكان يتدخل كثيرًا للمصالحة بين السّلطة والأهالي، وكان لا يجترئ أحد على معارضته فيما أمر به، ولا يتعرض لِمَنِ انتسب إليه، تُوفي الشيخ سنة 1640م، وقد أَخَذَ طريق الصوفية عن سيدي التِلمساني (أبو مِعْزَى) الّذي أخذ عن المراكشي (سيدي أبوبكر)، هكذا ورد بنصِّه.

ويذكر الباحث التاريخي الأكاديمي الطرابلسي محمد عمر مروان في بحثه «تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر المنشور بكتاب «معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا» أنَّ القنصلية الفرنسية كانت في عهد هذا الوالي مصطفى شريف باشا، بتاريخ 1630م.

اشتكى الملك لويس الثالث عشر لدى السلطان العثماني وطلب منه عتق الفرنسيين المأسورين في طرابلس، وبوصول مبعوث الملك «بيرينجييه» إلى طرابلس تسلَّم مئة من الأسرى، ونجح في فتح قنصلية لفرنسا، وعُيِّنَ القنصل «دي مولان» **De Molan** الذي اكتسب سمعة تقديرا لأعماله التجارية، واستمرت القنصلية حتى بداية الحرب العالمية الثانية في مكانها، ثم انتقلت إلى خارج الأسوار.

والقنصلية الفرنسية بباب البحر وواجهة المبنى الرئيس في منتصف زنقة الفرنسيس،

بالقرب من قوس ماركوس، ومساحتها قرابة 950 متراً مربعًا، ومعمار المبنى مزيج من التأثيرات الإسلامية والأندلسية والأوربية، زخارف بلاطاته ونقوشها هي السائدة في جزر البحر الأبيض المتوسط، وبالمبنى حديقة، وإسطبل خيول شيد بطريقة العقود العربية الإسلامية.

والمبنى الآن موظَّف كدار للفنون باسم «دار حسن الفقيه حسن للفنون» تخليدا لذكرى المؤرِّخ الطرابلسي الذي عاش ما بين سنتي 1780و 1868.

رمضان داي (1631–1632م)

لا يتحدث التاريخ بشيء عن أيّ أثر لهذا الوالي الّذي وُصِفَ بضعف الشخصيّةَ وهو من مواليد ساقز Chio اليونانية، شمال بحر إيجة، قبالة السواحل التركية وهي من جزر البحر الأبيض المتوسّط، ومن أخباره أنّه تزوّج فتاة بدوية وهي «مريم بنت فوّاز الشِّبلية»، نالت الحظ الأوفر، ولأنها كانت قوية الشخصيّة وذات كلمة نافذة، فقد أخذت في التوسّط بين الجُند والأهالي إذا ساء الحال بينهما، ومن قوّتها كان الديوان يأتيها إلى بيتها، وشؤون الإيالة بمشورتها، فاستخف به الإعراب وتهاونت به الجنود فصارت الضواحي مأوى للصوص وقطاع الطرق.

وثيقة: «بقيت الولاية أسيرة تحت براثن تغلبها وتحكمها، ولمَّا أحسَّ «رمضان داي» بأنه لا يستطيع بسهولة تبديل كأس سفاهته بسيف السياسة اضطرّ إلى ترك زمام الحكومة لصهره محمد باشا الساقزلي» (محمود ناجي).

محمّد باشا السّاقزلي: (1632-1649م)

رأى محمد باشا السّاقزلي ضعف صهره «رمضان» وخوره وتحكّم امرأته في أموره، فراوده على تسليم الأمر إليه، ولأنه كان ثقته، فقد أجاب طلبه فتمت البيعة للسّاقزلي.

والساقزلي من أبوين يونانيين مسيحيين، أسلم ودخل في جُند الوالي رمضان داي وصاهره، فأصبح من رعايا الدّولة العثمانية، وهو من المغامرين الكبار، كانت له مواهب فاكتسب شهرة بين قراصنة البحر مكنته من الظفر، وجعلته يرتقي سلم المجد والظهور.

تولّى إيالة طرابلس وهو شاب لا يتعدّي عمره الرابعة والعشرين، وقد مكث في كرسي العرش سبعة عشر عاماً بفضل أحد قواده الكبار الذي اتّسم بالحدّة والصّرامة والعنف،

واستطاع محمد باشا الساقزلي أنْ يقضي على سيطرة الإنكشاريين بذكائه وحنكته، وقد وُصِفَ بأنه من ذوي اللياقة، ومن أعماله أنّه نَظَّم عساكر الفرسان، وقام بإصلاحات، واتّسم عهده بالظلم والجور والتضييق على النّاس.

أراد محمد باشا السّاقزلي في بدء ولايته التّخلّص من «مريم الشِّبلية» الّتي كانت ذات نفوذ قوي في عهد سلفه، فغدر بزوجها، ثُمَّ خطبها لأحد علوجه، وَهيَّأَ لها بيتًا بالقلعة، فلمّا استقرّت به أَمَرَ بِجَزِّ عنقها، وأجهز على صهره رمضان داي بإعطائه دواء مخلوطًا بالسُّمِ.

رخّص الساقزلي للطائفة الأرثوذكسية ببناء كنيستهم التي عُرِفت بكنيسة القديس جورج، تابعة لبطريق الإسكندرية الذي أوفد قسيساً يونانياً للعناية بها، وكان الأسرى والصُّنّاع والتّجار اليونانيون يقومون بتوفير مخصصاته، وقد ظلت هذه الكنيسة أكثر من خمسين عاماً تؤدي وظيفتها، وفي ولاية إبراهيم داي (1675م) أعطى الأمر بتدميرها، ردًّا على سوء معاملة الأسرى المسلمين في البلاد، المسيحية، وهكذا ظل اليونانيّون بلا كنسية، ثم سُمِحَ لهم بالعودة إليها.

وكانت كنيسة السيدة مريم الكاثوليكية موجودة آنذاك، إذْ شُيِّدت سنة 1615م، في عهد صِفر داي، وتوسعت في فترة محمد باشا الساقزلي، والشكل الحالي للكنيسة يرجع إلى العهد العثماني الثاني، وموقعها بساحة النّصارى، وسعاية السيدة مريم بمحلة باب البحر.

اشتدّ محمد باشا الساقزلي في جباية الضّرائب لتغطية مصروفات الولاية، وتطوير الأسطول الحربي، فزاد عشرة في المئة على بيع الرقيق، فقام جنود البحرية بتمرّد ضده لم يفلح، وأجرى كذلك بباب المدينة مَكْساً على دخول البضائع وخروجها، وقضى على كلّ نخلة بيضة واحدة في العام، ثم استبدل ذلك بعشرين بارة تركية، وأَمَرَ بـ: «وظيف القضاء» وهو إذا مات الميّت وجب على الورثة دفع سدس ميراثه للولاية، وفي هذا يقول الطاهر الزاوي: «وهو ظلم وجور لم يَقُلْ به فقيه مسلم».

وقد أولى هذا الوالي عناية فائقة للأسطول، فقد رُوِيَ أنَّ البحرية الطرابلسية أسرت خبيراً في صناعة السفن وهو «بيبربلنج»، فَطُلِبَ منه الإشراف على بناء مركبين نظير إطلاق سراحه، وبأسر خبير آخر بروفنسالي هو «باترون أُوجر» طُلِبَ منه الإشراف

على بناء أربع سفن، وبإنجازها كوفئ باطلاق سراحه من دون فدية، وأُعطيتْ له هدية ثمينة، وقد ترك الخبيران بطرابلس تلاميذ حملوا أعباء هذه الصّناعة.

وفي عهده تَصَدَّى الأسطول الطرابلسي للسفن الإيطالية والإنجليزية والهولندية، واستولى على جزيرة «كورسيكا» الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، واستطاع قطع المواصلات البحرية بين البندقية الإيطالية وكريت الجزيرة اليونانية، وارتفع دخل الولاية إلى ثمانين ألف دوكاتو، وكان تحت تصرفه **1400** إنكشاري.

من إنشاءاته الحمام الجديد وهو السجن الثاني في العهد العثماني الأول، وموقعه عند سوق المشير، بالقرب من باب هوارة (المنشية)، أُلحق جزء صغير منه بمقبرة أحمد باشا القرمانلي، وألحق الجزء الأكبر بسوق الرباع القديم، وهو بسعة **450** فراشاً، وقد عُرِف لدى الأسرى باسم «حمام «القديس «أنطوان أنطونيو» اسم رحبة بالقلعة، كان يَطلُّ عليها هذا السجن، وكانت له إضافات، وُصِفَ بأنه طويل وضيق، ذو غرفات صغيرة، تستوعب الغرفة الواحدة ستة إلى سبعة أفراد.

وأخضع هذا الوالي ثورات الأهالى الّتي قامت ضِدَّه، وكان ساعده الأيمن قائد جيوشه «عثمان الساقزلي»، وتذكر المراجع التاريخية ثلاث مواقع كبرى: في أوجلة، وتاورغاء، وفَزَّان، وهي مذكورة في كتب التاريخ بتفاصيلها الدقيقة، وليست من غرضنا هنا في هذا المصنف المخصّص لمدينة طرابلس، حرسها الله وأمنها من غوائل الأحداث، وزاد في رخائها.

وبدت نهاية محمد باشا الساقزلي حزينة بِسُمٍّ سُحق له ووضع في تفاحة، أعطاه إياها طبيب إفرنجي كان أسيراً عنده، فلمّا أكل التفاحة وسرى السّم فيه، لم يُسْمَع منه سوى «أُوغلو أُولدم»، أي: «يا ولدي مُتُّ»، وكان ذلك في شهر ذي القعدة، ليلة الجمعة، لليلتين خلتا منه سنة **1649**م وهو في الثانية والأربعين من العمر.

مات محمد باشا الساقزلي وَوُري جثمانه بجوار تربة درغوت باشا، وبني عليه بناية، ووقف عليه أوقافاً، وغُرِسَ في التُّربة غرسة كَرَم، هكذا حَدَّث التاريخ.

عثمان باشا الساقزلي (1649-1672م)

بايعت القلعة عثمان، فأقبلت الرعية للبيعة أفواجاً أفواجاً احتفالاً بجلوسه على كرسي

العرش الذي دام ثلاثة وعشرين عاماً، ففرض عشر ريالات لكلّ عسكري في بداية حكمه ابتهاجًا وترضيةً، وليكونوا في خدمته وطاعته.

(هكذا هم الحكّام في كلّ عهد، يشترون النّاس بأموال النّاس، فيغدو الناس عبيداً لهم.)

وُصِفَتْ مساكن عثمان الساقزلي وسلفه بأنها كانت جميلة رحبة، ذات شرفات مقامة على أعمدة رخامية، تتميّز الغرف بضيقها وطولها، زخرفت بعض أسقفها بالألوان الذهبية والزرقاء، كما فُرشت أرضيّتها بالزّليج المشكل الألوان، وعلى أحد جانبيها تقوم السِّدة التي تشبه خشبة المسرح، وهي مساكن مغلقة لا يطل منها بالخارج سوى نوافذ قليلة، أمّا الفناء الداخلي فقد أُعدّ بطريقة تضمن راحة النساء، وفيها مساطب ترتفع قليلا عن البلاط، كما وصف ذلك «برنيا»، وفي البيوت الكبيرة غرف أو عليّات للاستقبال.

وثيقة: «أحاط نفسه بشلّة من الأعلاج ذوي الأصل النصّراني، معتقدًا بأنه قادر على الاحتفاظ بالسلطة بإيثاره لأُناس ترتبط بمصالحه (شارل فيرو)

ويتحدث المؤرخون عن قصر الأعمدة الذي بناه- للترفيه- من غنائم غزواته الداخلية، وكان من أجمل القصور لترفيه، فاحتذاه كثير من الأكابر وعلية القوم، وموقعه كما يذهب الأثرى أوريجيما أنّه كان في الأرض الملاصقة لمدرسته، بين الوسعاية وزنقة الخمري وشارع درغوت، ولم يعُد للقصر أثر الآن، والطابع المعماري الذي حدث أيام عثمان باشا أقوى من أيّ طابع خلفه أيٌّ من الولاة والدايات الذين سبقوه أو جاؤوا بعده.

من أعمال عثمان باشا بناء المدرسة الكائنة بباب البحر بالمدينة القديمة المعروفة الآن باسم «مدرسة عثمان باشا»، ويرجع تأسيسها الى سنة **1654**م، وتحتوي على خَلْوَات، وبها مسجد صغير مسقوف بقبة، وبها كذلك روضة المؤسس ومقبرة مفتوحة، ومن أشهر مشائخها الذين عرفتُهم في زمني فضيلة الشيخ عمر الجنزروي من علماء طرابلس، كفيف البصر، كنتُ أقرأُ له المصنفات من حين إلى آخر وأنا تلميذ بالمرحلة الثانوية، وهو يُصحِّح لي أخطائي النحويّة، وهي الآن مدرسة قرآنية لأهل القرآن الكريم، وقد أزيلت الروضة والمقبرة بعد **17** فبراير من عام **2011**م.

(الخَلْوَة: مكان للانفراد.)

وثيقـة: «وكان الـولاة والحُكَّام يسـلبون النّـاس أموالهـم ظلمًـا، ويبنـون بهـا الجوامـع والمدارس ليخلّد اسمهم، ومثلهم في ذلك مثل التي كانت تَزْنِي لتتصدَّق، وليتها لم تَزْنِ ولم تتصـدق!!! (الطاهـر الزاوي)

(وهو ما يُشَاهَدُ في كلِّ العصور والأزمان باستثناء القلّة، والقليل النادر لا حُكْم له!!)

وفي عهـده بُـنِيَ الحمـام الكبير، وهـو الحمـام الثالـث للأسـرى في العهـد العثمـاني الأول (1664م)، في وسعاية النصارى، وقـد عُرِف لـدى الأسـرى النصـارى باسـم «حمـام سـان ميكيلي»، ولا يزال هـذا البناء قائما، وبه كنيسـة قديمة للجالية اليونانية، وهـو المعروف بالسـجن الإسباني لأنّ جزءًا منه سكنه القنصل الإسباني، وقوع واجهته الغربية على زنقة الإسـبانيول، ويبلـغ أربعًـا وأربعين خطـوة طـولًا، وخمـس خطـوات عرضًـا، وقـد اسـتعملت قاعـات منـه كمستشـفى خـاص بالأسـرى الـذي يرعاهـم أطبـاء، وكانـت لهـم حصـص يوميـة من اللحم، وتُصرف لهم الأدوية من صيدلية القلعة، ويتكون هـذا السـجن من 96 زنزانة تستوعب قرابة 672 أسيراً، وكان أسلوب معاملة الإفرنجة بطرابلس يتأثر بمعاملة الأسـرى الطرابلسيين في سـجون ليفورنـو ومالطـا.

ومن منشآت هـذا الوالي: الفندق الكبير (فندق الباشـا) بسوق التُّرك، وهـو من أقـدم الفنـادق وأضخمهـا، وكان بـه أكثر من مئـة غرفـة. استعمل هـذا الفنـدق مبيتـاً للعسـاكر العثمانيين، ثم مبيتاً للتُّجّـار والعزّاب، وفي العهـد الإيطـالي تحوّل إلى مسـرح البوليتامي، ثُمَّ إلى سينما عُرِفت باسـم «سينما النَّصـر» والتي ترددتُ عليهـا في صبـاي، كمـا أنَّ عـروض خيـال الظِّـل (القراقـوز) لا تـزال ماثلـة أمـام عينيَّ في هـذا الموقـع كلمـا مررتُ بجـواره، وقـد عُرِف الفنـان عميّ «الوسـطى» في السِّـتّينات بهـذا الفـن.

وفي أيام عثمـان باشـا شُـيد سـوق الربـاع القـديم، وتتسـاءل عـن الاسـم ومـا يعنيـه، فتكتشـف أنّ الرَّبـع لغة الموضـع الـذي يُنْزَل فيـه زمن الرّبيع، وهـو مـا جعل العربي الأوّل يطلقه على الـدار والحي وتعرف أن بجانب هـذا السـوق دوراً مخصصـة لسـكن العـزاب في ذلـك الوقـت.

وسوق الرّباع القديم- كما في دراسة الباحثة الطرابلسية مفيدة محمد جبران- مسقوف ذو رواقين، أحدهمـا مسـتقيم، والآخـر متعامـد، وبينهمـا منفـذ مشـترك، فالـرواق المتعامـد مغطًّى بسقف قبوى نصف أُسطواني، به 13 عمودًا، سبعة أعمدة داخل الحوائط لتدعيم

السقف، وهى أعمدة حفصية الطراز، أمَّا الرواق المستقيم فهو المعروف بسوق القويعة، مغطًى بقبو نصف أُسطواني، والحفصيون أساتذة في الفنّ المعماري، دانت لهم طرابلس في القرن الأول، وكان السوق قديما يُعرف بمنتجات إفريقيا السوداء من: ريش نعام، وجلود ونحو ذلك، والآن للبدل العربية والقمايج النسائية وغير ذلك.

والقويعة- لغةً- تصغير لفظة «قاعة»، وهي الأرض المستوية التي تحيط بها الجبال والآكام، تنْصَبُّ إليها مياه الأمطار، فتمسكها، ثُمَّ تُنْبِتُ العُشْب، ويبدو أنَّ السوق اشتهر بهذا الاسم نسبةً إلى منطقة «القويعة»، شرقي طرابلس بنحو خمسين كيلومتراً، والتي ينطبق عليها اللَّفظ من حيث جغرافيتها، ولعلّ بعض سكّانها كانوا تُجاراً بهذه السّوق في أوّل إنشائها، أو غير ذلك، ممّا قد يكتشفه الباحثون الدَّارسون.

(حسب رواية الحاج محمد بهجت القرمانلي أحد أعيان طرابلس شغل منصب مدير دار المحفوظات التاريخية ومراقب آثار طرابلس في خمسينات وستينات القرن العشرين- أن السوق نسب إلى أحد التجار لقبه قويعة)

وسوق الرَّباع القديم شيّده عثمان باشا الساقزلي، أمّا سوق اللّفة (الرَّباع الجديد) فَيُظَنّ أنَّ بناءه يعود إلى أحمد باشا القرمانلي، وسُمِّيَ لدى الناس بسوق اللّفة نسبةً إلى المواد الصّوفية الملفوفة.

شَيَّد عثمان باشا القلاع والحصون، وأَعدّ أسطولاً لم يَضِعْ منه شيء مدة ولايته وأوصل الأسطول إلى أربع وعشرين قطعة، فخشيت الدّول الأوروبّية سطوته، وكانت حكومته قوية ذات مركز مُهاب في الداخل والخارج، وقد رُوِيَ عنه أنّه كان مؤيَّداً بالنَّصر والظَّفر، ما توجَّه لناحية إلاَّ ظَفَرَ، هكذا سجلت الوثائق.

وفي عهده حدث صدام بحري بين قطع من الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال «بليك» **Blaka** وقطع من البحرية الطرابلسية (**1655**م)، وقد تمكنت الأخيرة من أسر السفينة «جورج» ورُبَّانها «وليام رايت»، وعلى أثرها تصل ثمان سفن إنجليزية بقيادة ستوكس **Toakkes** الذي عقد اتفاقية صلح وسلام وهكذا تأسست أوّل قنصلية إنجليزية بطرابلس **1658**م، وعُيِّن لها «صامويل توكر» **Toker** الذي استمر قنصلا عامًّا لإنجلترا حتَّى عام **1667**م.

واشترك عثمان باشا الساقزلي في الحملة على ميناء «كانديا» في منتصف السّاحل الشّمالي لجزيرة كريت، على البحر الأبيض المتوسط (**1667م**)، وقد أرسلتْ طرابلس ستَّ سفن تمكّنت في طريقها من الاستيلاء على سفينة نصرانية، وشارك الأسطول الطرابلسي الصغير في الحصار وأثبتَ جدارته.

وقد أتاحت هذه المشاركات أنْ أصبحت البحرية الطرابلسية أخطر وأكثر إرعابًا، فقد كانت السّفن الطرابلسية الكبيرة تحمل قرابة أربعين مدفعًا، وثلاثمئة جندي، وقرابة خمسين عبداً يعملون كنجارين وفنيين، وبهذا كله استولت طرابلس على قرابة **104** من السّفن الأوربيّة، بينها **43** سفينة فرنسية ما بين سنتي **1668** و**1678**م، وكانت القرصنة جزءاً من المشهد.

وثيقة: «والواقع أنَّ الأوربيين كانوا يشجعون القراصنة باستعدادهم لشراء مغانمهم، وبإمدادهم بالمواد الإستراتيجية الحربيّة.» (جون رايت)

وثيقة: «ينظر الغربيّون للأعمال البحرية الإسلامية في ذلك الوقت على أنها قرصنة، وينسون أنّ القوى الإسلامية كانت في حرب مع القوى المسيحية، وأنَّ تلك القرصنة كانت أيضاً معاملة بالمثل لما يقوم به القراصنة الأوربيّون في ذلك الوقت، بل إنَّ أعمال القرصنة المسيحية كانت أكثر ضرراً بالتجارة البحرية الإسلامية.» (عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازورى في تعليقهما على مسألة القرصنة في كتاب «تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور لجون رايت).

وهذه الحرب غير المعلنة لم تؤثر في العلاقات التجارية، فقد كانت السفن الفرنسية تجلب المحاصيل والخمور والورق، وكانت البندقية تصدر الحرير والدمقس والزجاج والكبريت والحديد والبرونز والنحاس، والسفن الإنجليزية والهولندية تجلب الحبال والرصاص والمصنوعات المختلفة الأشكال، أمّا الصادرات الطرابلسية فقد كانت من الصوف والجلود والشمع والملح والعاج، كما عرفت طرابلس إعادة تصدير البضائع الأوربية إلى «بورنو» التي تحتاج القوافل إلى ثلاثة أشهر للوصول إليها، وفي العودة تجلب معها الذهب والعقاقير الثمينة وكانت طرابلس سوقاً رائجة للعبيد، من الإفريقيين والأوربيين ومعظمهم من الإيطاليين، وكانوا يُحرَّرون عند اعتناقهم الإسلام، «بل أصبح كثير منهم ضباطاً كباراً في الدولة»، بعبارة «جون رايت».

كان عثمان باشا ذا حزم، فارساً داهية، مسك زمام الأمور بسطوة واقتدار إداري، اشتهر خبره في مشارق الأرض ومغاربها، شديد في مغازيه وأحواله، غَنِمَ من الإفرنجة سفناً وأموالاً وبضائع، وبقوة شخصيته ومعرفته بأوضاع البلاد وحرصه الشديد تربّع في سُدَّة الحكم سنوات طوال، ويُحْكَى عن حرصه وعدم ثقته بالآخرين أنّه كان إذا ورد عليه كتاب قرأه بنفسه ثُمَّ وضعه في جيبه، وإذا أمر بكتاب كُتِبَ ثُمَّ عُرِضَ عليه، قرأه بنفسه ليتأكد ألاَّ زيادة فيه.

تَتَبَّعَ التّاريخ قبائحه المزرية– بعد أن تمكَّن واشتدّ ظلمه– ومن ذلك: أَنّه حَجَرَ على النّاس شراء السّلع المهمة القادمة من البحر، وأقام عليها عاملاً لشرائها وبيعها بالثمن الّذي يريده لأهل السّوق، وكان إذا غنمت سُفنه غنيمة وبها بضائع باعها للأهالي بأرفع الأثمان، على وجه الغصب والإكراه في الشِّراء والبيع بالغلاء، بعبارة أحمد النائب الذي استشهد بقول الرسول الأعظم: «ما عدل والٍ اتَّجرَ في رعيته، وبقول الحكماء: « كيمياء الملوك العمارة، ولا تَحْسُنُ بهم التجارة.»

ومن شناعاته أنْ منع التّجارَ القاصدين أرض فَزّان من التّجارة في النحاس والخرز والكاغد (الورق)، ونادى ألاَّ يتجر بذلك أحد غيره، وممّا ذكر أن بالقلعة غرفة مودعة فيها الخزينة وكانت في رعايته، ويحكى أنّه كان لا يدخلها إلّا ليلا ومعه أحد مساعديه من الذين كان يثق بهم.

وثيقة: «ومن عظيم ظلمه الفاحش أنّه إذا با ع أحد الشركاء عقاراً ولو جزءاً لا يتجزأ أغرم البائع وغير البائع مَكْس العقار كلّه، مِمَّنْ با ع ومَنْ لم يَبِعْ»(ابن غلبون)

(يُنْظَر ما فعله عثمان باشا الساقزلي مع أهل أوجله، ومع جبر بن موسى التاورغي وأطفاله في عهد سلفه محمد باشا الساقزلي، وكل ذلك سجله التّاريخ)

ويسجل المؤرّخون أنه كان محبّاً للمال، جمّاعاً له بكلِّ وجه أمكن، طمّاعاً غشوشاً غدّاراً، لا يفي بعهد، منهمكاً في مشاركة النّاس أموالهم إلى درجة توقفت بأسبابها جميع الإصلاحات.

احتكر التِّجارة والأموال لنفسه ولأفراد عائلته، وأوغر صدور جنوده بقلّة عطاياه من الغنائم، «فسعى على حتفه بظلفه» بعبارة أحد المؤرخين، ومِمّا ذُكِرَ أيضاً أنّ بعض جنده استولوا على أربع سفن تجارية محمّلة بالبضائع، فلما وصلت مرفأ طرابلس استخلص

أغلبها لنفسه واستأثر بها ذلك الأسد المغرور، وكان من أثر ذلك أنْ أجمع العسكر على قلع بيعته، فحاصروه في القلعة ما أدى إلى بقاء المدينة ثمانية أيام مسدودة ومحصورة، ورموه بالمدافع من حصن المنارة المنيع الذي يسيطر على المدينة والقلعة، بموقعه ومدافعه.

ولمّا ضاق بعثمان الحال وعرف أن خصومه سينقضّون عليه شَرِبَ السُّمَّ فمات في حينه، غير «مأسوف عليه» بعبارة أحد الباحثين، وكان ذلك في ثلاثين من شهر نوفمبر 1672، والباشا في الثانية والسبعين من عمره.

وفي المدرسة الّتي أمر ببنائها رُفاتُه في حجرة مربعة الشكل مسقوفة بقبّة، وقد ترك بعض الأوقاف، ولم يعد للمقبرة والضريح وجود الآن، إذْ بُلِّطت الأرضية بعد السابع عشر من فبراير 2011،.

الفترة الزمنية: (1672-1887م)

وبعد وفاة عثمان باشا الساقزلي توالى الدّايات على حكم طرابلس، وشهدت البلاد ضعفًا عامًا إذْ قام الأسطول الإنجليزي بإمرة الأميرال ناربورغ **Sir John Narborg** عام 1675م بالإغارة على ميناء طرابلس، حاصر المدينة وضرب تحصيناتها، وحرق جزءًا من أسطولها البحري، وأطلق أسراه.

وفي العام 1682 حاصر الأسطول الإسباني طرابلس لإجبار الداي والديوان لقبول شروطه: فتح قنصلية، وحرية التنقل للرعايا الإسبان، والسماح بإنشاء محكمة داخل القنصلية لمن يقترف جرما من الإسبان.

وفي عام 1685م قام الأميرال «دى استري» (**Estress**) الفرنسي بنصب بطاريات مدافعه في الصخرة البحرية، وبتدافع القنابل على البلدة رضخ الوالي، فأطلق الأسرى الفرنسيين الذين غنمتهم البحرية الطرابلسية.

(عرفت الصخرة البحرية عند الناس بصخرة الفرنسيس بداية (بسبب تلك الحادثة)، وفي عهد أحمد باشا القرمانلي أصبح برجًا وعُرِف بـ «برج أبوليلة»، وسيأتي ذكره.)

محمد باشا الإمام (شائب العين) (1688-1701م)

كان شائب العين متديناً، ذا أخلاق حسنة، وفى الرّواية الشّفهية للأهالي أنّه لُقِّبَ بـ: «الشيء بالعين» إذ كان يرى الكعبة وهو يُصَلِّي، وهذا– عندنا– من قبيل المبالغة

والتَّضخيم عند العوام، وهو معروف في تاريخ الشعوب، وقد حُرِّفت الكلمة إلى «شائب العين»، وقيل إنّه عُرِف بذلك لوجود شعرات بيض في رموش إحدى عينيه وهو الأَوْلى الأخذ به.

وثيقة: «كان خيِّراً، تقيًّا، نزيه النفس، واسع الصدر، حسن اللقاء، ذا رأي وحزم ورَوِيّة، وله مشاركة علمية، مؤثراً الإنصاف، متجانفًا عن العنف، شديداً عن العمال، رادعًا لعدوانهم.» (النائب الأنصاري)

وفي التَّذكار: كان شائب العين كثير التوقير للعلماء، يطرق بيته جليل الناس وحقيرهم، لم يتأنف في مأكل ولا فرش ولا بناء، يؤُمُّ الناس إنْ غاب من عيّنه للإمامة بالقلعة.

أولى شائب العين اهتماماً بالعُمران، وعُنِيَ بالأسطول، وكان ذا شخصية قوية، عُرِف بسيرته الحسنة، وبحنكته ودهائه، والذي ضمن له فترة من الهدوء. لم يأبه لقوة الأساطيل الأوربية، حيث كان رجالات الأسطول الطرابلسي على قدر كبير من الشجاعة والجرأة.

نقض شائب العين العهد الذي أبرمه الإزميرلي مع حكومة إسبانيا، فأرسلت إليه خمس عشرة سفينة حربيّة للمقاتلة، وكان وصولها في 29 من شهر رمضان 1691م، وطلبوا إمَّا الدخول في الحرب، وإمَّا تجديد المعاهدة الموقعة سابقًا، وكشفت الحرب عن ساقها وحمى الوطيس، وأرغمت الريح القوية السفن الإسبانية على الانسحاب «وانقلب أصحاب الأساطيل مهيضى الجناح مفلولي الحد، عفوًا باليأس، وانقشع الجو وأضاء الأفق» بعبارة صاحب المنهل العذب، وكان بعد ذلك أن أُسِرَ أسطول خليل بك صهر شائب العين، فكان إبرام صلح بين طرابلس وإسبانيا، وفيه فداء كل مسلم بنصراني، ومن زاد عنده أسير ففداؤه مئة وخمسون ريالًا.

وقطع شائب العين العلاقات مع فرنسا سنة 1692م، وعلى إثرها غزا الأسطول الفرنسي الدِّيار الطرابلسية، قُصِفت المدينة عدّة أيام واشتعلت فيها الحرائق، ولم يرضخ شائب العين لشروط الفرنسيين، وظهرت شجاعته وحزمه بطوافه على الأبراج بنفسه وكان يَعِدُ الرُّماة بالعطاء الكثير، وانتهى الغزو بانسحاب الإفرنجة، فَحَمِدَ أعيان البلدة لشائب العين ذلك الموقف.

وتشير الوثائق التاريخية إلى أنّ القنصل الفرنسي «لامبير» استغلّ الوضع، فقام بإرسال عدد كبير من الأعمدة والقطع الرخامية الأثرية إلى فرنسا في زمن الملك لويس الرابع

عشر، وكان يلقّب بالملك الشمس لاهتمامه بالأدب والفن، ستين عمودًا الموجودة في الهيكل الأكبر لكنيسة «سان جرمان دي بري»، وكان ذلك طبقا لبند من المعاهدة الطرابلسية الفرنسية المبرمة سنة 1693م.

توالت النكبات على المدن الأثرية، ففي المنطقة الشرّقية (قورينا) نُهِبَ تمثال باتوس سنة 1861م، وتمثال فينوس سنة 1913م الذي أُسْتُرْجع 2008م، وتُسْرَق تيجان أعمدة، وقطع أثرية، وخمسة رؤوس من بينها الحسناوات الثلاث سنة 1990م.

ومن حَزْمِ شائب العين أنّه في سنة 1690م، غنمت خمسة مراكب طرابلسية مركبًا أوربيًّا، فحاز أصحابها ما غنموه منها لأنفسهم، فلمّا عَلِمَ بذاك نصب لهم المشانق!

وفي يوم الأربعاء لأحد عشر من ذي الحجّة من سنة 1701م، قام عليه الجُند وخلعوه، فاضطرّ إلى إجابتهم، وفتح لهم باب القلعة، وتنازل عن الحكم واكتفى معارضوه بتوقيفه من دون إلحاق أذًى به، وذهب إلى الآستانة وبقي هناك إلى أن تولى صهره «خليل بك قاردغلي» فجاء به إلى طرابلس هو وأهله في أول المحرم 1704م، وبقي بها إلى أن مات، ومدفنه بتربة جامعه.

من مخلفات شائب العين مجموعته المعمارية (1698–1699م)، التي شيدت على يد ثقته «مصطفى قارابطاق التونسي»، وتمتاز بالكبر وتعدد مكوناتها، وفي إشارة للآنسة توللي تقول: «له باب هو في غاية الغرابة من حيث صناعة الحفر على الخشب عند المغاربة، وقد توقفنا لنتفرج عليه»، ووصف الباحثون هذا الجامع: «بيت الصلاة محاط على مستوى الدور الأول بثلاث شرفات من ثلاثة جهات، وهو من التجديدات كما يذكر الباحث غاسبري ميسّانا في «المعمار الإسلامي في ليبيا»، تعريب الأستاذ علي الصادق حُسنين.

ويوجد أكثر من صحن، أمَّا الزخرفة الرائعة غير المسبوقة فَتُشَاهَد في المداخل الثمانية التي تربط هذه المجموعة بالمحيط وبالصحنين، وتتمثل في الوريدات والزهرات الحجرية البارزة في صنجات المداخل، كما شكّلت مئذنة الجامع المثمّنة الشكل تطوراً جديداً، وطرازاً معمارياًّ لم يُستخدم في الفترة العثمانية قبل تأسيس هذا الجامع... وتكرّر استخدامها فيما بعد، في جوامع أُخرى (أحمد باشا – مصطفى قورجي – المغاربة بطرابلس) كما يورد الباحث البلوشي.

وتصف موسوعة الآثار الإسلامية من إعداد الباحث مسعود رمضان شقلوف وآخرين مبني الجامع: «مربع الشكل (19X19) وأضيف إليه مبنيان جديدان، وللجامع عدة مداخل خارجية وضريح المؤسس وأفراد عائلته في حجرة مغطاة بقبة مثمنة، والمحراب تجويف داخل القبة مزخرف، والمنبر على يسار المحراب من الرخام، تعلوه قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة صغيرة.»

(كنت أتردد على هذا الجامع أقرأ القرآن الكريم جماعة، صحبة الشيخ رمضان المهلهل ومجموعة من الطلبة منهم الشيخ عبداللطيف المهلهل من ذوي العلم في المجتمع الطرابلسي، وقد عرفت أعمدة هذا الجامع علماء طرابلس الذين كانوا شعلة نور، يستضيء بها عامة النّاس.)

ومن مخلفات شائب العين سوق التُّرك، والتسمية لمشابهته لمثيله من الأسواق المكشوفة في تركيا، وسوق الترك على شكل رواق طويل، يمر أمام جامع شائب العين، وهو شارع واسع، ويبدأ من المدخل المطلّ على ميدان برج الساعة، وقد وصفه الرَّحالة.

(يشير روسي أنه جدد سوق الترك وسوق الحرير)

وثيقة: «يُغطِّي الشارع سقف خشبي تفرشه أوراق الكرم، تتخلَّلها أشعة الشمس... وكثير من واجهات المتاجر طُلِيَتْ باللون الأزرق» (فرانشيسكو كورو)

وثيقة: «إنّه أنظف هذه الشوارع وأكثرها ترفًا، وأهميته حيث يقوم التُّجار العرب والأتراك ببيع بضائعهم أو الدعاية لها، كما لا يقبلون بالمساومة أو تخفيض الأثمان، لا يُبالون بالبيع أو الشراء» (نختيجال)

وقد ذكرت الآنسة توللي هذا السّوق وعرّفته بـ»بازار البن»، وسيأتي وصفها له في فصل الرَّحالة والمؤرخين.

الدّرغتلي- الغليبولي

بايع الجند «عثمان الدرغوتلي» المعروف بـ: «القهوجي» إذْ كان يطبخ القهوة بسوق التّرك، رفض أنْ يشاركه أحد في الحكم، فنَفَى شائب العين وقائد جنده «خليل بك» وأجلاهما إلى الآستانة، وعُرف القهوجي بفضاضته وغلظة طبعه، فلم يلْقَ القبول فثار عليه الجند وعزلوه بعد ثلاثة أشْهر وخمسة وعشرين يومًا، واختار الإنكشارية «مصطفى

الغليبولي» (الكيلبوليلى)، واستقرّ على تخت المُلك أحد عشر شهرًا.

وثيقـة: « كان سيء الخلق، شديد الوطأة، فبسط في الناس يد الجور، وسامهم الخسف، واضطربت في أيامه المسكوكات، واشتد على الناس عنفه.» (النائب الأنصاري)

خليل بك - الخوجة (الجنّ) - أبو أُمِّيس

أعطت الآستانة الأمر لخليل بك قازداغلي، فانطلق بأسطوله وحطَّ في منطقة «زَعْفران» جنوب شرقي مصراتة، ثم توجّه إلى طرابلس الّتي دخلها، فقبض على « الغليبولي « وأرسله إلى تاورغاء وهناك أُعدم على مشهد من الملأ، وصفا الجو لخليل بك (1114هـ/ 1702م).

وكان خليل بك يلبس في أيام الأعياد الثياب العربية الموشاة بالفضة، وهو أول من اتخذ الحجاب من ملوك طرابلس كما يصفه ابن غلبون، والجامع بمنطقة الظهرة من آثاره، ومن أعماله إنشاؤه مصنعاً لسكّ النقود (ضربخانة للمسكوكات)، وإصلاح التّرسانة، وفي عهده (1704م) كانت الحرب بينه وبين إبراهيم بك الشريف والي تونس، وقد تحدثنا عن ذلك في مبحث «اليهود في طرابلس».

وثيقـة: «وهو أوّل من لبس الحرير والذّهب، وتأنق في المأكل والملبس، ولم يكن لملوك طرابلس الذين قبله اعتناء بمثل هذا ... وكان خليل جبّارًا ذا نخوة، وفيًّا بالعهد، لم تثبتْ عنه فلتة بخيانة قَطْ، قوى العزم، محبًّا لأهل العلم، يُكرمهم ويُعظمهم... غير أنه كان «مَرْوانيًّا» في إرخاء عنان عبيده، وظُلْم حاشيته... وما درى أنَّ الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (ابن غلبون)

(الإشارة إلى «مراون الثاني» في قوله (كان مراوانيًا) وهو آخر خلفاء الدولة الأموية، اشتهر بالدهاء والمكر، وهو الملقب بمروان الحمار، حيث كان لا يَجِفُّ له لُبد في محاربة الخارجين عليه، عاش حكم ما بين (127-132هـ/ 744-750م.)

(استقدم خليل بك صهره محمد باشا الإمام (1115هـ/ 1704م) فقدم إلى طرابلس وبقي بها إلى أنْ مات، ودُفن بالتربة المخصوصة به التي بلصق الجامع.)

اقتحم المدينة إبراهيم الأركلي في اليوم الخامس من حصارها سنة 1121هـ/ 1709م

وفتك بشيعة خليل بك وبطانته وأبادهم، وفي 15 رمضان 1122هـ/ 1710م ثار محمد بك الجنّ على الأركلي، واكتفى بنصب إسماعيل الخوجة الذي كان إماما يصلي بالناس في جامع خروبة، وغدا يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه.

وبعد شهرين جاء مصطفى داي وكان «خفيف القيادة، فاتر الهمّة، فأضاع الحزم، وأغفل الأمور» بعبارة الأنصاري، فنقم عليه الجند فخلعوه في أواخر جمادى الآخرة 1123هـ/ 1711م فكانت ولايته 5 أشهر و26 يومًا.

وجاء كاتب الديوان «محمود أبوأُمِّيس» وكَثُرَ الهرج والمرج في البلاد ووجد أنّ أحد الوجهاء والقواد وهو «أحمد القرمانلى » يشكّل عقبة في طريقه، فاضمر له الشرّ، فطلب منه أنْ ينقل رسالة إلى أحد مشائخ غريان جاء فيها: «اقتُلْ حاملها»، وبعلم أنصار «أحمد» بالمؤامرة فاتفقوا على عزل «أبوأُمِّيس» الذى ظلّ في حكمه خمسة عشر يومًا، وَوُلِيَ أحمد في صحوة يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة 1123هـ الموافق 1711م، ولم يُختلف في بيعته، بايعه أهل البلدين: المنشية والساحل، وأهل الديوان والمدينة لعلمهم بصلاحيته.

(مدة حكم أبوأُمِّيس 15 يومًا، وصفه النائب بقوله: «كان طايش الحلم، لئيم الظفر، لسانه سلم موادع، وقلبه حرب منازع»، وقد شنق أبوأُمِّيس نفسه في اليوم الثاني.)

لقد شهدت السنوات العشر الأخيرة من العهد العثماني الأوّل الفوضى، وأدّى الهرج والمرج إلى تغيرات سريعة في الدايات إذْ لم يدم حكم داي فعليًّا أكثر من عام، ما جعل أحد الباحثين الأوربيين يصوِّر تلك الحال بقوله: «كان أي مخمور يمكنه أنْ يُثير المدينة لقطع رؤوس الحكّام».

وثيقة: وظلت طرابلس «تعيش حالة عدم استقرار وانعدام الأمن نتيجة تولي ولاة ضعاف غير مؤهلين، فتولي التارزي والقهوجي والحداد والإسكافي... مما جعلهم ألعوبة في أيدي القادة العسكريين، ولم يدم بعضهم الأ أيامًا معدودة، إمّا عزلًا وإما قتلًا.» (محمد عمر مروان)

ويُلْحظ في هذا العهد انتشار الخرافة، والاعتقاد في كلّ من ادّعى الولاية بحقّ وبغير حقّ، حتًّى كاد يصبح لكل قبيلة أو أسرة وَلِيّ يحميها ويشملها ببركته ويردُّ عنها كيد

الكائدين، ويصفها صاحب حكاية مدينة بأنها تمثل قوة مضادة معارضة للحكم يلجأ إليها النّاس للتخفيف من وطأة الحكام وظلمهم، وكان لبعض رجال التصّوف الصادقين دور في كبح جموح الحكّام وكسر شوكة طغيانهم، فاضطر الولاة أنْ يعترفوا لهم بشيء من الحصانة وحقّ الحماية.

القرمانليّون: (1711-1835م) (124 سنة شمسية = 6 باشوات)

طرابلس القديمة مدينة بهاء وروعة، انتصبت بيوتها البيضاء أمام خلفية من أشجار النّخيل الباسقة، وآجام الزيتون الخضراء، ولاحت على بساط الرّمل أشجار الصِّبّير السّخيّة الأزهار، وقدامها يترامى البحر بتموجاته الزرقاء، هذه هي عبارات الرحالة حين شاهدوا هذه المدينة العريقة، في الأيام الأوّل، والتي أقام فيها أحمد باشا القرمانلي الأوّل

حكماً مستقلاً، واستمرت عائلته في وراثتها حتى سنة 1835م، فحكمت مئة وأربعًا وعشرين سنة شمسية، وأبرز ما تميزت به هذه الأسرة هي حروبها مع الدول الأوربية والولايات المتحدة من جهة، والنزاع العائلي على السّلطة من جهة أخرى، وأُمراؤهم ستّة: أحمد الأوّل، ومحمد، وعلي الأوّل، وأحمد الثاني، ويوسف، وعلي الثاني.

والقرمانليون من التّرك، نسبة إلى بلدة «قرمانيا» عند جبال طورس الواقعة جنوب هضبة الأناضول بآسيا الصغرى، وأوّل من جاء من هذه العائلة إلى طرابلس هو «مصطفى القرمانلي» الجدّ في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكان يعمل بحاراً في الأسطول العثماني، ثم غدا تاجراً إذْ امتلك مزارع في المِنْشِيّة، واقترن بإحدى الطرابلسيات، وبمضي قرن ونصف من الزّمان على استقرارهم وارتباطهم بالمصاهرة مع الطّرابلسيين – جعلت البلاد تنظر إليهم على أنهم طرابلسيّون، ونشأت ذريته هناك، فأصبحوا «كورغلية» (كوارغلية) مواطنين طرابلسيين، «ومن طريق المصاهرة امتزج دم القرمانليين بأهل البلاد حتّى لم يَعُدْ لهم من الصبغة التركية سوى الاسم فقط».

تكونت الكورغلية (الكوارغلية) على وجه الخصوص في نواحي: العلاونة، والمنشيّة، والساحل في طرابلس، والرقيعات، وورشفانة، والعزيزية، والزاوية وفي مصراتة وماحولها وغيرها، وألَّفَ «الكورغلية» تشكيلات عسكرية، يرأس كلّ تشكيل شخص يدعى «باشا آغا»، وقد أمدت هذه الطائفة الدولة العثمانية بخدمات حكومية: دفاع وأمن وجباية ضرائب، وتمتعوا مقابل ذلك بامتيازات.

فائدة: «وقرمانلى يكتبها التّرك (قره مانلي) ويستعملون «الهاء» هنا لتعطي الفتح نطقًا، أيْ: قرمانلى»، و»باشا»: لقب يعني صاحب البلاد، و»بك» لقب بدل على تولي قيادة الجيش.

(وقول أوغلي، وجمعه في العربية اليوم (القولوغلية) وهم آباء وأجداد العساكر غير المنتظمة ويشير الباحث الطرابلسي عمار محمد جحيدر في بحث له بعنوان «سالنامات ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني بمجلة مجمع اللغة العربية الليبي العدد 17–2020 إلى ثلاث دلالات تاريخية للكورغلية، الدّلالة الأُولى: عسكرية مركزية، أُطلق على ولد الجندي بمركز الولاية العثمانية، والدّلالة الثانية: اجتماعية عرقيّة مغاربية، أُطلق على المولّدين من آباء عثمانين وافدين وأُمّهات محليّات من الأهالي في الإيالات المغربية (طرابلس وتونس والجزائر)، والدّلالة الثالثة: وظيفية مهنية، وهذه خاصة بإيالة أو ولاية طرابلس الغرب– قد خُصُّوا بقضاء مستقلّ برئاسة «باش آغا» يتبع مركز الولاية، وفي عهد الوالي «حافظ باشا» (1900م) أُلغيت امتيازات القولوغية.)

الرجّل الأول: أحمد باشا القرمانلي (1711-1745م)

بدأ أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفي القرمانلي حكمه بمذبحة ضباط الإنكشارية في الدّار التي عُرفت باسم «قصر للّا زنوبيا»، على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريبا إلى الشرق من طرابلس المدينة– بعض خرائب بناية، قائمة فوق تلّ مرتفع – كان يقوم المسكن القرمانلي الذي توارثته أجيال أسرة أحمد باشا، وبجوار القصر مقبرة الهاني، وفيها الموتى الذين ذبحهم أحمد باشا أثناء وليمة أقامها في قصره وقد امَّحَتْ آثاره ومراسمه اليوم، كما جاء في مذكرات الآنسة توللي.

وقد شاهدت الآنسة توللى– على مقربة من بساتين السفير الإنجليزي– خرائب بناء قديم تدلّ على الحصن المذكور، وقد وصفت بأسلوبها ما جرى من أحداث:

«في إحدى زوايا البساتين الملحقة بالحصن ظهر كثيب هائل الحجم يواري جثث مئات ذبحهم القرمانلي حين قهر الحامية الإنكشارية، وكانت الدعوة لكبار الضباط والموظفين العثمانيين حيث اغتالتهم كمائنه في سقيفة القصر ودهاليزه المعتمة، ولا تزال السقيفة التي ساروا فيها والخَلْوات التي جُرّت أجسادهم إليها، فيما كانوا يعبرون إلى فناء القصر، وبقايا بوابات القصر تدلّ على أنّها كانت فخمة، بل صامدة في سالف الأيام.»

وقضي أحمد باشا على الانشقاقات والانتفاضات في مناطق كثيرة من البلاد وتخلّص من نفوذ جنود الإنكشارية، وهو ما جعل عصره أبهي العصور في ذلك الزمن.

وثيقة: «كان (الباشا) يخفي تحت رقة أخلاقه وحسن معاملته إرادة قويّة، وحزمًا وعزيمة لا يعرفان التّردّد، وبهذه الإرادة والعزم القويين استطاع أنْ يُثبِّت دعائم حكمه، في وقت كانت الثورات المختلفة (قبله) أوقعت الخراب والدمار الاقتصادي، وتحولت مدينة طرابلس إلى وكر للأشرار والقتلة» (ميكاكي)

لم تجد الدولة العثمانية بُدًّا من الاعتراف بالدّولة الجديدة، بعد أن استقرت وقويت، وبالشاب الذي لم يتجاوز عمره خمسة وعشرين عامًا، وأكدت ذلك بفرمان السلطان أحمد خان الثالث، إمارة وراثية ذات شخصية مستقلة، ترتبط بالدولة العثمانية من الناحية الشكلية ومُنح أحمد القرمانلي رتبة «بكلربكي» (الباشوية).

وفي عهد هذا الباشا كان للقنصلية الإنجليزية مبنى جميل مؤلف من طابقين، في زقاق ضيق في إحدى جانبيه أفران الخبّازة، بالقرب من قوس ماركوس، بمنطقة باب البحر بالمدينة القديمة.

وثيقة: «وبيت الممثل الرسمي لبريطانيا واحد من أقدم وأوسع البيوت إثارة للاهتمام في المدينة، محاط بفناء مركزي عادى. أُنشئ اعتمادًا على فكرة درء الحصار، إنّها قلعة قائمة بذاتها تقريبا، وقد خدمت أغراض الدفاع واللجوء للمقيمين الأوائل»... «بالسقيفة مقاعد صخرية صُفَّتْ على الجانبين، وفي الساحة ينبوع داخل حوض، وشجرة ضخمة مُعَمَّرَةَ، ترفع أغصانها أعلى من السطح كثيراً، وشجيرات مُزْهِرَة بوفرة سخيّة، وترحيب بخرير الماء، وجدران بأسلوب القرن الثامن عشر، وفي الطابق الأول قاعات تَطُلُّ على الشّادروان... «وتغْنِي الأصُص الرومانية العديدة والمنحوتات- التي أُخْرِجَتْ من الرمال العادية- غُرَفَ الاستقبال والقاعة، بينما تخلق النباتات الوافرة جدًّا والمقاعد وموائد الشاي المصنوعة من البامبو جوًّا من الضيافة المبهجة»... «وبين صفوف الفُلْفُل الملونة المفرودة لتجفّ، وكومات الحِنْطة السّمراء المنشورة في الشّمس، كانت العائلة (الإنجليزية) تتمشّى، وتتجمع في العشيات البادرة، لتستروح نسيم البحر المنعش». (المس توللي)

في هذا المبنى عثرت «مابل تود» على مجلد يملكه القنصل ريتشارد توللي **Richard**

Tully» وهو «حكاية إقامة عشر سنوات في طرابلس إفريقيا»، مجموعة رسائل كتبتها الآنسة توللي إلى ليدى ماري ورتلي Lady_Mary Wortley.

وثيقـة: «وأقام ممثل الملكة محطَّة مراقبته على السطح، وَنَمتْ غابة صغيرة من التلسكوبات مثيرة، دَهَّشَت الجموع المتطلعة إلى أعلى، من الأسطح التي دونها» (مابل تود)

ومن أعمال أحمد باشا القرمانلي: فتح باب العمل للأهالي، وتأسيس مجالس شرعية، وتسامح ديني مع الرعايا الأجانب، واحترام لليهود الطرابلسيين.

ويصف الرّحالة الفيسي ميلانوفيتش (1765م) الحنايا التي أقامها أحمد باشا القرمانلي لجلب الماء إلى المدينة، ومن ذلك ساقية المياه التي تمتد نصف ميل، تجلب المياه من البر إلى قصر الباشا، وهي مقامة على أقواس بديعة ذات منظر خلاب، يبلغ ارتفاعها عن الأرض اثني عشر قدما.

وثيقـة: وكان الينبوع التركي (النافورة العثمانية) نقطة تجمع كبري في المدينة ... يظلّ محاطًا دائمًا بحشود مختلفة كل الوقت، ويمرّ به المرء في كلّ النزهات والجولات عبر الحارات الموحلة المسوّرة التي تفيض إلى الصحراء. (مابل تود)

وفي خضم الصراع بين ولايات الشَّمال الإفريقي الإسلامية والدول الأوربية المسيحية يشهد البحر الأبيض المتوسط في عهد أحمد باشا –كما هو الحال في عهد من سبقه– سلسلة من هجمات السفن الحربية الطرابلسية على السفن التجارية التابعة لفرنسا ونابولي والبندقية وغيرها، وكان ذلك– على وجه الخصوص– في السنتين: 1721 و1722م، ومع هذا فقد عقد الباشا معاهدات صلح وسلام مع الدّول الأوروبية تمت من دون علم الآستانة مايدلّ على استقلاليته.

اتَّجَهَ أحمد باشا الأوّل إلى إعداد وسائل الدفاع، من حصون وأبراج ومدافع لمواجهة تهديدات الأساطيل البحرية الأوربية التي كانت تجوب حوض البحر الأبيض المتوسط.

وثيقة: «الأسلوب المتّبع منهم في صناعة سفنهم يتّفق ومتطلباتهم في البحر، إنّهم يبغونها سريعة، ولهذا الغرض فهم يستخدمون كل فنّ لجعلها كذلك، فيصنعونها من أخشاب الموزة، ولا يهتمون كثيراً بمتانتها (اعتمادًا على قوة الرجال)» (ميلانوفيتش

1765م)

على الصخرة الناتئة في البحر الكائنة غربي الميناء (تحت برج التّراب) أمر ببناء برج عالٍ سنة 1040هـ= 1728م، الذي كان في غاية المتانة والإحكام، وهو برج أبوليلة.

بُنِيَ البرج بالحجارة الجيرية بشكل بيضاوي، من طابقين: السُّفلي مظلم به كُوّات تُفتح على السطح، وطابق آخر عُلْوي، ومحيطه 70 متراً مربعاً، يُفتح مدخله إلى جهة الجنوب، وكان يتصل باليابسة عن طريق جسر خشبي مقام فوق حوامل حجرية بُنِيَتْ على النتوءات الصخرية المتناثرة داخل البحر.

وفي سنة 1889م، أجريت على البرج تعديلات وصار على هيئة استحكام قوي عُرِفَ بـ« الطابية العثمانية»، وخلال الحرب العالمية الثانية نَصبت إيطاليا دفاعاتها الأرضية فيه.

والبرج الآن متّصل باليابسة حيث رُدم جزء البحر الفاصل بينه والشاطئ في بداية السبعينات من القرن العشرين، كما اختفت بعض معالمه تحت الأتربة، وأثَّر ذلك على روعته وجماله، وأفقده بعضاً من أهميته الأثرية والتاريخية كما يوثّق الباحث الطرابلسي سعيد على حامد، من أهالي المدينة القديمة وأحد المتخصصين في التاريخ، والبرج الآن مقر لنادي باب البحر للغوص والرِّياضات البحرية بإشراف مدرّب السباحة والغوص السيد عادل الجدايمي (السِّياحة).

وقد وجدتُ في مراجع هذه الفنّ أن الرّحالة الإيطالي «كامبيريو» صاحب مجلة المكتشف التي كانت تصدر بميلانو الذي زار طرابلس 1895-1896م، قد سجل انطباعاته وهو يتأمل منطقة البياضة وبرج أبوليلة.

وثيقة: «لا يمكن للخيال أنْ يتوصَّل إلى ما هو أجمل من البحر، والصخور في هذه الناحية من المدينة، فالماء صاف نظيف، ومن الممكن رؤية الصخور من مواقع كثيرة تغطيها النباتات البحرية إلى أعماق بعيدة، وتنوع الألوان في هذه الجنّة الكامنة تحت الماء، حين تنعكس عليها الشمس الساطعة، وبينما يوجّه صاحب الزورق زورقه عبر الصخور نحو برج أبوليلة يُخَيَّل لك أنك تسمع بين أصوات الأمواج الصاعدة الهابطة بين الصخور همسات وآهات حوريات البحر.» (كامبيريو)

هذه هي شهادته في ذلك الأوان، ونحن في العام 2021م. ما نزال نرى ذلك عياناً

ونستمتع بغروب الشّمس في الأفق والتي تأخذ مشاهد متعددة تختلف باختلاف الأيام صيفاً وشتاء، وربيعاً وخريفاً، إنها إحدى المُتَع التي تُخَلَّدُ في ذكرياتنا، فنعيش أيامنا نحكيها ونعاود الحكاية مراراً دون كَلَلٍ.

ولي شخصيًّا في هذا المكان ذكريات جميلة أيام شبابي (الستينات من القرن العشرين) فقد كنت مع أصحابي نسبح إليه صباحًا، ونقضي فيه النهار كله، ثمّ نعود سباحة مساءً إلى اليابسة، وأتذكر رفقة الأصدقاء، ونحن على صخور ذلك البرج نلهو ونمرح، ونستمتع بالشمس الدافئة، وماء البحر البارد، ولابد من تذكّر مشائخنا وهم يؤنسون أحيانًا جلساتنا، الشيخ الحافظ محمد باباي (سباكة) والذي وهب عمره كله لتحفيظ القرآن الكريم، والشيخ القارئ محمد بوسنينة، ذو الصوت الرخيم، يالها من أيام حلوة!!

وبتأسيس نادي باب البحر للغوص والرياضات البحرية سنة 1980م، غدوتُ من ضمن إداراته في فترة من فتراته الأُولى، ونحن نحث الصبيان على تعلم السباحة والتفوق فيها، ولنا اليوم جلسات طيبة وأحاديثُ مسلية، وتذكُّرٌ لأيام جميلة.

وفي عهد أحمد باشا القرمانلي تَفقُد طرابلس قطعة حربية – مزودة بالمدافع والمنجنيقات، وعلى ظهرها نحو أربعمئة رجل – في هجوم مباغث من قبل فرسان مالطا بتاريخ أبريل من عام 1723م، ويُقتل في هذه المعركة قرابة مئة وأربعة وثلاثين طرابلسيًا، ويُؤْسَر آخرون.

وفي 16 يوليو 1728 قام القبطان «نيقولا دي جراند بريه» بمظاهرة بحرية بإسطول من ثلاث عشرة قطعة صغيرة وكبيرة، وكان هدفه أنْ ينصاع الباشا لشروطه في إطلاق الأسرى الفرنسيين، ودفع تعويض عن الإهانات التي ألحقها البحارة الطرابلسيّون بالعلم الفرنسي، وإبرام معاهدة صلح جديدة.

لم يرضخ الباشا لهذه الشروط، ومع المساء أخذ الفرنسيّون في قصف المدينة، واستمر أربعة أيام، من الثاني والعشرين حتى الخامس والعشرين من الشهر نفسه، وبقذف قنابل شديدة الانفجار كان ثلث المدينة تقريبا قد دُمّر.

وفي اليوم السّادس والعشرين أرسل قائد الأسطول الفرنسي كتاباً إلى الباشا، وتفيد التقارير أنَّ أحمد القرمانلي رَدَّ الخطاب من دون أنْ يفتحه إشارة إلى عدم الخضوع، وأدرك

القبطان الفرنسي أنّ ذخائره تكاد تنفذ، فما كان إلاّ أن أطلق أشرعته للريح، وغاب عن الأنظار.

وثيقة: «ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم تكن السفن الفرنسية لتجرؤ على الاقتراب من جنوب مالطا، وكانت تسعى إلى ضمان سلامتها بسيرها جماعات، وفي بعض الأحيان كانت تستطيع النّجاة بنفسها بفضل ما تُبديه من جرأة يائسة (ميكاكي)

ونَمتْ موارد الدّولة بتدفق الأموال للخزينة الطرابلسية عن طريق الرسوم التي كانت تدفعها الدول الأوربية لحماية سفنها التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقبالة السواحل الطرابلسية، وبالضرائب التي كان يجلبها عُمال الباشا من الأهالي.

ويسجل مؤرخ العهد ابن غلبون سيرة هذا الوالي، وما حقّقه من أعمال مثل تجديده لبيوت القلعة، وبناؤه لفسقية لسقي أهل السّفن، وإنشائه لسوق بإزاء الخندق من جهة الشمال، وعنايته بالزراعة والرّعي، حيث كان القمح يُصَدَّر إلى المدن الأوربية عبر موانئ إسبانيا، إذ أصبح يزيد عن حاجة السُّكان، ولكن موارد الدولة قلّت في أواخر عهده، واستنفذت الهدايا إلى الآستانة الكثير من الأموال، ورفض أهالي الداخل دفع الضرائب في كثير من الأحيان حين شعروا بضعف الدولة، وغدت السُّفن الطّرابلسية غير قادرة على الغزوّ، وضَربت الفاقة البلاد بسبب الجدب الذي حلّ بها، وأدّى ذلك إلى انتشار تذمر النّاس في كثير من الجهات حيث جُبِيَت الضرائب ويعلّل ابن غلبون استعجال القرمانلي في الجباية لضيق يده، وكثرة شكاة الفقراء إليه، «وهو بذلك يراعي مصالح العامة» بتعبيره.

ولكيْ يُخَلِّد أحمد باشا اسمَهُ في التاريخ بنى جامعه البديع الغني بالنقوش والزخارف بالمدينة القديمة (1737–1738م) وهو من أكبر الجوامع في طرابلس القديمة.

من الذين وصفوه الرّحالة أبو العباس الفاسي 1796م، ومّما دونه:

وثيقة: «الآيات المنقوشة فوق باب المسجد ملونة ومطلية بالذهب طلاء لا يضاهيه في الجمال والروعة مسجد آخر في المدينة. بلاطاته خمسة في غاية الإتقان، وبدائرته من جهة صدره وما ولاه من الأسوار مزلجة بالزليز الرومي، وكذلك ميضاته وبلاطاته بالسواري من الرخام الملون بالأبيض والأسود والأصفر غاية لم يُرَ مثله.»

وموقع الجامع في مواجهة السراي الحمراء، ناحية الجنوب الغربي منها ومساحته الإجمالية حوالي 2552 مترًا مربعًا بتربته ومدرسته، وجدرانه من الفسيفساء ذات الألوان الزاهية الجميلة، ووصل إلى درجة الترف والبهرجة الفنية والمعمارية، وهو عبارة عن عمارة مركبة بحيث جاء بيت الصلاة محاطًا بمرافق تتمثل في مُصَلَّى مكشوف ومدرسة، ومدفنين، وتربة، وصحون، وحوانيت، كما يذكر المهندس مسّانا.

وبيت الصلاة مربع الشكل (23م 23X) مسقوف بخمس وعشرين قبة، وبجوار المسجد مدرسة من دورين تحتوي على 35 خلوة، اشتهرت بمشائخها وعلمائها، وبها مُصَلَّى صغير، وفي الخمسينات من القرن العشرين أنشئ معهد أحمد باشا الديني ثم نقل إلى المقر الجديد بالمدرسة الإسلامية العليا بالظهرة، إزاء جامع خليل باشا التاريخي، وأصبح المعهد تابعًا لجامعة محمد بن علي السنوسي بالبيضاء، وأول شيوخ هذه المدرسة أحمد الفساطوي من بلدة فساطو (جادو).

وتحيط بهذه المجموعة المعمارية أسواق من كل الجهات: المشير، والربّاع، واللّفة ومحلات الذّهب والفضة، وتذهب الروايات إلى أنَّ جامع أحمد باشا بُنِيَ على أنقاض مسجد عمرو بن العاصّ!

وثيقة: «أما مساجدهم (الإشارة إلى جامع أحمد باشا القرمانلي) فذات هندسة مبسّطة ما عدا مسجد ذلك الباشا الذي زُينت جدرانه الخارجية والداخلية ببلاط القيشاني، وبثلاث قباب جميلة جدًّا» (ميلانوفيتش 1765م) صلقد زخرت طرابلس القديمة بجميع أنواع الحرف ومن ذلك: البنّاءة (الأُسْطوات)، والجزارة، والحدادة، والبواية، والحِسَّانة، والطَّهارة، والحلّابة (حلابة الماعز)، والحلواجية، وحمالة المياه، وحمّالة الكتف، والحمل بالكارطون، والحواتة، والحوكية، والخبارة، والخياطة، والدّباغة، والدلالة، والسروجية، والساعاتجية، والسنفازة، والصِّباغة، والصياغة، وطبابة القصاع، والغرابلية، والكرارسية، والكواشة، والكوندرجية، واللبانة، والنجارة، والنحاسية، وغيرها.

وأَفْلَتَ زمام الأمر من الباشا في أُخريات عهده، وَشَعَرَ بعجزه بعد فقدان بصره، فلم يجد حلًّا سوى إفراغ طلقات من مسدسه في فيه، وكان ذلك في شهر نوفمبر 1745م، وعمره لم يتجاوز السّتين عاماً، بعد أنْ تلذّذ بكرسي العرش خمسة وثلاثين عاماً، ويدفن

بحجرة مسقوفة بقبة، وهي إلى الجنوب الغربي من بيت الصلاة، وأزيل ضريحه وأضرحة الأسرة القرمانلية، وسُوِّيَ كلّ ذلك بالأرض، بعد السابع عشر من فبراير عام **2011**.

وثيقة: «مات المؤسِّس، وترك سمعة طيبة على الحركة العمرانية والاقتصادية والعسكرية، وكان عهده أحسن عهود القرمانليين، وفترة حكمه من أحسن الفترات. (المؤرّخون)

*(دُفِنَ أفراد الأسرة القرمانلية في هذا الجامع فيما عدا بعض سيدات كان دفنهن داخل القبتين الواقعين بشارع الشّط (قرب جامع سيدي الشعاب) (جبّانة السّلطانات)، وقد هُدِمت القُبب وأُزيلت القبور بعد **17** فبراير **2011** والأرضية الآن مبلّطة، وهي حديقة عامّة.)*

الرّجل الثاني: محمد أحمد القرمانلي: (**1745-1754**م)

وَرَثَ «محمد أحمد القرمانلي» حكم الولاية بعد وفاة أبيه، ودام حكمه تسع سنوات شمسية وعاش على أمجاد أبيه التي تركها له، ويذكر أنّه عارض أعمال القرصنة البحرية في أوائل حكمه الأُولى حيث ظلّ يتشبث بحالة السّلم، ولكن الديوان عارضه في ذلك، ومع هذا حصل على استثناء لسفن فرنسا وإنجلترا، إذ كان يميل إلى مهادنة الدول الأجنبية وعدم الاصطدام بها.

حاول البحارة الأرناؤوط العاملون في خدمة الباشا الإطاحة به بسبب تضييقه عليهم في القرصنة، وفي **31** يوليو **1752**م كانت حركتهم التمردية الدموية، التي أسفرت عن قتل شيخ البلد مع أربعة من أعيان المدينة وتمكّنوا من التّسرب إلى حصن باب البحر الواقع وراء البوابة المفضية إلى جبانة النَّصارى، وقصفوا القلعة، وأطلقوا النار على حياش البلدة، ولأنه لم يتجاوب الأهالي معهم فقد استولوا على سفينة إنجليزية وأقلع بها قرابة المئتين، فأمر الوالي بتتبعهم، فَمَنْ قُبِضَ عليه أُعْدِم رميًا بالرّصاص، أو شُنِقَ وعُلِّقَتْ جثته!، ومن ذلك التاريخ لم يعد استخدام الأرناؤوط والألبان في خدمة الباشا.

ومن أعماله أنَّه جدّد الأسطول الطرابلسي، وظهر في عهده ربابنة كبار، وأصبح البحر المتوسط عرضة لغاراتهم ما جعل الدّول الأوربية تعقد أو تجدِّد اتفاقيات صلح مع طرابلس، وفي أيامه كثرت ثورات الأهالى خارج طرابلس عليه، وبوفاته دُفِنَ إلى جانب أبيه، وعمره لم يتجاوز العقد الخامس.

الرّجل الثالث: علي بن محمد بن أحمد القرمانلي (1754-1793)

تتوَّج علي القرمانلي الأوّل على ولاية طرابلس، ودام حكمه طويلاً، أربعين سنة تقريبًا، وحوش القرمانلي بشارع الأربع عرصات من بنائه، وهو من طابقين، مساحته كبيرة، وطرازه إسلامي، وبه نافورة في فنائه، وقد اتّخذه يوسف باشا، ابن علي، سكنًا لحريمه، وهو الآن فضاء ثقافي يصوّر حياة الطرابلسيين الاجتماعية، ومن حجراته دار السِّدة، ودار الألبسة، ودار الجلوس، ودار القبو، ودار الناموسيّة، ودار العرّاسة، ودار المراحل التاريخية، والمطبخ، وللباحثة مفيدة جبران توثيق شامل لهذا الحوش من حيث ما تشتمل عليه حجراته.

وثيقة: «علي باشا القرمانلي الأوّل «قصير القامة، وقور المظهر، محترم، رغم أنه لم يبلغ الأربعين من العمر، وكان ذلك سنة 1785م، وإلى جانبه اللّا حلومة (اللّا الكبيرة) زوجته وهي ملكة البلاط الصغير، امرأة واعية ومحنكة، تخفف بلطفها من قسوة زوجها» (الآنسة توللي)

وثيقة: «يتحلّى علي باشا القرمانلي بملامح وبخصال مقبولة، أمَّا طبيعته فهي مزيج من الضَّعف والخجل والأريحية والفضاضة وممارسة السّلطة بتكاسل شبيه بالبطالة. (دي لانسي De Lancey القنصل الفرنسي 1765م.)

(سجّلت الوثائق تفشي وباء الطاعون سنة 1773م، فَتَكَ بالناس في المدينة والدواخل، وقد أُحصي أربعة آلاف حالة وفاء واستمر أكثر من شهر)

أولى علي القرمانلي عنايته بالزراعة والتجارة وتشييد المباني، وكان الأسطول من أولوياته لما يجنيه من عائد الغنائم، ومع قدوم سنة 1765 لم يَعُدْ لطرابلس سوى سفن عاملة قليلة، حيث اضمحلت قوة الأسطول الطرابلسي وإنْ كانت معظم القوى البحرية (النمسا- الدنمارك- السويد) استمرت في دفع مبالغ لتفادي الصدام مع الطرابلسيين، ولكن البنادقة- نسبة إلى البندقية- أَبَوْا دفع الأمان لسفنهم مباشرة، وقاموا بدفع مبلغ لأخذ امتياز طبقات الملح في زوارة.

أقامت بعض دول البحر الأبيض المتوسط قنصليات لها في فترته، وصادق الباشا على امتيازات ممنوحة للأجانب، وأهم ما يميز عهده انتعاش العلاقات بين طرابلس والبندقية

1756 بفضل سفارة عبدالرحمن آغا البديري الطرابلسي الملقّب باللّونة، وهي كلمة إيطالية تعني «البدر» وكان للبديري دور بارز في الدبلوماسية الطرابلسية. عاش ما بين 1720 و1792م، (ومشاركة للباحث الطرابلسي عبدالمطلب أبو سالم عن حياة هذا الرجل في كتيب أعلام طرابلس الصادر عن مؤسسة التراث الطرابلسي.)

(افتتحت إسبانيا أوّل قنصلية سنة 1784م، ووقّعت جمهورية البندقية معاهدة صلح وتبادل تجاري، ما حدا بالباشا أنْ يمنحها امتياز استغلال الملح من ملاحات زوارة، وقد وصلت الشحنات الأولى إلى 150 ألف قنطار، قامت بنقلها 33 سفينة شحن.)

ومن إنشاءاته فندق القرمانلي الذي شيد على مبنى قديم، وهو بمنطقة باب البحر، بالقرب من قوس ماركوس، وفي مواجهة مسجد الشيخ عبدالوهاب القيسي.

وفي دراسة تاريخية شاملة للباحثة الطرابلسية فاطمة شنيبة لهذا الفندق تورد أنَّ «جيوفاني» الإيطالي أعدَّ دراسة لتنظيم منطقة القوس سنة 1931م، والتي قام بها المهندس المعماري «ماريلي» بالتعاون مع مراقبة آثار مصلحة طرابلس، ومما ذُكِرَ أنَّ فندق القرمانلي من دورين، أرضي وأوّل، ذو صحن جميل، مزين بالنافورات والأشجار والزّهور، ومحاط ببواكٍ تحيط بالصحن المكشوف، وترتكز على أعمدة أسطوانية أو دعامات.

(استعملت الدعامات في العمارة الإسلامية لرفع البناء إلى أعلى مستوى ممكن لاستقبال قدر من الإضاءة والتهوية، والبواكي: أعمدة متباعدة على خط مستقيم، موصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقف.)

يعلو البواكي سكن ذو أقواس مستوية الانحناء، يحتوي على غرف ومتاجر ومخازن، كما يصف فرانشيسكو كورو، والباب الرئيس للفندق يُفتح على شارع حذو البحر، قبالة التحصينات، ومشاهدة التصميم المعماري لهذا الباب يَشُدُّ الانتباه إلى باب فندق الموريسكيين بالبندقية.

(الموريسكيّون بالقشتالية هم المسلمون الذين بقوا في الأندلس وأُجبروا على اعتناق المسيحية.)

وعُرِفَ الفندق بتسميات أُخرى منها: فندق البنادقة نسبةً إلى أهالي مدينة البندقية

(**Venice**) في شمال إيطاليا، والذين استأجروا المبنى للسّكن حيث كان مندوبهم التجاري مقيماً به، ويستقبل عملاء الوكالات التجارية وربابنة السفن التي تنقل البضائع وخاصة الملح، ومن المعروف أنه كانت توجد علاقات وطيدة للبندقية مع طرابلس في القرن العاشر الميلادي، ومع القرن الرّابع عشر الميلادي أصبحت البندقية تَحْظَى بنظرة خاصة بين المدن التجارية المتنافسة على إقامة علاقات تجارية مع طرابلس مثل مدينتي جنوا وبيزا.

وتوجد وثيقة تشير إلى المعاهدة التجارية (**29** يونيو **1356**م) بين البندقية وأحمد بن مَكِّي حاكم طرابلس، وتنصّ على امتياز ملاّحات رأس المخبز (جزيرة فروة بزوارة) للبندقية، وقد احتفظت البندقية بهذا الامتياز خمسة قرون.

وقد جُدِّدَتْ الاتفاقية في العهد القرمانلي بتاريخ **19** أكتوبر **1763**م، ونصت على تزويد البندقية بـ**2500** كيلة من أجود أنواع الملح سنويًّا مقابل مبلغ **2500** سكوين بندقي، وبازدهار العلاقات بين طرابلس والبندقية في العهد القرمانلي بارسال «عبدالرحمن آغا البديري» إلى البندقية (**1764**م) لعقد اتفاقية اعترف آغا للقنصل البندقي بحقوق وسلطات توازي حقوق القناصل الآخرين وسلطاتهم، وباحترام سفن البندقية ورعاياها، كما مُنِحَ امتياز الملح إلى البندقية وحدها.

وفي فترة أخرى عُرِف الفندق باسم فندق المالطيين نسبة إلى جزيرة مالطا قبالة الشواطئ الطرابلسية، وقد اتخذوه مقرًّا لهم وعُرِفَ بحاناته، واشتهر كذلك بفندق الرُّمانة نسبة إلى الميزان الرُّماني، حيث كتلة الوزن المنزلقة على ذراعه على شكل ثمرة الرُّمانة، وهو الميزان الذي يتخذه الباعة آنذاك، وقد يكون نسبةً إلى شجرة رُمَّان كانت بصحنه.

وقد هُدِّم المبنى القديم وأُقيم على أنقاضه نادي المدينة الرياضي الثقافي الاجتماعي، والذي عاصرته وكنتُ عضواً في أنشطته الثقافية الفنيّة في الستينات من القرن العشرين مع الصديق أبوبكر الشلِّي، وهو أحد المشجعين له منذ ولادته، أمّا الآن فقد انتقل نادي المدينة إلى شارع عمر المختار، في ركن جميل، وأصبح المبنى لنادي باب البحر الرياضي.

ورُويَ عن علي باشا أنَّه استسلم للجند الإنكشارية، فأصبح شكلاً لا معنى، واختلَّ

الأمن في أواخر عهده وقلَّتْ الإيرادات، فاضطر إلى صهر الأواني الفضية وسكّ النقود منها وبانتهائها عجزت الدولة عن دفع الرواتب ففرَّ الجنود، وخلا الجوّ للخارجين على القانون، وعمّت الفوضى، وازداد الأمر سوءاً باجتياح المجاعة البلاد (1767م)، وفتك الطّاعون بالأهالي (1785م) ومات من سكان المدينة الآلاف (حوالى 27 ألف شخص) الذي كدّر الحياة الوادعة الهادئة، وغدت الحالة الاقتصادية في انهيار تام (1784-1786م) وقرب نهاية حكمه كتب القنصل الفرنسي:

وثيقة: «لم يَعُدْ باشا طرابلس يَسُوسُ اليومِ سِوَى رعايا متمردين، وفيافي مجدبة، وخرائب مهدمة، وحتى المدينة التي يقطنها هو نفسه لم تَعُدْ سِوَى أكوام من الأنقاض... ولقد أدى توالي سبع أو ثمان من السنين العجاف إلى ارتفاع معدّل الوفيات، وإلى هجرة النّاس من البلاد، ثم ثَنَى الطاعون فزاد الطين بلَّة... وليست طرابلس الآن سِوَى صحراء موحشة، فكلّ شيء ماضٍ إلى الذبول والاضمحلال. (فالليير **Valliere**، القنصل الفرنسي 1786م)

وذكرت الوثائق أنه كان للباشا محظيتان، إحداهما زنجية، والأخرى يهودية وهي زعيمة اليهود، كما يسميها الطرابلسيون، باسم إستير **Esther**، وقد تَقَدَّم الحديث عنها في مبحث «اليهود في طرابلس».

ونشب الصّراع على السلطة بين الأبناء «أحمد الثاني ويوسف»، وكان «حسن» هو الأكبر سنًّا، وهو ولي العهد، وكان حظه السَّيء أنْ أوقعه في حبائل أخيه «يوسف»، فمات اغتيالاً، قتَلَ يوسف أخاه حسن في يوليو 1790م- وهو جالس إلى جانب والدته على الأريكة- بطلقات من مسدّسه، وتمرّد على والده الّذي أعلن ولاية العهد لابنه «أحمد الثاني».

(في العهد العثماني الثاني افتتح باب الجديد (1865م) بالقرب من مدخل باب زناتة القديم الذي سُدّ في الحرب الأهلية ما بين أهل المنشية ومن بداخل المدينة 1830-1835، وباب الجديد فتحة كبيرة بالسّور، على هيئة عقد نصف دائري، مثبت به باب خشبي مصفّح بطبقة معدنية، وقد شاهدته عياناً في صباي)

وثيقة: «جمع يوسف رجال قبائل الداخل، وانظمَّ إليهم أهالي المنشية والسّاحل، وحاصر أخاه بالقلعة ثمانية وثلاثين يوماً، وكاد يستولي على العرش» (المؤرّخون)

برغل في طرابلس: (1793م)

طلب سكان طرابلس تدخل الآستانة، وإقصاء العائلة القرمانلية من حكم طرابلس، فماذا حدث؟

يظهر المغامر «علي برغل» بأسطول من ستّ سفن، وسفينتي نقل ترفع الراية العثمانية، وأصبحت طرابلس بين حصارين: حصار يوسف القرمانلي من البرّ يريد التّربع على عرش الولاية، وحصار برغل من البحر، على رأس نجدة أرسلتها حكومة الآستانة، واتّضح أنَّ الأمر كالمستجير من الرمضاء بالنّار، وهو ما أدَّى إلى فرار علي باشا الأول وأنصاره. مع فجر 11 من ذي الحجة 1793م إلى تونس، مُؤَمِّلاً من واليها حمودة باي المعونة، ومع فجر اليوم التالي دخل برغل طرابلس من دون مقاومة، وكان ذلك في 29 يوليو 1993م، وذكر أن لديه فرماناً بتوليته أمر طرابلس، فيعترف به أعضاء الديوان.

وُصِفَ «برغل» بأنَّه كان: «أبيض اللون، عظيم اللِّحية والشوارب، أشقرها، قليل الكلام بالعربية، يحب اللهو والخلاعة»، وبرغل صفة له، حيث انقطع ورود الأُرْز من مصر، فأطعم عساكره البرغل، فلقِّب بذلك اعترافا بتوفيره هذه المؤونة، والبرُّغُل جريش القمح.

وعلي برغل إنكشاري، من بلاد جورجيا، اعتنق الإسلام، وارتبط بالعثمانيين، وله سجل في الجهاد البحري في مياه سواحل الجزائر، وكان أخوه ذا مكانه في الأسطول العثماني، فشجّع برغل على استرداد الولاية الطرابلسية من القرمانليين، والعودة بها إلى الحكم العثماني المباشر.

أغار بُرّغل على طرابلس، ودخلت عساكره المدينة وعاثوا فيها فساداً، قتلاً ونهباً، فالتجأ القرمانليون إلى قبائل الداخل وتحصنوا بها ورغب بُرّغل في توسيع سلطانه، فتوغّل في إقليم تونس واحتلّ جربة.

وثيقة: «ولما استولى برغل على طرابلس أباحها لعسكره، ففعلوا بها أقبح وأشنع «التمركية» من النهب وهتك النساء والفسق والفجور، سَبَى حريم متولِّيها وأخذهم أسرى، وفرض على أهل البلد، وأخذ أموالهم.» (الجبرتي: 1753م-1822م).

جهَّز حمودة باشا باي تونس ثلاثين ألف مقاتل بإمرة أحد قواده وهو «مصطفي خوجة»، وطلب إليه تحرير ما احتلّه برغل من تونس، وطرده من طرابلس، وهكذا تحالف

القرمانليون مع حمودة باشا، وأغاروا جميعًا على عساكر برغل، فلم يجد ملجأ إلا البحر يركبه، ويفر بِجِلْدَتِهِ بعد أنْ جمع الأموال والنّفائس، حاملًا معه ماخَفَّ وزنه وغلا ثمنه، واستعاد القرمانليون البلاد بتاريخ 1795/1/16، وغَرَّمَ القرمانليون الأهالي المستكنين دفع كلفة الحملة الحربية من مصاريف، وقُدِّرت بسبعمئة ألف قرش.

(دام حكم برغل نحو سنة وخمسة أشهر.)

الرَّجل الرّابع: أحمد باشا الثاني القرمانلي: (1795م)

بهروب بُرغل توَلَّى أحمد الثاني الحكم بعد تنازل أبيه له، كما عُيِّنَ يوسف قائداً للجيش، وخلال شهر بدأ يوسف تمردًا، ويطيح بأخيه أحمد، ويُصبح هو الآمر الناهي.

الرّجل الخامس: يوسف القرمانلي: (1795-1832م)

بينما كان أحمد الثاني خارج أسوار طرابلس، أخذ يوسف يَعُدُّ لانقلاب على أخيه، ومع يوم 1795/6/23م أُغلقت أبواب المدينة، وأَطلقَ أنصار يوسف مدافع القلعة معلنة الاستيلاء على السراي الحمراء، وتربّع يوسف على كرسي الباشوات، وأُرِّخ ذلك بيوم 25 يونيو من السنة المذكورة.

(في المنهل العذب: كان خروج أحمد بك لناحية تاجوراء في شعبان سنة 1210هـ-1796م، وبقي في الولاية سنة وشهرين.)

أراد الباشا يوسف أنْ يكون أخوه «أحمد» تحت بصره، فأولاه إمارة «دَرْنَة» وما يتبعها، ولم يجد ذلك قبولاً لدى «أحمد الثاني»، فكان توجهه إلى تونس والتي اتخذها مقرًّا له، وهناك بدأت قصته العجيبة، ومحاولة استرداد عرشه بمساعدة الأمريكيين.

تولّى يوسف باشا القرمانلي حكم البلاد بأقاليمها الثلاثة (طرابلس، وبرقة، وفزان)، واستمر متربعًا في كرسي العرش لقرابة سبع وثلاثين سنة شمسيّة.

وثيقة: «يوسف باشا» رجل صغير السّن، كبير العقل، متقن لأحكامه، مستقلّ بالإرادة، جميل المظهر، لا يخلو من روح الدُّعابة، يجيد التحدث بالإيطالية، يحبّ الأُبَّهة والسلطة، ويتصرف باحترام دون مجافاة اللطف والمجاملة، ويهوى الترف والفخامة في أثاثه وزوجاته وفي تجهيز مساكنهن كما كان عنيفاً جبّاراً، ولما كان حريصاً على الاستقلال والسلطة فقد كانت له في ديوانه ما لا يليق إلا بالملوك من قواعد التشريفات.»

خلع يوسف باشا على مدينة طرابلس التّمدّن والانفتاح على غرار النَّمْط الحضاري لمدن البحر الأبيض المتوسط، وقد عرفت الصناعات التقليدية ازدهاراً ملحوظًا، وفي هذا تناولت الباحثة الطرابلسية خديجة محمد الثني بجهاز إدارة المدينة القديمة الصناعات

التقليدية في مدينة طرابلس: صناعات النسيج (منسوجات صوفية وحريرية وقطنية ورجالية ونسائية)، وصناعة المعادن (الذهب والفضة والنحاس والقصدير)، والصناعات الجلدية والصناعات الخشبية، وهذه الدراسة لم تُطبع حتى الآن.

وفي التِّسعينات من القرن العشرين صدر كتاب «الحرفي المبدع « للباحث اللغوي الطرابلسي عبدالله بن سويد مؤلف هذا السِّفر الذي بين يديك، والبحث دراسة لسانية لأسماء الحرف التقليدية، ويصدر الآن في طبعته الثانية عن «جهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس 2021م.»

قَضىَ يوسف باشا على الفوضى، حيث جابه قُطّاع الطرق بشدّة وحزم، وأمر بتنفيذ القوانين الرّادعة، فَعَذّبَ وسَجَنَ وأعدمَ، أرهبَ الأهالي بالقوة، وتمثلت عقوباته في الضرب بالعصا على الأقدام (الفَلْقَة)، أو على الظَّهر (الجَلْد)، وطَبّقَ حَدَّي السرقة والحِرَابة، كما أقرّ عقوبة الإعدام، فَأَمِنَ هو والبلاد، وأدى ذلك إلى ازدهار تجارة القوافل، فوصل الطرابلسيون إلى مناطق السّودان الأوسط، وأكّد الباشا على علاقاته التجارية مع الدول المطلة على البحر المتوسط.

وثيقة: «انقضت عشر سنوات ونصف السنة تقريباً والنّاس راضون عن الباشا يوسف كلّ الرضا... وكان قادراً على استخدام جميع الوسائل للحصول على المال اللازم للبلاد.» (ميكاكي)

أولى الباشا عنايته بالبحرية الطّرابلسية، فأعاد بناءها وتنظيمها وتسليحها، فأصبحت طرابلس مرهوبة الجانب بين الأساطيل الأوربية، وعانت نابولى وسردينيا وكورسيكا أكثر من غيرها، وبازدياد قوة الأسطول الطرابلسي كمّاً وكيفاً تمكّن من فرض شروطه، فتحصّل على الأموال من إتاوات وهبات في مقابل تأمين السّفن التجارية الأوربية وحمايتها من القراصنة وهي تُبحر في مياه المتوسط.

(طلب يوسف باشا من دولة السويد دفع 100 ألف فرنك عطية، و8 آلاف فرنك

سنويًا لحماية أسطولها التجاري في مياه البحر الأبيض المتوسط، وبرفضها أرسل أسطوله وغنم سفن سويدية، فالتجأت السويد إلى نابليون بونابرت- وهو وقتئذ في مصر- للمصالحة مع الباشا.)

وكان الأسطول الطرابلسي يأسر ويغنم السَّفينة التي لا تؤدِّي حكومتها الضريبة الجمركية، ولا تنصاع لطلباته، وكان الأوربيون يُوَدِّعون سفنهم التجارية من مراسيها بأوربا بقولهم: «حفظكم القدير من قراصنة طرابلس.»

والقرصان لفظ دخيل على اللغة العربية، من اللفظ «CORSARQ» ويعني: لصّ البحر، واستخدم للدلالة على أيّ مركب مسلح يقوم بالاعتداء على سفينة تجارية، ودرج الغرب المسيحي على إطلاق لفظ «القراصنة البرابرة» على بحارة السّاحل الإفريقي الذين يقومون بالغزو في مياه البحر الأبيض المتوسط.

وثيقة: «وأصبحت العمليات البحرية جزءاً من العصر ومظهراً سياسيًّا واقتصاديًّا ودينيًّا من مظاهر العلاقة بين دول البحر المتوسط، ولم يكن باستطاعة أحدٍ أنْ يطمس ملامح ذلك العصر بأكمله، وطوال سنوات انطلقت دول شمال إفريقيا تبسط نفوذها على البحر المتوسط، وتغنم السفن الأوروبية من دون استثناء.» (النيهوم)

وثيقة: «لو كان يمكن القيام بإحصاءات بالجرائم التي كان مسرحاً لها البحر المتوسط ما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، لوضعت على عاتق المسيحيين حصة ثقيلة من أعمال النَّهب والسّلب البحريين، والتي كُنّا بسهولة نضعها في حساب قراصنة البربر، فالشَّرُّ كان عالمياً.»(ماس لاتري)

عَيَّنَ الباشا «تاهية» وهو «أحمد بن مصطفى»، وزيراً للبحرية الطرابلسية، واستمر من 1795م، وإلى 1811م، و»تاهية» هو زوج كريمة علي باشا القرمانلي، وأخت يوسف باشا، ثُمَّ تولّى «مصطفى قورجي» وزارة البحرية من: 1811م، وإلى 1832م، وتذكر مصادر أنَّ قورجي رايس البحر كان مسؤولاً عن الجمارك والخزانة، ويرجع أصله إلى جورجيا بالقوقاز، وقد كان من مماليك الباشا يوسف الذي أعتقه فدخل الإسلام وتزوج إحدى كريماته، وقورجي هو الذي شَيَّد جامعه بالقرب من قوس «ماركوس أوريليوس» بطرابلس القديمة، وكان ذلك سنة 1834م، أواخر الدولة القرمانلية، وهو تحفة فنية ومزار للسّيّاح!!

ومجموعة قورجي المعمارية تتكوّن من الجامع وملحقاته، والدخول إليه عن طريق الزنقة الضيقة أو شارع الأكواش بالمدينة القديمة. أعمدة بيت الصلاة من المرمر، وتيجانها

مزخرفة بأشكال بيضاوية، والجدران مكسوة بالخارج بالزليج المتعدد الألوان، والمنبر من المرمر تعلوه قبة بها زخارف نباتية، أما السِّدَّة فهي من الخشب.

(في اللغة: زَلِجَ المكان: زَلِقَ وامْلاسَ، فزلّت فيه القدم، وتنطق جيم «الزّلِيج» زايًا في اللّهجة الطرابلسية لإحداث نوع من الانسجام الصوتي كما في قولنا: «زوز» في «زوج» بمعنى اثنين.)

وبيت الصلاة مربع الشكل (18×18م) ومسقوف بستّ عشرة قبة، ومحاط بأروقة من ثلاث جهات، على مستوى الدور الأرضي، وثلاثة أروقة تحيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات على مستوى الدور الأول، وللمسجد صحنان، وتربة مسقوفة بقبة هي من أجمل القباب في مساجد طرابلس، والوصول إليها من خلال المدرسة الملحقة بالجامع التي تقع خلف جدار القبلة.

وتحتوي المجموعة المعمارية على خمس عشرة خلوة، تنتشر حول الأروقة التي تحيط بصحن المدرسة، كما ألحقت بالمجموعة المعمارية مقبرة مفتوحة، وميضأة، ومراحيض، ومئذنة رشيقة مثمنة الشكل، وهي الوحيدة التي لها شرفتان في مساجد المدينة القديمة. هكذا وُصف في موسوعة الآثار الإسلامية.

وسجّلت الوثائق أسماء ربابنة ريّاس كبار منهم: الرّيّس محمد زريق، والرّيّس مراد (بيتر ليسلي) والرّيّاس: القرقارشي، وولد الحولة، والشيشكو، والشلّي، والدّبسكي، والدّاقيز، واحفيظ، والقزاز، وشعبان أفندي، وحسن الشّامي، وغيرهم، وكان للرّيّس محمد زريق دور كبير في أسر السفينة فيلادلفيا، وكان للرّيّس مراد دور في مجابهة أساطيل الولايات المتحدة الأمريكية في البحر الأبيض المتوسّط.

(الباحث الطرابلسي عبدالمنعم سبيطة يلقي الضوء على أحداث هذه الفترة في مداخلاته عبر التواصل الاجتماعي، ومحاضراته بجهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس (2019 - 2020م)

صدرت الأوامر من الباشا يوسف لجلب المواد الخام الضّرورية لصناعة السفن. أُنشئ

فرن لصهر المعادن، واشتريت المدافع والذخائر، وتشير التقارير إلى أنّ عدد العاملين في التِّرسانة (دار صناعة السفن) كان قرابة مئة وعشرين فنيًّا وعاملاً، لهم أجور ومرتبات ومنح وهدايا.

وتَنوّعت سفن الأسطول الطرابلسي، وسجلت الوثائق أنّه بقدوم يوسف باشا لم يكن هناك إلاَّ بعض السفن والّتي كانت النُّواة، وفي خلال سنوات قليلة أصبح لدى البحرية الطرابلسية قرابة 18 سفينة مختلفة الاحجام، على ظهرها مدافع كبيرة وصغيرة، وقرابة 128 قاعدة مدفع، ومن أنواع تلك السفن الحربية تذكر المصادر:

- القريبطة: سفينة مدببة الحيزوم مدببة الصدر، ذات أشرعة ومجاذيف.
- الفرقاطة: بارجة حربية سريعة، كانت تسير بالشِّراع.
- السَّكُّونة: مركب شراعي، مبطنة بالنَّحاس، وتتميز بالخفة والسرعة.
- الطّراد: سفينة صغيرة وسريعة، لها صارٍ واحد يحمل شراعاً.
- الزوارق: أحد عشر زورقاً، كل زورق مسلّح بمدفع واحد.
- الفلوكات: من توابع السفن الكبيرة، لنقل الرّكاب والمؤن.

وتسجّل الوثائق الحرب الطرابلسية الأمريكية (1801-1805م) أربع حملات حربية أمريكية خلال أربع سنوات، الأولى بقيادة الكومودور ديل، والثانية بإمرة الكومودور مورس، والثالثة برئاسة الكومودور بريبل، والرابعة بتوجيه الكومودور بارون.

بإعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية في اليوم الرابع من شهر يوليو 1776م أخذت تنشئ قوة تلوّح بها لمدن الشمال الإفريقي (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس).

وبحضور القنصل الأمريكي كاثكارت افتتحت القنصلية الأمريكية وكان ذلك بتاريخ 10 من شهر أبريل 1799م، وتوالت الأحداث في عهد هذا القنصل، وأخذ كاثكارت يماطل في التزامات الولايات المتحدة التي قطعتها نحو طرابلس، وأصبح رجال البحرية الطرابلسية في حالة غضب شديد ضد السفن الأمريكية التي تجوب البحر الأبيض المتوسط من دون أنْ تدفع الجزية المترتبة عليها.

يرسل الباشا وزيره للخارجية «محمد الدغيس» للقنصل الأمريكي ليعلمه بقطع العلاقات، وقام رجال الباشا بإنزال العلم الأمريكي من سارية القنصلية، وفي 14 مايو

1801م أعلن يوسف باشا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، وفي 8 ديسمبر من السنة المذكورة يوافق الكونغرس على إعلان الحرب على طرابلس ردًّا على إعلان الباشا، ومن أهم أحداث هذه الحرب أسر السفينة فيلادلفيا.

في عهد الرئيس جيفرسون، ومع أوائل شهر أكتوبر من عام 1803م، شارفت الفرقاطة فيلادلفيا والسَّفينة «فينكس» ساحل طرابلس، وأخذتا ترقبان الشاطئ وتحركات المراكب والسفن الداخلة والخارجة، وبعد أسبوعين من المراقبة والترصُّد ظهرت سفينة نمساوية وهي تغادر الميناء، فاستفسر آمر فيلادلفيا قبطانها الكابتن «بينبريدج» عن السُّفن الطرابلسية، فَأُبْلِغَ أنّ هناك سفينتين لا تزالان في عرض البحر، وقد جعلت هذه المعلومة بينبريدج يُكلّف السفينة «فينكس» أنْ تقصد ساحل تونس لحماية السفن التجارية الأمريكية، وتقوم بالتحريات اللازمة لمعرفة موقع هاتين السفينتين الطرابلسيتين، كما يذكر تاكر **Taker**.

بتاريخ 1803/10/31م. وقعت الفرقاطة الرشيقة فيلادلفيا في أيدي الطرابلسيين، فكان ذلك أهم حدث في تاريخ الصدام البحري المسلح بين طرابلس والولايات المتحدة في عهد الكومودور بريبل **Preble** قائد الاسطول الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط، فكيف سارت الأحداث في ذلك اليوم؟

هبت زوبعة عنيفة ساحبة فيلادلفيا ثمانية عشر ميلا إلى الشرق من الميناء، وهناك رأى بحارة فيلادلفيا سنبك طرابلسي، فأمر الكابتن بينبريدج بمطاردته فورا، وبرؤية قبطانه للفرقاطة الأمريكية اتّجه صوب الميناء سالكًا طريقاً ضحل المياه تبرز فيه صخور كثيرة.

*(تاكر، **taker** هو مؤلف كتاب «سقوط مثل الرعد**Down like Thunder**» يتحدث عن وقائع الحرب الطرابلسية الأمريكية، وفيه تظهر رؤية المؤلف ومواقفه تأييدًا للولايات المتحدة الأمريكية، وتنديدا بالقراصنة البرابرة الطرابلسيين على حدّ وصفه.)*

أصبحت فيلادلفيا على بعد أربعة أميال من الشاطئ، والغاطس وهو جزء السفينة الذي في الماء ما بين 18 و20 قدماً، وعمق الماء ما بين 7 و10 قامات.

(قياس الغاطس بالقدم، والقدم قرابة 33سم، وقياس العمق بالقامة وهي 6 أقدام حوالي 188سم، وقياس المسافة بالميل البحري وهو 1852متراً.)

ارتطم قعر فيلادلفيا بحاجز رملي عريض، وأخذ بينبريدج يصرخ بأعلى صوته: اقطعوا المراسي إلا مرساة واحدة، أسقطوا الصواري، شغلوا المضخات، واسترخى بدن فيلادلفيا على الرمال الناعمة، ولم يأبه لعويل الضباط والبحارة، لقد وقعت فيلادلفيا في الشَّرْك.

وثيقـة: «لقد أرادت فيلادلفيا أنْ تُخضع الطرابلسيين فإذا بالأمريكيين يُذْعَنون ويَستكينون للطرابلسيين، فيا لها من مفارقة عجيبة.» (النيهوم)

(أفردت موسوعة «تاريخنا»- بإشراف الصادق النيهوم- فصلاً كاملاً لأحداث أسر السفينة فيلادلفيا، ومن خلال السَّرد تبدو وجهة نظر الصادق النيهوم، الكاتب الليبي المعروف، هذا وقد عقدتُ مقارنة بين رؤيتين أمريكية (تاكر) وليبية (النيهوم) وكانت المحاضرة بجهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس أوائل سنة 2020م.)

أحاطت بفيلادليفيا تسعة زوارق طرابلسية غاصّة برجال أشداء، وفَتحتْ نيرانها، وردت فيلادليفيا بمدافعها الثقيلة، والتحقت أربعة زوارق طرابلسية أخرى بالتسعة، وكان على أحدها الرَّيس مراد شخصيًا (بيتر ليسليى)، وتسلَّل زورق طرابلسي إلى جهة قريبة من أحد جوانب فيلادلفيا، وانهمر الرصاص منه بقوة.

وثيقـة: «يا لها من لحظة كئيبة، فيلادلفيا تلك الفرقاطة التي تبرّع بها أهالي المدينة الجميلة فيلادلفيا، ورصف بناءَها عبقريةُ المهندس «فوكس»، والتي كانت جديرة بأنْ تكسب سمعة مشرفة في خدمة وطنها قد وقعت في يد العدوّ الشرس، ها هو يُنْزِلُ العلم عن ظهرها، والشّمس تنحدر في الغرب، حزينة على مجد يومها المحتظر»! (بينبريدج)

وثيقـة: «أطلقت الولايات المتحدة الكومودور «بريبل» على سواحل طرابلس بمثابة قذيفة انفجرت بين الأمريكيين، وافتتح بريبل حربه في المتوسط بخسارة الفرقاطة فيلادلفيا في أسوأ كارثة بحرية تسجلها ملفات الأسطول الأمريكي قبل كارثة بيرل هاربر.»(النيهوم)

رقي سطح فيلادلفيا طوفان من البحارة الطرابلسيين، واقتادوا الأسرى في الفلوكات الطرابلسية، وكان عددهم 305 ما بين ضباط وجنود ورجال خدمة، وبمهارة البحار الطرابلسي، وبمعرفة شاطئه، والاستفادة من رياح البحر المعروفة لديه- انزلقت فيلادلفيا من مستقرها الرَّملي إلى مسبحها في الماء، وهَلَّلَ البحارة الرّياس الطرابلسيون وكبروا، وعمّهم الفخر لبراعتهم في فنون البحر.

سُرَّ تاهية وزير البحرية الطرابلسية، وفرح الرّيس مراد، وعمت البهجة شوارع طرابلس القديمة وأزقتها، وأخذ الناس يتجوّلون بالمشاعل ليلاً وهم ينتظرون وصول الفرقاطة الأسيرة بصحبة البحارة الطرابلسيين، وعلى رأسهم الرّيس «زريق».

دخلت الفرقاطة فيلادلفيا بأشرعتها الضخمة المرفأ وبأعلام طرابلسية، ورست في موقعها في حماية مدافع القلعة، وسِيقَ الأسرى إلى السَّراي الحمراء، مقر الحكومة وقصر الباشا، ذات الجدران المرتفعة، والدهاليز والسراديب المظلمة.

وثيقة: «دخل الضّباط الكبار من الأسرى قاعة العرش، «وكان الباشا يجلس على عرشه الصغير المزخرف بالطريقة التركية، منظره جذاب، حسن الصورة، يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين»، (الأسير الأمريكي الطبيب «كودي» في يومياته).

ورأى الأمريكيون عرشًا شرقيًّا مرصعًا بالموزاييك، يرتفع عن الأرض أربعة أقدام، وتغطيه سجاجيد شرقية ذات حواش، لها شرابات موشاة بالذهب، وعلى الأرضية كانت السجادات العجمية الرائعة، وخلف العرش بدت الحيطان مكسوة برسوم بهية الألوان.

وثيقة: «وكان الباشا في حلّة من الحرير الموشي بأسلاك ذهبية، تمنطق بحزام مرصَّع يتدلّى منه سيف، مقبضه من الذهب، ومسدسان مرشوقان بالذهب على جانبيه، وهو جالس على عرشه، وملامحه تثير الفضول.» (تاكر)

ونُقِلَ الأسرى إلى سراديب القلعة وسجون أخرى بالبلدة، وخُصّ مبنى القنصلية الأمريكية لذوي الرّتب العليّة، كما رأى «محمد الدَّغيس» الطرابلسي وزير الخارجية المرموق عند الباشا.

*(بعد وفاة محمد الدغيس تولّى ابنه حسونة وزارة الخارجية سنة **1815**م وعمره خمس وثلاثون سنة، وبمشاركة من الباحث الطرابلسي عبدالمطلب أبو سالم في «أعلام طرابلس» يذكر أنَّ حسونة محمد الدغيس (**1778-1836**م) هو مترجم كتاب «المرآة» إلى الفرنسية، لرفيقه حمدان خوجة الجزائري سنة **1833**، من رجال الفكر، والدغيس المذكور أول صحفي ليبي حيث أسندت إليه مهمة تحرير النسخة الفرنسية من صحيفة «تقويم وقايع «وهي الصحيفة الرسمية للدولة العثمانية.)*

والقنصلية الأمريكية سابقاً بزنقة الحمام الصغير (حمام درغوت) بباب البحر رقم

24، اتّخذته الولايات المتحدة الأمريكية قنصلية لبعثتها بدءًا من سنة 1799 وحتى سنة 1829م.

اشترت عائلة الثني الغدامسي هذا الحوش سنة 1868م، كما تدل وثيقة وقفية الغدامسي الإرثية، ويعود تشييده إلى عهد الأسرة القرمانلية، وسماته المعمارية تتشابه مع القنصلية الدنماركية بزنقة الريح، وحوش القرمانلي بالأربع عرصات، وقد أعدت الباحثة أحلام أبو زبيدة والباحث عبدالرزاق قريرة ضمن مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة- دراسة عن العلاقات الطرابلسية الأمريكية (1796-1805) وأشارا إلى مبنى القنصلية من خلال يوميات الطبيب «جوناثان كودي» الأسير وما ذكره من صعوده إلى سطح المنزل وملاحظة الميناء والبحر، ومشاهدة فيلادلفيا الأسيرة، كما أشارا إلى أنَّ يوسف باشا أمر بعد ذلك بسدّ الممر الذى كان يؤدي إلى السطح.

وعمَّ الغضب الكومودور بريبل آمر الأسطول وهو يَسَّمَع الأخبار بأسر إحدى سفنه الرائعة، وتُلْقِي وزارة البحرية الأمريكية اللوم عليه، فيأمر بإعداد خطة لإحراق فيلادلفيا، فهي الحلّ الوحيد لسلب الباشا قوّته في المفاوضات كما رأى، وفي العاشرة ليلاً من يوم 1804/2/16م، يتوجه الضابط «ديكاتور **Decatur**» بسفينته «انتربيد» وعلى متنها 62 جندياً بملابس مدنية، وبسرعة ومباغتة يتمكّن رجاله من علوّ سطح فيلادلفيا، وغرس المواد الحارقة في كلّ جهاتها، وإضرام النار فيها، وارتفع سنا اللهب وأبصره مَنْ كان على الشاطئ الطرابلسي، واستيقظت طرابلس في منتصف الليل في حالة فزع وذعر، والناس تردِّد: الأمريكان – الأمريكان!!

علا السرور وجه الرئيس جفرسون، واستحسن البابا في الفاتيكان هذا العمل، واللورد الإنجليزي نيلسون صاحب موقعة أبي قير يدلي بتصريح جاء فيه: «هذه أجرأ العمليات البحرية التي أُنجزت في هذا العصر.»

بعد وفاة ديكاتور – حارق فيلادلفيا - بستة وعشرين عاماً، نُقِشَ على قبره: «هنا يرقد رجل كان رمز كبرياء البحرية، وفخر الجمهورية»، وحملت عشرون مدينة وناحية في الولايات المتحدة اسمه.

في عهد الكومودور الرابع للأسطول الأمريكي في المتوسط (صمويل بارون) كانت الخطة مساعدة أحمد القرمانلي الثاني في الوصول إلى الباشوية، وهو ما أدى إلى الهجوم

على درنة واحتلالها لفترة قصيرة بتاريخ 1805/4/27م، وفي طرابلس كانت المفاوضات

بين الولايات المتحدة والباشا قد خَلُصَتْ عن اتفاقية صلح وسلام بين الفريقين، عشرون مادة منها تخدم المصالح الأمريكية، وبتاريخ 1805/7/4م، عاد الأسرى الأمريكيون إلى بلادهم، وحفظ الباشا يوسف عرشه، ورأت الولايات المتحدة أنها انتصرت في حربها وحققت أهدافها، فصار لقب (بحارة شواطئ طرابلس) فخرًا أمريكيًا، وأصبحت كلمة «طرابلس» ضمن مفردات نشيد البحرية الأمريكية.

ترنيمة البحرية الأمريكية **THE MARINES HYMN**

من قاعات منتزوما .... إلى شواطئ طرابلس

نخوض معارك بلادنا .... في الجوّ والبرّ والبحر

From the Halls of Montezum,

To the shore of Tripoli,

We fight our country›s battels,

In the air, on land and sea,

وفي طرابلس احتفل الباشا يوسف بانتصاراته على أمريكا، فها هو لا يزال في سُدَّة الرئاسة، وأربع سنوات من الحرب لم تؤثر في معنوياته، ولم تزعزعه قيد أنملة من مكانه، بل وافق الأمريكيون ضمناً على بقائه في الحكم.

(هكذا هم الحكام المخذلون الخاسرون في كل مكان وزمان يرون أنهم حققوا النصر إذا بقوا في كراسيهم.)

وثيقة: «قَدِمَتْ سفن الولايات المتحدة كي تسقط يوسف باشا، فإذا بها تعود حاملة تعهداً بحمايته من السُّقوط.» (النيهوم)

في السّنين الأخيرة من حكم يوسف باشا شهدت طرابلس استعراضات حربية أجنبية إرعابًا وإذلالًا، ووقع يوسف باشا معاهدة تجارة وملاحة مع خصومه الأمريكان في 11 أغسطس 1830م وتنص على منع القرمانليين من زيادة الأسطول، فتضرَّر موردان أساسيان للولاية: البحرية وتجارة القوافل، فحلّت اللعنة، ساءت الأحوال وفرغت الخزينة من الأموال فتنادى الأهالي بخلعه، ورضي يوسف بذلك، وعهد الولاية لابنه علي

القرمانلي الثاني في شهر أغسطس من سنة 1832م.

وثيقة: «إنّ يوسف باشا لما انتقل من طور الشبيبة إلى طور المشيب استهان بأهل الإيالة، وحمّلهم أكثر من طاقتهم حتَّى آل الأمر إلى فاقته وفاقتهم» (النائب الأنصاري)

وثيقة: «لمّا أفرط (الباشا يوسف) في ظلم العباد، وخراب البلاد، والسعي بالفساد كبيع المدافع، وتفريغ الخزينة، وتركيب الدّين عليه في غير ضرورة أحوجته، لا لمرتب عسكر، ولا لدفع عدو، ولا نحو ذلك، ضرب الجزية في كل عام على أهل البلاد من حاضر وبادٍ، مِمّا أوجب خلعه ونبذ كلمته هو وولده» (أحمد القليبي)

الرّجل السَّادس: علي القرمانلي الثاني (1832-1835م)

تزوج يوسف باشا عددًا من النساء، بين بيض وزنجيات فرزق منهن بثمانية أولاد وستّ بنات، واختار من بينهم ابنه «علي»، المولود من امرأة بيضاء لولاية العهد، وبإعلانه حاكما على البلاد، تبرَّم أهالي المنشية والسّاحل ويشقون عصا الطاعة، وإذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة» بعبارة الأنصاري، فأمر الوالي بهدم بيوتهم بالمدافع.

وصراع على السلطة بينه وابن أخيه محمد بك (حفيد يوسف باشا)، وجاهر القنصل البريطاني «وارنغتون» بعدم موافقته لتولّي علي الثاني العرش، وطلب الأهالي من الآستانة تهدئة الأمور- كلّ ذلك قَدَّمَ فرصة ذهبية للتدخل العثماني واسترجاع قوتها بالسيطرة على البلاد الطرابلسية، لتنهي الأسرة القرمانلية بعد مئة عام وأربعة عشر عامًا.

وثيقة: «انقرض آل القرمانلي وتفرقوا أيد سبأ وحصل المُنَى.» (النائب)

العهد العثماني الثّاني (1835-1912) (77 سنة - 33واليًا)

(العهد العثماني الثاني إلى أواخر سنة 1912م وبمعاهدة أوشي لوزان كانت نهايته!)

مصطفى نجيب باشا (1835م)

بتاريخ 14 مايو 1835م دخلت ميناءَ طرابلس اثنتان وعشرون سفينة كبيرة وصغيرة، وكان على إحداها ممثل السلطان العثماني «مصطفى نجيب باشا»، وطلب علي باشا الثاني القرمانلي، فأتاه إلى السفينة مع اثنين وثلاثين من أقربائه، فحجزهم، وأعلن عودة البلاد للحكم العثماني.

محمد رائف باشا (رئيف باشا): (1835م)

وصل هذا الوالي إلى طرابلس في شهر أغسطس من السنة المذكورة، وقد لاحظ عدم موافقة الأهالي والقبائل القاطنة وراء المنشية على نفوذ العثمانيين، فلم يعترفوا به، ولم يظهروا عدم موافقتهم بالثّورة، بل باللّامبالاة، وبمقاطعتهم أسواق طرابلس، وقد دفع هذا الموقف «رائف باشا» إلى إرسال جُنده لإخضاع تاجوراء وجنزور والزّاوية وقرى أخرى، بقصد إجبارهم على تقبّل الوضع الرّاهن، والمشاركة التجارية في أسواق طرابلس، ولكن الآستانة رأت أنَّ لجؤه إلى العنف، وسقوط قتلى كثيرين من الأهالي في بداية عهد جديد للعثمانيين قد يؤدى إلى قلاقل، وهو بهذا ليس بالرّجل المناسب، فاستدعته واختارت شخصية أخرى للإيالة.

(كان محمد بك حفيد يوسف باشا في جهات من تاجوراء فاستدعاهم الوالي الجديد هو وجماعته ليكونوا تحت بصره، وقد رفضوا الانصياع للأمر وهم يتمتعون بحماية التواجير، فبعث رائف باشا الأمير الآي طوسون الذي استولى عساكره على أموال وحيوانات التواجير.)

طاهر باشا - حسن الجشمهلي (الجشمة لي) باشا - عشقر باشا (1836-1842م)

في هذه الفترة الزمنيّة ثلاثة ولاة تملّكوا الإيالة، وخلال حكمهم كانت البلاد تشتعل بالثورة، وتسجل الوثائق ثورتين كبيرتين: ثورة في الجبل الغربي (غومة المحمودي)، وأخرى في المنطقة الوسطى (عبدالجليل سيف النصر) وتذكر المراجع التاريخية هاتين الثورتين بتفصيل، وليس من غرضنا في هذا المصنف.

شهدت المدينة عنفًا زائدًا عن الحد، وقسوة في جباية الضرائب، وقمع كلّ حركة عصيانية أو تمردية خلال حكم طاهر باشا (مارس 1836م)، وقد زاد من سوء الأوضاع وباء الطاعون الذى اجتاح المدينة وضواحيها في 1836، وكان يموت كل يوم ما يتراوح بين 35 إلى 40 شخصا، وهجر بعض السكان المدينة، وخرج القناصل وبعض أفراد الجالية الأوربية إلى مالطا وإيطاليا، وبلغ الوباء أقصي عنفه في فبراير 1837، وقد ذكر أحد القناصل في رسائله أنّ سكان المدينة قد هبط من سبعة آلاف إلى أربعة آلاف نسمة.

وتولي حسن الجشمهلي باشا (أبريل 1837م) فسلك مسلكا يتسم باللّين والتسامح والمهادنة وسَعَى لتخفيف الشدة التي اتَّسم بها سلفه، وقد شعرت المدينة بشيء من الراحة والاطمئنان النسبي، وحاولت بشكل محدود تجاوز ظروف المجاعة والقمع والإرهاب.

ولم يكن هذا الوالي يجنح إلى السكون عن ضعف ولكنه كان ينفذ خطة ترمي إلى استمالة الأهالي واسترضاء الزعماء وتحقيق السيطرة بالطرق السلمية.

وسلك عشقر باشا (1838-1842م) سياسةً عنيفة ضِدّ الأهالي، وتولّى أحد قواده وهو المُلَقَّب بِ «الجَزّار» الذي بَثَّ الرعب والفزع في قلوب الناس، وتُسَجِّل الوثائق هجرة الآلاف من أهالي طرابلس والدواخل إلى تونس والجزائر ومراكش ومصر، هربًا من بغيه وجوره، وشملت حالة من الركود التجاري المدينة، وتعطلت حركة التجارة في الداخل.

محمد أمين باشا (1843م- 1847م)

من أعمال هذا الوالي أنّه أجرى التنظيمات الخيرية، ورتّب القضاءات والمديريات واللِّواءات وأسس المجالس والأعلام والأقلام، وجَعَلَ قصر الضِّيافة القرمانلي الّذي يَطُلُّ على شارع الزاوية مستشفى عسكريًّا، وقد تحوّل بعد ذلك إلى عيادة خارجية تابعه لمستشفى طرابلس المركزي (مستشفى شارع الزاوية)، وكان ذلك في الفترة الإيطالية، ثم أُزيلت العيادة.

(يشير روسي في كتابه ليبيا منذ الفتح العربي... أن افتتاح المستشفى العسكري في المنشية كان سنة 1853م، في عهد الوالي مصطفي نوري، ويشير الزاوي في كتابه ولاة طرابلس أن محمد أمين أنشأ المستشفى العسكري بالمنشية، ويبدو أن الافتتاح كان في عهد مصطفي نوري ويستدل روسي على ذلك باللوحة التذكارية التي تحمل تاريخ 1271هـ/ 1853م.) (الباحث التاريخي سعيد علي حامد)

حاجي أحمد عزت باشا: (1848م- 1850م)

كانت الحاصلات الزّراعية في أوّل سنة من عهده على قدر لا مثيل له من الفيض والبركة، ومع سنة 1850 تعرضت طرابلس إلى وباء «الكوليرا» والّذى ذهب بأرواح ثمانمئة شخص خلال ثلاثة أشهر، وقد ذُكِرَ أنّ عدد السّكان تقلّص منذ الأسابيع الأولى

لتفشي الوباء، فلم يعُدْ ليزيد عن خمسة آلاف نسمة، وبلَغ عن 800 حالة وفاة، ولجأ قسم كبير من الطّرابلسيين إلى مالطا وتونس.

وقد ذُكِرَ أن جنديين هربًا من الجزائر إلى طرابلس وأعلنا إسلامهما وجرى قيدهما في السلك العسكري العثماني وبعد مرور شهرين هربا من الجندية، ولما جُلبا من قبل ضباطهما وأودعا السجن، قام القنصل الفرنسي «بيليسيه دي رينو **Pelissier De Reynaud**» مطالبًا باستردادهما باعتبارهما من رعايا دولته، وإذْ لم يُسْتَجب لطلبه فقد جاءت تسع قطع حربية فرنسية استهدفت كل واحدة قلعة، وتأهبت للقصف، فوافق الديوان على إسعاف النصارى بطلبهم وقفلت الأساطيل.

من أعمال هذا الوالي أنّه ضاعف عدد الحاميات، وزاد أفراد العسكر، ووقف في وجه المطامع الأوربية، واصطدم مع القناصل وخاصة قنصل فرنسا الذي طلب من الباشا تبريرا لزيادة القطع الحربية الطرابلسية، وبدئ في إحصاء النفوس.

أحمد عزت باشا: الولاية الأولى (1857-1860م)

الولاية الثانية (1879-1880م)

(هذا الوالي كان متصرّف بنغازي، وهو غير سَمِيّه «حاجي أحمد عزت باشا» المذكور سابقا.)

خدم هذا الوالي المعارف بتأسيس مدرستين للذكور في طرابلس، إحداهما ابتدائية والأخرى رُشْدِية عصرية، كما وأوجد مؤسَّسة صناعية وأسس مكتب الصنايع، وأقام منارة في ميناء طرابلس، وضاعف متانة السور والقلاع، وأجرى إصلاحات.

وثيقة: «إنه وزير مدبّر عاقل خطير، له آثار قيّمة في إعمار البلاد»(محمود ناجي)

وثيقة: «وكان عالمًا نبيهًا، صافي السريرة، متوشّحًا بالصبر والحلم والبأس، له الرأي الثّاقب، الذي لا تخفى مكائده، وتظهر فوائده، ويرى العواقب في مرآة عقله، وبصيرة ذكائه وفضله، كأنّه ينْظُر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، ويطالعه بعين السَّداد والتوفيق... وهو أول من أَسَّسَ المكاتب الرشدية، واعتنى بأن البوستة (البريد) فابتاع باخرة وسمَّاها «المولودية»، وأعدَّها للسَّفر بالمحررات الرّسمية وأوراق المخابرات التجارية... وقام بأعباء الولاية كعادته بهمّة، ورأي كالسَّهم أصاب غرة الهدف، ودعاء كالبحر في الغور وقُرب

المَغرف... وحَمَلَ النّاسَ في الاجتهاد بالعمارة على أحسن المذاهب، ومنعهم من التحاسد على المواهب... وكانت أثاره: تأسيس مكتب الصنائع، ومستشفى الغرباء، وإصلاح ما تَلَمَ من القلاع والأسوار، وتأسيس سوق الحميدية... وبالجملة فأخباره ذكيّة وآثاره زكية» (المنهل العذب)

(ينسب إلى الوالي أحمد راسم باشا، تشييد مستشفى الغرباء وسوق الحميدية، ويظهر أن راسم باشا قام بالصيانة والترميم وسيجيء الحديث عنهما)

محمود نديم باشا: (1860 - 1866م.)

بلغت ولاية محمود نديم باشا ستّ سنوات وثلاثة أشهر ذاق فيها الطرابلسيون شيئًا من الطمأنينة والأستقرار، وقد أشاد الأهالي بسيرته، مَدَّ خطوط البرق بين طرابلس وبرقة، وانشغل بتطوير مزروعات المدينة، وصناعاتها في الحدود الممكنة، جلب غرس الزيتون من منابتها ووزّعه على أهالي منطقة مسلاتة وترهونة وحملهم على غرسه، فَغُرِس ونَبَتَ نباتاً حسناً، وتأسست في عهده مطبعة بقصر الحكومة لصحف الأخبار والوقائع، وسميت صحيفتها «طرابلس غرب».

ونشبت في فترة حكمه ثلاثة حرائق كبيرة، تَسَبَّبَ الأوّل في خراب شبه كامل للخزائن والسِّجلات الإدارية في طرابلس القديمة، وكان الحريق الثّاني في شهر مايو من سنة 1865م، حيث اشتعلت النّار في مخزن بارود البرج الأحمر فَقُتِلَ فيه ثلاثمئة جندي، ومئة من الأهالي المدنيين، ودُمِّر أربعون مسكنًا تقريبًا، وكان الحريق الثّالث بإضرام النّار في كنيس يهودي في «زليتن»، بقصد إجبار التّجار اليهود على الرّحيل.

ويُذْكَرُ لهذا الوالي أنّه أبطل ما كان يُعْمَل في ليلة عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) حيث كان بعض الشُّبّان يحملون شبه رأس جمل، ويتجولون به في أزقة البلد والحارات، وهو احتفال موروث عن العبيديين (الفاطميين)، وهو إشارة إلى موقعة الجمل (جمادى الآخرة 36هـ/ نوفمبر 656م) وكانت على ظهر الجمل عائشة بنت أبي بكر وهي تحارب علي بن أبي طالب، والوقعة مذكورة في كلّ كتب التاريخ، وكان الانتصار فيها لكتائب علي، وأُسِرَتْ عائشة ثم أُطلق سراحها بكفالة أخيها «محمّد» الذي كان في صفّ علي، وهو من الذين شاركوا في مقتل عثمان بن عفّان.

(يذكر الأستاذ المبروك فنقة في مذكراته عن المدينة القديمة (مخطوط تحت الطبع)، وهو من سُكّانها القُدامى، وهو أسن منّي - أنّه في الخمسينات والستينات من القرن العشرين كانت هذه العادة، وكان الأولاد يرددون: «الجمل قطّع قياده، الجمل خش الحمادة»، وهي عبارة تدلّ على الخسارة التي مني بها أصحاب موقعة الجمل)

ولأنّ الحياة التجارية انتعشت في عهد محمود نديم باشا وأشادت به القناصل فقد استدعته الآستانة ليشغل موقعا بارزًا في المجلس الأعلى للإمبراطورية العثمانية، فغادر طرابلس في 30 يوليو 1866م.

علي رضا باشا: الولاية الأولى: 1867-1870م

الولاية الثانية: 1872-1874م

قَدَّمَ لنا الرّحالة والمؤرخون صورة حسنة لهذا الوالي الّذي تلقّى تعليمه العالي في فرنسا، وتَدَرَّجَ في المناصب الإدارية والعسكرية العثمانية وبلغ رتبة «مشير»، وتولّى الولاية مرتين، وجمع في شخصه بين الولاية وقيادة قواته العسكرية، وهو ابن حمدان خوجة الجزائري (قاضي مدينة الجزائر)، صاحب كتاب (المرآة) أحد رجالات الفكر والإصلاح، الذي نقله حسونة الدغيس إلى الفرنسية ونشر في باريس سنة 1833م، وحمدان خوجة والدغيس من أبرز أعيان القولوغلية في الجزائر وطرابلس كام يدون الباحث الطرابلسي المحقق عمار محمد جحيدر.

وقد حَظِيَ علي رضا باشا بتعاطف الطرابلسيين وإعجابهم به حيث كان حريصًا على رقي الولاية، ومن أعماله: إصلاح مطبعة الولاية الحجرية، وحَثّ الحكومة العثمانية على إصدار قوانين تتعلّق بإنشاء قَضَاء مدنيّ وجزائيّ وتجاريّ، كما وزّع الأراضي على الأهالي وأعفاهم من الضرائب عليها وشجع على الاجتهاد في الزراعة.

أنشأ مكانًا لمعرفة الأوقات ووضع عليه ساعة ذات ناقوس كبير، يُسْمَعُ من مسافة بعيدة في زاوية بارزة من مدخل سوق التَرك وهذا هو برج الساعة، بإنفاق ميزانية دائرة الأوقاف، والمبنى يشبه مئذنة مربعة، ترتفع عن الأرض بمقدار 8 أمتار.

والمبني من طابقين، كل طابق تَطُلُّ منه أربع نوافذ، وللطابق الأرضي بوابة، وقد استخدم هذا البرج في، أغراض الموانئ والمنائر، وكانت دقات السّاعة كلّ ساعة، «تُبَدِّد

الكسل عن كواهل الأذهان المتعبة، والأبدان المكدودة في النهار، وتقْطَع الصّمت في هجيع الليل» بعبارة الباحث الطرابلسي نجم الدين غالب الكيب، وبتعرض برج الساعة للإصابة في الحرب العالمية الثانية فتوقفت الساعة عن العمل، ويظهر أنَّ أجزاء منها قد هُرِّبَتْ إلى الخارج من قِبَلِ الذين يُتاجرون بالحديد والخُرْدة!!!

(لأنَّ الوقت لم يَعُدْ له اهتمام في مدينتي، فلا أحدَ ينظر إليها، وهي على مؤشّر واحد لا تتحرك، والنّاس وقوف في ساحتها يعرضون الدولار واليورو، ويتنافسون في اقتنائهما، في سوق سوداء رائجة، في زمن لا دولة (2011-2021م)!!.)

وكانت لهذا الوالي محاولات في إحداث تقدّم اجتماعي بالبلاد في ولايته الأولى حيث اهتمّ بتسوية الطرق والمعابر داخل المدينة، ونظَّم البريد، ومدّ سلك التلغراف برًّا من طرابلس إلى قرب مدينة الخمس، وفجّر الماء بالمواسير في السبيل الذي أقامه لسقي الحيوانات، وشجّع حفر الآبار الارتوازية، وَرَبَطَ الأودية، وجعل لها ترعًا وسواقي، وسلّط مياهها على المزارع، وشجّع البناء خارج السُّور، فشيّد الأهالي «سوق العزيزية» وهو شارع الاستقلال الحالي واسمه نسبةً إلى السلطان «عبدالعزيز»، وأقام الأهالي الحديقة العمومية، وفي ولايته الثانية كان اهتمامه الأغلب بتطوير تجارة الحلفاء، فأنشأ لها مرسًى خاصًّا لتصديرها عُرِف بصقالة الحلفاء، بالقرب من ميدان الغزالة الحالي.

وثيقة: «يُعَدُّ من بين جميع الولاة» الذين تعاقبوا على حكم ليبيا- الشّخص الوحيد الذي غادرها دون أنْ يحقِق من وراء حكمها ثروةً خاصّة به، ولَعَمْرِي فإنَّ هذا وحده يكفينا في إجلاله والثناء عليه.» (شارل فيرو)

ويكتب أحد القناصل عن هذه الشخصية فيقول: «لو قُدِّر لمقترحات على رضا باشا التنفيذ من إصلاحات وتجديدات على النحو التي أريد لها لكانت كفيلة بإحداث تغير جذري في حالة البلاد، ولترتبت عليها نتائج حميدة»

وُصِفَ على رضا باشا بالشجاعة والجرأة إذْ أَنْقَصَ امتيازات القناصل الأوربيّين إلى ما تنصّ عليه الأعراف الدّوليّة، وكان القرمانليون في أواخر عهدهم الّذي اتَّسَمَ بالضّعف والاستكانة قد منحوا القناصل الأوربية امتيازات استثنائية.

وقد خصّ الرّحالة الألماني نختيجال هذا الوالي الجزائري الأصل الذي كان يحظَى بإعجابه وإعجاب السكان وكان مهتما بتحقيق التقدم، وقد خصّه بكلمة جاء فيها أنه

لا يرى إمكانية نجاحه، وأنّ آماله ستتحطم على صخرة مثل التي واجهت أمثاله.

وثيقة: «إنَّ البيت لا يُبْنَى مالم يكن قائما في أساسه على قاعدة صُلبة متينة، ولا يكمل هذا البناء إلا إذا كان متوافقا مع الأعمال والوسائل المتوفرة، وأمراء الشرق وحكامه قليلا ما يهتمون بوجود الأسس ولا يقيمون اعتبارا للوقائع كما تبدو، ويبنون قصورا في الهواء على غير أساس وبوسائل هزيلة وبلا تدبر وبلا عون من رجال أذكياء، وكثيرا ما ينهار قسم من البناء قبل تشييد الجانب الثاني منه، ويحدث أنْ يتخلى في هذه الحالة عن المشروع بأكمله لقلة العمال والوسائل.»

« إنّ أغلبهم يفهمون الحضارة على أنها إلمام بسيط باللغة الفرنسية ورغبة في تقليد باريس وشوق إلى تحقيق المظهر الأوربي، وفي أحسن الأحوال إقامة شبكة مياه أو إضاءة غازية وخط برقي أو خط من السكك الحديدية، وبهذه الإنجازات يلقون الرماد في أعين الأوربيين الذين يعيشون بين ظهرانيهم أو السواح الذين يزورونهم، وعندما يقرؤون في الصحف الأوربية التنويه بهم والمدح الذي دفعوا هم ثمنه إلى هذه الصحف يعتبرون أنفسهم من كبار المصلحين في الوقت الذي لم يكونوا في الواقع سوى مقلدين، فالتجديد الذي لا ينبع من حاجات الشعب وبعون المثقفين ليس سوى مظاهر زائفة لا طائل من ورائها.» (نختيجال)

(نختيجال: يُنظر مبحث «طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين»)

وثيقة: «نشاط علي رضا باشا وحماسته سَبَّبَ له حسداً وبغضًا في دوائر إسطنبول السياسية، تساندها البعثات الدّبلوماسية لبعض الدّول الأخرى الّتي حُمِلَتْ على الاعتقاد أنَّ تحسين أوضاع ليبيا أمر ضارٌ بمصالحها.» (كاكيا)

ويعلل الدراسون لحقبة الواليين محمود نديم باشا وعلي رضا باشا وعنايتهما بأحوال الولاية والمدينة بأن مردها إلى الانتهاء من إخماد الحركات الثورية في أرجاء البلاد كافة التي استنفذت الوقت والجهد والمال، وكذلك إلى الاستجابة إلى رغبات السكان، بالإضافة إلى حرص الحكومة العثمانية على المحافظة على آخر ولاياتها بالشّمال الإفريقي.

محمد باشا: (1870 - 1871م.)

من التقاليد التي اتبعها هذا الوالي أنه كان يأمر عند قدومه بنحر أربعة خرفان أمام أضرحة الأولياء الأربعة الواقعة على الطريق المؤدية من الميناء إلى القلعة (سالم المشاط،

والهدار، ويعقوب الخَشَّاب، وعبدالوهاب القيسي) ثم يتوجّه إلى المسجد واضعا يده في يد أحد الدراويش، ومدة ولايته سنة وستّة أشهر.

في أواخر العام 1870 وأوائل 1871م، وقع إمساك في الغيث، وجدب شديد، ومَحَل عظيم، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، فارتفعت أسعار الحبوب، وعجزت النّاس عن الأقوات، وفشى فيهم المرض والموت من تناولهم المأكولات الرديئة، واشتد الخطب على الرعيّة، وجزعت الناس، وطاشت أفكارهم، وباعت الأغنياء مواشيهم وآلات حرثهم لسدّ رمقهم، فبنى هذا الوالي مستشفى للمرضى، وأطعم عموم المحتاجين، وسمّت العرب عامهم هذا عام الجزر (عام السفناري) إذْ كان أكثر غذائهم منه لندرة الحبوب، هكذا سجّل المؤرِّخون هذا العام.

وعلى الرغم من هذه النزعة الخيرّة كما يرى الباحث « أَنتوني كاكيا» فقد وصفه صاحب الحوليات بأنّه ابتزّ أموال الناس، ورأى أنه شخص متعصّب لإسلامه، وبأنَّ حبّه للسيطرة أفقر السّكان، وبأنَّ سوء إدارته كان سبب عزله.

محمد نظيف باشا (1880-1881)

أعلن الفرنسيّون تونس محمية فرنسية (1881م) وسبَّب ذلك تظاهرات في كل أنحاء البلاد الطرابلسية، وعزّزت القوى المدنية والدينية هذا الكره للإفرنجة الغرباء، وتعلّق الناس بالسلطان التركي، خليفة المسلمين.

أرسلت الآستانة الفريق وصفي باشا لتأمين الحدود، وشعر العثمانيون بالخوف من أنْ ينظر الغرباء إلى طرابلس بعين الطمع، فأخذ وصفي باشا بإعداد الثكنات العسكرية، فأُنشئت تحصينات جديدة وجُدِّد برج التراب، وأُحضرت الأسلحة والذخائر وإن لم يحدث شيء!، وفي هذه السنة 1881م حصل جدب قاسٍ فانتشرت المجاعة، واستورد الدقيق للمرة الأول، وأُطلق على تلك السنة «سنة الدقيق»، وبعد ستة أشهر من توليه عُزِلَ.

أحمد راسم باشا: (1881 - 1898م.)

في 11 من ذي القعدة سنة 1298هـ/ 1881م، صار فصل الوزير محمد نضيف باشا لستة أشهر من ولايته، ووجهت هذه الولاية لعهدة الوزير الأعظم أحمد راسم باشا،

وقدم الولاية وتولى زمام الأمر فيها.

وذكر في سالنامة الولاية شاهداً نصه:

إنّ حضرة الوالي المشار إليه الذي شرف هذه الولاية قد حصر أنظار عنايته منذ تشريفه السامي في إصلاح كل ما رآه محتاجاً للإصلاح من المواد والخصوصيات في كافة شعبات أمور الولاية، فأصلحه شيئا فشيئا بتدابيره الصائبة المناسبة مع الزمان والمكان، وعطف نظر دولته العالي إلى الإجراءات المهمة العائدة لترقِّي عمران المملكة وازدياد ثروتها، فتوفق لكثير من الآثار والإجراءات الجليلة المادية والمعنوية.

وُصِفَ هذا الوالي بأنَّه كان ذا كفاءة وإخلاص، كما أنّه من أبرز الولاة بحكم مؤهلاته، من أعماله أنه أكمل تشييد مستشفى الغرباء على أنقاض فندق قديم يظنُ أنه فندق الجمرك الذي أشار إليه الأسير جيرارد في مخطوطته، وهو بمنطقة باب البحرّ بطريق سالم المشاط، بجوار زاوية الخشاب (الزاوية الصغيرة).

جُعِلَ الدور الأرضي غرفة مغازات (دكاكين للإيجار) والدوران الأول والثاني للمرضَى، وبهما 14 أو 16 غرفة، بمئة وخمسين سريرًا، وبالمستشفى طبيب وصيدلية ومطبخ عام، وقد تحوّل هذا المبني في أواخر عهده إلى مكتب رشدي عسكري.

وتقرّر إنشاء مستشفى خارج الأسوار وهو الخستة خانة (مستشفى البلدية) وموقعه بين شارع ميزران وشارع الوادي بجوار مدرسة علي حيدر الساعاتي، وتبليط حاشيته على عرض ثلاثة أمتار، وتمَّ افتتاحه في عهد الوالي نامق باشا في الموقع الذي تقوم فيه حاليّا مدرسة حيدر الساعاتي.

ورغب هذا الوالي في زراعة البنّ فاستقدم خبيرًا من اليمن الذي قال إن الجبل الأخضر أكثر ملائمة، فاستقدم بذور البنّ ووزعت على المزارعين 1894، وبعد فترة أُهمل المشروع كما يذكر الباحث الطرابلسي تيسير بن موسى في كتابه «المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني من خلال الوثائق بدار المحفوظات التاريخية».

وأمر هذا الوالي بإنشاء رصيف، وهو حاجز من الأسمنت المسلّح يمتد من تحت سور المدينة إلى مرسي سقالة الحلفاء إلى ما يقرب من سوق الثلاثاء بميدان الغزالة، وبهذا فموقعه يطابق الكورنيش الحالي، وطوله قرابة 755 متراً، وهو لغرض الحماية من هيجان البحر.

ولأن الأوضاع كانت متوترة بسبب احتلال فرنسا لتونس وإنجلترا لمصر، ونشاط مشبوه للقناصل فقد اضطر هذا الوالي إلى الوقوف في وجههم، والحدّ من تصرفاتهم وكان قنصل إيطاليا من أكثر القناصل تحرشًا، وقد شهدت المدينة حماسًا إلى تحصينها، والنائب الأنصاري يتحدث عن تطوع الأهالي في بناء الاستحكامات.

وثيقة: «وإنّ أكثر ذوي الحمية من الأهالي يذهبون كل يوم على طريقة المناوبة لمحل الاستحكام الكبير الذي بُدِئَ بإنشائه قبل هذا في النقطة الحاكمة المسماة «برج التراب» الكائنة داخل السور ويعاونون العساكر السلطانية فعلًا في عمليات البناء للإسراع بإتمام ذلك الاستحكام، وإنَّ إخواننا الكريتيين السّاكتين في طرابلس عاونوا أيضاً في إنشاء الاستحكام المذكور باهتمام وغَيْرَة» (جريدة الجوائب، **27** من رجب سنة **1299**هـ/ **1882**م، نقلاً عن جريدة طرابلس الغرب.) (الأنصاري)

من قراراته نزع الحماية من الذين كانوا يحتمون بالقنصليات الأجنبية من المواطنين، وحلّ المشاكل بين الطرابلسيين والتّونسيين على الحدود، فتبودلت المنافع، وأصبحت المواصلات ميسورة، وأُبْطِلَتْ تجارة بيع الأطفال والِنساء الأرقاء، وهم أُسارى في أيدي تُجَّارٍ ظلمة.

ومن أعمال هذا الوالي بناء المدرسة البحرية العثمانية، والباحث الطرابلسي إسماعيل الفيتوري ريح يقدّم دراسة عنها في كتاب من إصدار جهاز إدارة المدينة القديمة أطرابلس (**2020**).

يبلغ طول المبنى **53** متراً ونصف المتر، وعدد الحجرات بالدّور الأرضي أربع عشرة حجرة، وبالدور الأوّل خمس حجرات، والمبنى في مقابل زاوية الشيخ يعقوب، ملاصق لجزء من سور المدينة البحري، وكان أصلاً حصنًا قديمًا عُرِف باسم «حصن الكاهية» وهو مصطفى البهلوان، وكان ذلك في عهد الوالي «بالي جاويش داي» الذي عُرِف

بالجفاء والغلظة، فكان مقدامًا جريئًا على البطش (**1672-1675**م) ثُمَّ أصبح المبنى مقرًّا للكشافة اليهودية «البيودا» ما بين سنتي **1944** و**1948**م، وفي تاريخ المبنى أنّه أُسْتُغِلّ من قِبَل البحرية الإيطالية «الكوماندا مارينو»، وظلوا فيه حتَّى نهاية الحرب العالمية الثّانية.

وشهدت مدينة طرابلس تحسيناً في أوضاعها، حيث بُلِّطتْ كلّ جهات البلدة، وأُنْشِئَتْ مجارٍ للماء تحت البلاط تنتهي إلى البحر، واستورد أحمد راسم باشا **2200** شجرة توت من الأناضول، وأمر بزرعها في مناطق متعددة من البلاد، فزرعت بعضها في منطقة قرب «سيدي المصري» والتي عرفت باسم «حدائق راسم باشا»، وقد نمت هذه الأشجار وساعدت على ازدياد إنتاج دودة القَزّ.

(القَزّ: الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يُستخرج من الصُّلْجَة، وهو غشاء واق حريري تنسجه دودة القَزّ لتتحوّل فيه إلى الشَّرْنقة، وفي عهد هذا الرجل كانت انتفاضة الطوارق في غات حيث حطَّموا الحامية العثمانية، وقد أُخْمِدت بقسوة، وهي مبثوثة في المراجع التاريخية، وقد أفرد لها كاكيا صفحات تفصيلية.)

وأمر هذا الوالي باستقدام «ماء الشَّفه» من آبار بومليانة (**1890-1891**م)، والوثائق تذكر هذا العمل وتشيد به، وولاية طرابلس الغرب خالية من الأنهار والمياه الجارية المساعدة للاستفادة العمومية، فلأجل تسهيل حصول الأهالي على الماء جُعِلَ في كلّ بيت صهريج تُجْمَع فيه مياه المطر إلاّ أنَّ هذه الصهاريج لم تكن تكفي إلى نهاية موسم الصيّف، إلى زمن نزول المطر، فكان الأهالي بمركز الولاية مثل غيرها من بعض الملحقات المعمورة يضطرون لابتياع ما يحتاجونه من المياه العذبة بواسطة السقائين من الآبار الكائنة خارج البلدة.

(عرفتُ السقاء «فرتونا» في صغري بالمدينة القديمة وهو يجلب المياه للبيوت لقاء قروش معدودات.)

«وأدّى هذا الأمر إلى جلب ماء البئر المعروفة ببئر بومليانة، الواقعة خارج البلدة إلى مسافة نصف ساعة إلى الجنوب، وهي مشهورة بلذّة مائها وغزارته، وعمقها أربعة عشر متراً ونصف.

جِيءَ بآلةٍ بُخارية من أوربا لرفع الماء، ووضعت على البئر، وأُنْشِئَ خزان للماء متين مُحْكَم، طوله عشرة أمتار وكذلك عَرْضُه، وارتفاعه ستّة أمتار، وسُدّتْ بأنابيب لمسافة ألفين وخمسمئة متر إلى البلدة، وبُنِيَ خَزَّان خارج باب الخندق، غُلِّفَ بالحجر المالطي الصلد، وزُيِّنَ بنقوش منحوتة من هذا الحجر، ومنذ اليوم الخامس عشر من شهر شعبان من سنة **1308**هـ/ **1891**م، صار النّاس يأخذون الماء من هذه العين ليلاً نهاراً.

وافتتح هذا السبيل في احتفال بهيج، وبجوقة موسيقية تدقُّ الأنغام الشعبية، وبكلمة من مفتي الولاية بالدعاء لحضرة الوالي، وهتف العساكر «يعيش السّلطان» ثلاث مرات حسب المعتاد»، هكذا وُصف هذا المشهد!!.

وثيقة: «وعلى الجملة فإنَّ الأثر العُمراني كان بارزاً وواضحاً، وأعمال أحمد راسم باشا هذه سلكته في عداد الوُلاة الكبار»(خليفة محمد التليسي).

ويكتب الباحث المحقق عمّار محمد جحيدر عن سالنامات ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني في مجلة مجمع اللغة العربية العدد 17، 2020 فيذكر أنّ السَّالنامة مصطلح عثماني دخل في عهد التنظيمات، والكلمة مركّبة من كلمتين فارسيتين هما: «سال» بمعنى سنة، و»نامة» بمعنى رسالة أو كتاب والمعنى هو: «كتاب السّنة» وهو الحولية في اللغة العربية، وهي مطبوعة توثيقية ثقافية سنوية، ويشير العدد الأخير من سالنامة ولاية طرابلس (1894م) إلى لائحة (تقرير) الوالي أحمد راسم باشا، وتتضمَّن أعماله وانشاءاته، وصُدَاها في الجزء الثاني من المنهل العذب.

نامق باشا: (1898 - 1899م.)

تابع هذا الوالي مجهودات سلفه في الاهتمام بزراعة شجرة التّوت، وفي عهده أدت مدرسة الفنون والصنائع خارج السُّور المخصّصة لإيواء الأيتام وأبناء الفقراء التي لاتزال قائمة حتَّى الآن، بشارع الحميدية (شارع 24 ديسمبر حاليّا).

أُنشئ هذا المرفق بتبرعات الأهالي، ولقيامه بمهمته التعليمية من تعليم الحدادة والنجارة والسمكرة وصناعة السجاد والأحذية وغير ذلك. طولبت البلديات بتقديم 10% من وارداتها السّنوية، ففُرضتْ عشرون بارة عن كل شبكة حلفاء تَرِدُ إلى المكابس، ومبلغ من رسم اللاقبي، وغير ذلك من الضرائب.

وازدهرت الحركة الثقافية في أيامه فانتشرت جريدة «التَّرقى» التي أصدرها الشيخ محمد البوصيري، وهي جريدة سياسية تهتم بالمصالح الوطنية، ولها مراسلون في مختلف أنحاء البلاد، وقد كان العدد الأول بتاريخ 26 يونيو 1897م صباح يوم السبت.

ولأنَّ إمدادات الماء التي جئ بها من بومليانة إلى طرابلس كانت غير كافية بسبب ازدياد السُّكّان، فقد تمَّ إنشاء نظام للمزيد من الموارد المائية من «عين زارة» بلغت تكلفتها خمسة وثلاثين ألف ليرة تركية، ويذكر له تجديده لبرج الساعة.

وقد حاول «نامق» فرض التجنيد الإلزامي، فسبب ذلك عصياناً، وانتهى بهجوم على طرابلس القديمة من قِبَلِ سكّان الدّاخل، ويتصدّى جند الولاية لكبح تلك الانتفاضة.

حافظ باشا: (1900-1902م.)

من أعماله إحصاء السُّكّان، وتحسين نظام تحصيل الضرائب، وتأمين نظام جيد لتسجيل الأراضي (الطابو)، وإنشاء المصرف الزراعي، وإلغاء امتيازات عليّة القوم، وإزالة دائرة الباشاغاوية التي كانت تشكل دولة داخل الدولة، وأتمّ خط برق– طرابلس– سرت– فزان، وقد وُصفَ هذا الوالي بأنه «رجل عظيم لا يعرف الكسل والملل».

أكمل حافظ باشا مدرسة الفنون والصنائع، وألحق بها مدرسة للبنات وجلب لها الخبيرات يعلِّمن صناعة السَّجاد، وأثناء ولايته حدث كسوف كلي للشمس 1900م، فوُصِفَ:

وثيقة: «فَعَجَّ كل سطح في المدينة بالناس، من مالطيين وعرب ويهود وجنود أتراك على ظهور متاريسهم، ورهبان فرنسكانيين في مكان تريضهم العالي، ولقد ازدحمت حتَّى المآذن، بينما احتشد في الشوارع جمع فضولي مشرئبًا بعنقه ليحصل بالصُّدفة على لمحة من المراصد، بينما احتشدت الفئة المفضّلة على سطح القنصلية» (مابل تود).

(مابل تود: يُنظر مبحث «طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين».)

حسن حُسْنِي باشا: (1902-1904م.)

جاء هذا الوالي إلى طرابلس في حالة صحيّة متردّية كما ينقل «كاكيا» ومات وهو في طريقة إلى مالطا لإجراء عملية جراحية، وفي عهده اكتسح وادي المجنين طرابلس، حيث حدث انكسار به، فدخلت مياهه إلى الشارع المُسَمَّى باسم «شارع الوادي»، ومن هناك كانت مسيرتها نحو البحر، وهذا الشارع عُرِف سابقًا بسوق الحطب، وهو الآن شارع عمرو بن العاصّ، يبدأ من ميدان الشّهداء إلى أنْ يتّصل بمقبرة سيدي مينذر.

(يذكر الزاوي في كتابه ولاة طرابلس أن حسن حسني تركيًا بجنسيته إيطاليًا بروحه)

رجب باشا (1904 - 1908م.)

كان مجيء هذا الوالي لغرض تحسين الوضع العسكري، فكان اهتمامه بتجميل المدينة، والمدرستان التكميلية والعليا من أعماله، وسوق المشير منسوب إليه وهو ذو شهرة، يبدأ

من باب هوارة (باب المنشية) وإلى برج الساعة، وفُتح باب الحرية وهو في سور المدينة من الناحية الغربية الجنوبية، والتسمية بمناسبة إعلان الحرية في إسطنبول.

وشهدت المدينة توسّعًا بالقرب من سوق الثلاثاء القديم الذي كان بالقرب من ميدان الغزالة- كما تقدم قوله- خرجت به عن الأسوار، حيث فُتح شارعان متقاطعان حُفَّتْ بهما عمارات من الطراز الأوربي، وينتهي الشارعان بحديقة صغيرة عامة (جنان الفريق)، وهي متنزه الطرابلسيين، وكانت تعزف بها الفرقة العسكرية.

(هي جزء من حديقة البلدية بالقرب من ميدان الجزائر حاليا، وتوسعت إبّان الاحتلال الإيطالي، وكنت في فترة الثانوية العامة اتخذها مكانا لقراءاتي ومطالعاتي، وإدامة النظر إلى أشجارها المخضرة والجلوس على مقاعدها الخشبية، ولا أزال أمر بها من حين لي آخر وأتذكر تلك الأيام!)

وثيقة: «(رجب باشا) رجل ذكي وروح مجدِّده... رجل غير عادي ولكنه مغلوب ببيئة أقوى من أي إرادة ذكية... وهو بحكم نزعته التركية العميقة يرغب أنْ يتم تقدم البلاد على أيدي الأتراك وليس على أيدي الأوروبيين» (مارتينو، عضو مجلس الشيوخ الإيطالي)

وثيقة: رجب باشا «رجل متنوِّر وذكي وصاحب جرأة».

وفي عهد رجب باشا تسلّمت تركيا الفتاة والاتّحاد والترقي (منظمة الأتراك التقدميين) السلطة في تركيا، وقد نظر إليها بعض الأهالي بعين عدم الرضا، وعلى إثر ذلك استدعي «رجب باشا» إلى إسطنبول، وعُيِّن «بكير بك» نائبًا له، وكان يشغل نائب الحاكم في الجبل الغربي، ولأنّه لم يكن محبوباً فقد احتجّ أعيان الأهالي عليه، فَطُلِبَ من بكير بابك ومن معه الرجوع إلى الآستانة، وفي الوقت نفسه طُلِبَ من رجب باشا العودة هو ومن معه من الموظفين الّذين انظموا إلى مبادئ «تركيا الفتاة».

وثيقة: «رجب باشا متوسط العامة، ذو صدر عريض، ولحية قصيرة مدببة، خطّها الشيب، يرتدي الملابس الأوروبية، ويضع الطربوش. رجل حرب، اشترك في كثير من الحملات التركية الروسية، يشعر الإنسان بالانسجام اللطيف بين القوة العسكرية التي تضفيها رتبته العسكرية وبين اللطف التركي» (تومياتي السياسي والصحفي الإيطالي وهو يزور الفريق رجب باشا، من اجل الحصول على الإذن بزيارة الدواخل.)

إبراهيم أدهم باشا (1909 - 1911م.)

من أعماله إحصاء السُّكان في مدينة طرابلس القديمة والذين كانوا في حدود 25000 نسمة (مسلمون 18000، ويهود 4000، وأجانب 3000).

شرع في إصلاح الأمور بكل قوة وحزم، وفي أيامه ازدادت الأحوال مع إيطاليا سوءاً والّتي كانت تُعِدُّ العُدَّة منذ أكثر من عشر سنوات للاحتلال.

وبدا إبراهيم باشا شديد العداوة للإيطاليين حيث مُنِعَ بنك روما من إخراج الحجارة الأثرية من قرقارش، وجمع هذا الوالي قرابة سبعة آلاف جندي، وبحضوره حفلًا رسميًّا بقصر الهاني يُعلن التجنيد الإجباري، ورغب في تعزيزات تمدّه بها الآستانة، فتوجّه إليها تاركاً وراءه نائبه، وكان يأمل أنْ يعود، لكن مجريات الحوادث كان سريعًا إذْ أعلنت إيطاليا الحرب في 1911/9/29م

وكان للحركة الثقافية بروز في السنوات الأخيرة من العهد العثماني الثاني فظهرت اثنتا عشرة صحيفة منها: طرابلس غرب باللغتين العربية والتركية، وتعميم حريات بالتركية، وجرائد عربية: الترقي وأبوقشة، والمرصاد، والعهد الجديد، والكشاف، وجرائد عبرية وإيطالية.

(أصدر الهاشمي أبو قشة التونسي صحيفته (أبوقشة)، وهي بأسلوب نقدي هزلي، وقد باع منزله من أجل أنْ تتواصل جريدته الصدور، وكان القراء قليلون، فترى كل قارئ محاطًا بجماعات ينصتون لقراءته.)

مظاهر الحياة العامة (1551-1911م):

من مظاهر الحياة في العهد العثماني الثاني كما يشير الرائد أنتوني كاكيا (عسكري مهتم بالتاريخ) في كتابه «ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني (1835-1911) والذي نشرته دار الفرجاني باللغتين الإنجليزية سنة 1975، وبالعربية سنة 2002م- أسلوب الإدارة، والسّياسة المالية، ونظام القضاء، والجاليات الأجنبية، والزراعة، والصناعة، والتجارة، وغيرها.

(هكذا ورد عنوان كتاب كاكيا)

في عام 1843م قُسِّمَت البلاد إلى إيالة طرابلس ومتصرفية بنغازي، وكان حكام طرابلس وبرقة يحملون لقب والٍ أو متصرّف، وكان هناك مجلس إدارة يساعد الوالي

يتكوّن من قاضي القضاة، والمفتي، والمكتبجي، والدفتردار، وستّة أعضاء دون راتب يختارهم الشّعب مرة كل سنتين.

وكانت إيالة طرابلس الكبرى مقسّمة إلى أربع متصرفيات (سناجق) وهى طرابلس، والخمس، والجبل الغربي (ومقرها يفرن)، وفزان (ومقرها مرزق.)

وضمّت متصرفية طرابلس قائمقاميات: طرابلس والزاوية والعجيلات وزوارة وترهونة وورفلة وغريان، وكذلك نواحي: جنزور والهاني وتاجوراء والرقيعات والمنشية والعلوانة وغيرها، وسكانها جميعًا حوالي 275.000 نسمة.

في حديثها عن الإحصاء السُكّاني في طرابلس تقول مابل تود صاحبة كتاب «أسرار طرابلس»: «إنَّه لمن المستحيل تقريبا إجراء إحصاء يرُكَن إليه، ذلك أنَّ مبادئ القرآن – حسب تفسيرات معينة – تُعارض هذه الدِّقة، ويعلق المُعَرِّب بقوله: «إنَّ المؤلفة هنا طبعا تنحرف عن الصّواب، فليس من تعارض بين الإسلام والعلم، وهذا ما تشهد به العلوم عند العرب.»

ومدخول الخزانة في ولاية طرابلس من الضرائب المتعددة الجوانب: ضريبة شخصية، وضريبة حيوانية، وضريبة أشجار، وضريبة آبار، وضريبة تسجيل المبيع، وضرائب الجمرك، ومدخول البريد، وضريبة الإعفاء من الخدمة العسكرية لغير المسلمين وهي 30 قرشاً عن كل راشد يستطيع حمل السّلاح، كما كانت هناك ضريبة على استخراج اللاقبي (عصارة أشجار النخيل).

وبعد عام 1835م أُدْخِلَ النظام القضائي العثماني تدريجيًّا، ومع العام 1858م كان القانون الخاصّ بملكية الأراضي: أراضي مِلَك، وأراضي ميرى (حكومية)، وأراضي متروكة، وموقوفة، وموات، وكانت في طرابلس دوائر لتسجيل الأراضي، وشهادات (الطابو) التي تثبت اسم المالك والمساحة الأرضية.

وفي عام 1869 عُزِّز العمل بالجهاز الخاصّ به، ولم يُطبق القانون إلاَّ على المناطق الساحلية، إذْ لم تستطع الحكومة إنفاذه في الدواخل، وكان القضاة يأتون من تركيا، وقد وُجِدَت محاكم لليهود، ومحاكم القنصليات للأجانب.

وحسب إحصاء إبراهيم باشا قبل الاحتلال الإيطالي بأشهر (1911م) بلغ مجموع سكان طرابلس المركز 32.600 شخص منهم: 19500 مسلم، و6500 يهودي،

و4000 أوربي منهم 2600 بريطاني.

وعدد البيوت 2750، والحوانيت 1309، والفنادق 35 يستعملها تجار القوافل الذين يجلبون البضائع والماشية، وكانت المدينة مقسّمة إلى 22 شارعًا، لكل منها شيخ محلة، ومع العام 1870م، أدخل نظام البلديات، وتأسست بلدية طرابلس في شهر ديسمبر من العام نفسه.

وللبلدية مجلس من عشرة أعضاء، ورئيس البلدية يختاره الوالي، ونطاق عملها: تنظيم الأسواق وإدارتها، والعناية بالنظافة، وإعانة الفقراء، وغير ذلك من الأعمال ذات العلاقة.

ومع العام 1911م كانت هناك داران للسينما، ومسرح واحد، وثلاثة فنادق سياحية، وخمسة مطاعم، واثنان وسبعون مقهى، وخمس وتسعون حانة، والمستشفيات ثلاثة: المستشفى البلدي، والمستشفى العسكري، والمستشفى المسيحي.

هذا ما ورد في كتاب أنتوني كاكيا إحصاء 1911م وللقارئ أن يقارن ذلك بما جاء في إحصاء 1884م و1885م، في العددين (11,10) من سالنامة منشآت مدينة طرابلس.

والشبكة المائية كانت تؤَمَنُ من آبار بومليانة وعين زارة، ومعظم البيوت دون أساسات (ضرب طين)، وهي بنايات منخفضة في الغالب، ومعظمها يحتوي على فناء داخلي، وبعضها له نوافذ خارجية إنْ كان من طابقين، والشوارع الرئيسة مرصوفة ومضاءة بقناديل الكروسين، أمّا الأزقة فكانت مظلمة، ويكثر بها الوحل في فصل الشتاء.

(لاتزال شوارع المدينة القديمة وأزقتها موحلة في فترة سقوط الأمطار، وهي تعاني مشاكل كثيرة، وتحتاج إلى تكريس الجهد والمال لصيانتها وترميمها، وبدءًا من سنة 2019م أخذتْ اهتماما وإصلاحا متزايدًا- في كلّ نواحيها- برعاية المهندس محمود النّعاس رئيس مجلس إدارة الجهاز ورفاقه والعاملين، وتشهد الآن (2020-2021م) صيانة كاملة لسّتة مسارات، (شوارع رئيسة)، من حيث منظومة الصَّرف الصحي، وشبكة المياه، وتبليط الشوارع بالأحجار.)

وكانت في طرابلس تسع جاليات أجنبية: الجالية الإنجليزية، ومن مؤسسات أفرادها:

بيري بوري وشركاؤه لكبس الحلفاء وتصديرها، ووليام ديلي للتأمين على الحياة والوكالة بالعمولة، وميلر للتجارة العامة، والجالية المالطية -وهي جزء من الجالية الإنجليزية- امتلكت مؤسسات كثيرة منها: سمّوت وماليا، أصحاب مطحنة دقيق، ومعصرة زيتون، ومصنع بلاط، ومصنع لقشر الحوامض وإرسالها إلى إنجلترا، وأبيلا صاحب سينما وفرقة عرض، وكرابوت إخوان أصحاب تجارة لوازم السّفن، والإخوة زميت، تجارة نبيذ، وشيني: مستورد فحم، ومع العام 1911م هاجر إلى تونس كثير من الحرفيين والعمال المالطيين، فتقلّص عدد الجالية الإنجليزية إلى قرابة 2600 شخص.

وعدد الجالية الإيطالية في طرابلس 930 شخصاً، وأهم مؤسساتهم الرسمية: بنك روما الذي رَعَى أعمالاً مالية وتجارية، وجمعية المستعمرات الإيطالية التي كانت عنايتها بالتصدير والاستيراد، ومؤسسات أخرى لجويني بيبي المستورد، ولميشلي إخوان للنسيج والوكالات العامة.

واشتغلت معظم الجالية اليونانية في صيد الإسفنج، وكانوا أكثر من مئة بقليل، واشتغل بعضهم في استيراد الفحم (كالزوس) وفي الأقمشة والمنسوجات (هادجيا إخوان) وفي تصدير الإسفنج (فوروس وأبناؤه).

ومن الجالية الفرنسية وأغلبهم من أصل تونسي مؤسسات: أرثر ريتشارد للوكالة بالعمولة، ودبّاش لخزن المؤن، وليفي إخوان لصناعة الصابون، وتمّام للصيرفة، وبرانس للبضائع القطنية.

أمّا الجاليات الإسبانية والنمساوية والألمانية فمعظهم كانوا من تجار اليهود وحرفييهم ومن باعة «المفرّق»، وكان لليهود الّذين سكنوا الحارات: الكبيرة والصغيرة والوسطيّة- وجود بارز تجاريًّا، وقد تقدّم الكلام عنهم في فصل اليهود في طرابلس.

وأعطى العثمانيون للزراعة زخماً لتشجيعها، وكان يُستفاد من الآبار بشكل كامل لتأمين الريّ، فكانت تستخدم في ذلك الثيران والحمير، ليل نهار، بجلب الماء من الجوابي وتوزيعه على البساتين، ولأنَّ التربة ممتازة فجادت بأحسن المحاصيل.

والبطاطس الباكرة ممتازة النوع، ويتمّ تصديرها إلى أوربا، والبساتين والجنائن محاطة بأسوار طينية، ارتفاعها من ثلاثة أقدام إلى سبعة أو محاطة بأشجار التين الشوكي (الهِندي.)

من الأشجار: اللوز والرّمان والمشمش والتين والتوت والعنب والخروب والخوخ، ومن الأشجار التي تعطي الصبغة: الحِناء والزعفران، ومن الأشجار الزيتية: الزيتون والخرشوف والخشخاش، ومن الحمضيات البرتقال والليمون، وكانت قشور البرتقال المرّ (شفشي) تصدر لبريطانيا وألمانيا حيث يستخرج منها الزّيت، كما كان زهر البرتقال يصدر إلى إسطنبول.

وعرفت طرابلس الحِنَّاء، وكان إنتاجها ما يُقرب من **11850** طنًّا، ووقت جمعها بين شهري يونيو ونوفمبر، وكميات منها كانت تُصدّر إلى تونس والجزائر والمغرب.

ومن المزروعات الشعير والقمح والذُّرة والتبغ، والفاصوليا والطماطم والسبانخ والقرعة والبطيخ والدِّلاع والبصل والثوم وغيرها، وفي السنوات الأخيرة من العهد العثماني الثاني كان يتم تصدير كميات من الشعير إلى بريطانيا، وكميات أُخرى من القمح إلى الموانئ الأوربية.

ومن الأشجار النخيل وطول النخلة من ثلاثة إلى أربعة أمتار، وقد يبلغ ارتفاعها إلى عشرين متراً أو أكثر، وتحتوي على أربعين إلى ستين جريدة، وتنبت في الأراضي الرملية والرطبة، وتعطي النخلة الواحدة قرابة ثمانين إلى مئة كيلو من التَمر في السنة.

وتبلغ أجناس النخيل بطرابلس قرابة الأربعة وثلاثين نوعًا، ويستخرج من الشجرة مشروب شهي يدعي «لاقبي»، والنخلة التي يستخرج منها بحاجة إلى ثلاثة أعوام لتكون بمقدارها الإثمار من جديد.

وعمل الأهالي في استخراج «اللاقبي» من أشجار النخيل، وكان هناك قانون يحدد عدد أشجار النخيل التي يمكن استنزافها حيث تظلّ النخلة بعد قطعها تنزف مدة **60** يوماً، وللاقبي في يومه الأول طعم كطعم جوزة الهند، ثُمَّ تزداد حموضته ودرجة اختماره مع الأيام.

وأعطت أشجار الزيتون في ولاية طرابلس (منطقة مسلاتة) ما مقداره ستّة مليون لتر في عام **1910**م، واشتهر زيت يعرف بضرب الماء في المنطقة المذكورة، وكانت سوق الماشية جيدة، والصوف يصدر شهريا إلى فرنسا وإيطاليا، وكان هناك اهتمام بحرفة «الرعي» من قبل أهالي الدَّاخل.

وكانت الصناعة الرئيسة في العهد العثماني حياكة القطن والصوف والحرير، وفي عام

1911 كان عدد الأنوال الأفقية ذات المكوك التي تُدار باليد والرِّجل في طرابلس: 1700 لنسج القطن، و350 لنسج الصوف، و150 لنسج الحرير، وأنوال عمودية لحياكة السجّاد والعباءات الصوفية الثقيلة، وكانت الألوان المفضّلة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والأسود، ويتمّ الصبغ في طرابلس، وسوق طرابلس للأردية هو «سوق الرّباع القديم» والبيع بواسطة المزاد عادةً.

وتُصْنَعُ «الحُصُر» والسّلال، من نبات «السَّمّار» وهو نبات عشبي ينبت تلقائيًا في المناقع والأراضي الرَّطبة والمستنقعات، وبخاصة في منطقة تاورغا، وكان ثلث الإنتاج يُصَدَّر إلى تركيا، كما عُرِفَت الحُصُر المصنوعة من نبات الحلفاء بألوانها وأشكالها المتناسقة، والحُصُر المصنوعة من «القُنَّب» وهو نبات ليفي، تُفتل لحاؤه، وهو للفراش، ويستخدم في المساجد.

(الحَصيرة: البساط الصغير المنسوج من الأغصان الرقيقة للنباتات.)

وظفرت الملبوسات بعناية، فكان الرجال يتبخترون بأثوابهم في المناسبات، ومن ملابسهم: الزُّبون: سترة ذات تطريز حريري أو قطني، والبرْنُس: عباءة صوفية ذات زخارف قطنية أو حريرية، والفَرْمَلة: صُدْرَة ذات تطريز، والبَدْعِيَّة: صُدْرَة حريرية مطرزة تُلْبَسُ فتحلّ محل الفرملة والزُّبُون.

وشهدت ملبوسات النِّساء عناية كبيرة، ومن ملابسهن: السّروال المخملي أو الحريري ذو الحزام الفضي، والقُفْطان: وهو رداء من مخمل أو حرير، والمَرْيُول: من الكِتّان، ذو أهداب وتطريزات فضية، والفرملة بالشريط: صُدرة من غير أكمام من الحرير أو المَخْمَل، ذات ألوان زاهية، مع رباط مفضّض.

(الخميلة: نسيج من الحرير أو القطن أو الوبر وتُتَّخذ منه ثياب وفُرش.)

وكانت صناعة الذهب والفضة جيّدة، ومعظم القائمين عليها من يهود طرابلس ونواحيها، وكانت النساء يتسابقن إلى إظهار حليهنّ من أقراط وأساور وعقود، وبعض المنسوجات تضاهي المنسوجات الأوربية، ومن المصنوعات: الخلال والخلخال والحزام والصالحة والشّعرية وغيرها.

ومعظم نبات الحَلْفاء يُجْمَعُ ويرسل إلى بريطانيا، والحلفاء نبات ينمو تلقائيا من الفصيلة النخيلية، أوراقها خيطية الشكل، وطولها نحو المتر الواحد، يستعمل في صنع

الحبال والقفاف وهو علف جيد للحيوانات، وقد توصلت شركة بيري بوري (perry burry) إلى تصنيع الورق منه، وكان يكثر حول أسوار طرابلس، ويشغل مساحات من الساحل الطرابلسي حتَّى منحدرات جبل نفوسة (الجبل الغربي)، وقد صَدَّرت طرابلس عام 1888م لأوروبا 46 ألف طن من الحلفاء، ثم تدنَّى الإنتاج إلى 35 ألف طن، وكان بطرابلس أربعة مكابس حلفاء تجارية.

وشكَّل محصول الإسفنج نسبة كبيرة في مناطق البحر الأبيض المتوسّط، وله تقدير خاص في الأسواق الأوربية، ومن أنواعه: الحجري، والترجانا، والبياضة وغير ذلك، وأسلوب الصيد المفضل هو أسلوب الصيد اليوناني باستعمال جهاز الغطس، وكان مهرة الغطاسين اليونانيين ينزلون إلى عمق أربعين قامة.

وتجارة الإسفنج المصدّرة كانت لليونان 40%، ولإنجلترا 18%، ولهولندا 17%، ولإيطاليا 10%، ولتونس 8%، ولبلاد أخرى 7%، ويتعرض الإسفنج لعملية علاج تجارية، ولونه قشبي قاتم، ثم يُعْطَى اللون المراد، من الأصفر الفاتح إلى البنِّي الفاتح حسب الطلبية.

وبلغت تجارة القوافل في طرابلس ذروتها في السنوات العشرة (1872– 1881م)، واحتكرت طرابلس تجارة القوافل مع السودان في سنتي 1904و1905م، والقوافل تنظم باتفاق يعقده التجار فيما بينهم، ويشرف على القافلة شخص يدعى «باشي القافلة» ويحمل كل جمل حزمتين، وزن الواحدة ما بين 75و80 كيلوغرامًا.

وكانت طرابلس منطقة عبور لمنتجات أوربا إلى جنوب الصحراء، فكانت تُرسل إلى بلاد جنوب الصحراء البضائع القطنية، والملبوسات الصوفية، والمناديل الحريرية، والشاي، والقهوة، والسّكر، ومواد الصِّباغ، وورق الرسائل، ويُجلب منها: العاج، وريش النعام، وجلود الماعز المصبوغة، والقِرب، والبخور، وبعض المنسوجات، وأنياب الفيلة، ومن الأعمال التي كانت تتمُّ في طرابلس تجارة بيض النعام، واختيار ريش النعام وغسله والإبحار به إلى فرنسا عبر «مرسيليا»، وإلى النمسا عبر «تريسته»، وإلى إيطاليا «لميلانو»، حيث كان الريش يوضع على قبعات النساء ومرواحهنّ في تلك المناطق زينةً وتفاخراً.

وعهدت الحكومة العثمانية إلى تنظيم خاصّ يُعرف بـ (الرِّيجي) باحتكار التبغ والملح، وفي أواخر العهد العثماني كان هناك 73 زارعاً للدُّخان، وكان يقتصر في طرابلس على

النشوق ودخان المضغ والتنباك الذي يُستعمل للنارجيلة.

وكان الساحل غنياً بأحواض الملح الطبيعي (الملاّحة في طرابلس وملاحات زوارة) وامتيازات هذه الصناعة كانت تُعْطَى إلى الأفراد لحساب نظام الرِّيجي.

وفي عام 1899م استورد الوالي راسم باشا 2200 شجرة توت من الأناضول، وأمر بزرعها في مناطق متعددة وحدائق راسم باشا بالقرب من سيدي المصري معروفة بهذه النّبتة، وتابع نامق باشا هذا الجهد، وبعد ذلك أُهمل إنتاج دودة القَزّ ثم استغني عنه (وقد تقدمّ الحديث عن ذلك.)

ونشطت صناعة «أحجار الصَّوَّان» التي كانت تستعمل للإشعال في عهد سامي باشا على وجه الخصوص (1874-1875م) ثم تلاشت بعد انتشار عيدان الثّقاب، والصَّوَّان: ضرب من الحجارة فيه صلابة يتطاير منه شرر عند قدحه بأداة تدقُّه.

ولم تتطور صناعة الفُخَّار تطوراً ملحوظاً، وكانت أهم مراكزها في طرابلس وغريان، ومصنوعاتها من الآنية التي يستهلكها كافة الناس ومنها: البرَّادة للماء، والمخفية للملح، والكرّازة للزيت، والحلاب للسمنة والحليب، والإبريق للوضوء، وكان فُخَّار وادي المجنين من أحسن الأصناف، وافتتح درس في الخزفيات، وكان لذلك أثر في الفنون التشكيلية المطبّقة على الخزف.

الإيطاليون في طرابلس: (1911-1943م)

أضحت طرابلس نقطة توتر بين فرنسا التي احتلت تونس 1881م، وبريطانيا التي استولت على مصر 1882، وهو ما جعل إيطاليا تنال موافقتها من الطرفين لتكون منطقة فاصلة بين النفوذين.

قامت الباحثة مريم سلامة والباحث رضا الحرك بدراسة تاريخية لبنك روما في طرابلس، باعتباره فرعاً لبنك روما بإيطاليا، وأخذ دورا في التمهيد لغزو الأراضي الليبية، ومِمّا جاء في هذه الدراسة:

بنك روما بإيطاليا تأسَّس في سنة 1880، ولتوسيع نشاطه افتتح فروعاً له في مصر ومالطا والصومال، ومع سنة 1905 وطدَّ نفسه في طرابلس، وباشر نشاطه الرّسمي بتاريخ 15 أبريل 1907، وبلغ حجم استثماراته قرابة 245 مليون ليرة ايطالية.

وثيقة: «في أبهى ميدان بمدينة طرابلس (المدينة القديمة) نرى «بانكو دي روما» مكتوبا بالحروف العريضة، على لافتة متدلية من بين نوافذ عالية ومنشرحة، على واجهة عمارة من طابقين». (مارتنيو، عضو مجلس الشيوخ الإيطالي).

والميدان المقصود هو ساحة السيدة مريم (وسعاية النّصارى)، الواقعة في منطقة باب البحر، والتي تميّزت بمبان تاريخية، وبنك روما هو حوش «رشيد بَيْ» من الحياش التاريخية.

ومساحة المبنى حوالى 818م2، وهو مزيج من العمارة المحلية والتّركية، والبذخ الفاشي الذي عُرفت به العمارة الإيطالية يظهر في المقرنسات والزخارف المحيطة بالنوافذ بالواجهة بعد إعادة صيانته، وبعد ثلاثين عاماً تقريباً انتقل بنك روما إلى خارج الأسوار، إلى شارع عمر المختار حاليًا، حيث اتَّخذ ناصية رائعة له، وعندئذ أمر بالبو بتوظيف المقرّ القديم بالمدينة القديمة متحفاً به مكتبة بأربعة آلاف مرجع، والغاية: «التعريف بالثروة والكنز الطبيعي لليبيا، وتحريك البحوث والدراسات والتجميع الجيولوجي وكلّ ما يتعلق بالطبيعة، وكان ذلك في سنة 1936م، كما جاء في وثيقة منشورة بالإيطالية في التقويم السّنوي العام لليبيا (1039–1940) ترجمها الأستاذ محمد بهجت القرمانلي، المستشار بمشروع إدارة وتنظيم المدينة القديمة أطرابلس سابقًا، الذي كان برئاسة الأستاذة الأديبة فوزية شلابي.

(في اللغة: قرنس البيت (بالسِّين)، زينةُ بخوارج منه، ذات تدرُّج متناسب، فهو مُقَرْنَس)

وبدا دور بنك روما جليًّا وهو التمهيد للاحتلال، وخُططه وبرامجه تشير بوضوح إلى ذلك التوظيف، ففي المجال الاقتصادي: أنشأ مؤسسة الزيوت الإيطالية، والتي قامت ببناء معاصر لبذور الزيتون واستخراج الزيت في مدن منها: طرابلس ومصراتة والخمس وزليتن، وفي المجال الصناعي كانت إنشاءاته لمطاحن الحبوب والدقيق والحلفاء، ومصانع للصابون والإسفنج والثلج وغيرها.

وفي المجال التجاري نشط البنك في شراء القمح والشعير عبر وكالاته التجارية الاثني عشرة في المدن الليبية، وتضاعفت الحركة التجارية مع المدن الأوربية بتصدير ريش النعام والحلفاء والجلود والإسفنج والصوف والملح والحمضيات والتمور، وفي مجال النقل البري

والبحري اعتمد البنك خطوطا أسبوعية بين الموانئ والمراسي الليبية والموانئ الايطالية وعلى وجه الخصوص ميناء «جنوا».

وأدى بنك روما دورا خطيرا في المجال السياسي، فكان من بنود خطته حثّ الدول الاستعمارية للموافقة على تدخل إيطاليا في الشؤون الليبية، وتمويل البعثات الاستكشافية للبلاد، وكان ذلك عن طريق مركز ميلانو، وبإشراف جمعية الاستكشاف الجغرافية الإيطالية، ومعهد الدراسات الاستعمارية الإيطالية، وقد غطّى البنك مصاريف هذه البعثات والتي قامت بدراسة المنطقة الكبريتية بخليج سرت الشرقي (1910) ودراسة الموارد الطبيعية (1911) والتنقيب عن الفوسفات والمعادن، ووضع خرائط للمناطق، ودراسات علمية للآثار.

*(كان في طرابلس قرابة **150** عائلة إيطالية في العهد العثماني الثاني سنة **1881**م، كما جاء في تقرير القنصلية الإيطالية ومعظمهم من توسكانا ونابولي بإيطاليا.)*

وعلى صعيد نشاط البنك في الأعمال الخدمية: أنشأ بنك روما مكتبا للبريد، وكانت مبادلات بين مصر وليبيا وإيطاليا عن طريق شركات الملاحة الإيطالية، وارتبط البنك بالحكومة الإيطالية والفاتيكان الذي كان يبارك كلّ خطواته، ويسخِّر إعلامه لتأكيد دور البنك في الاستيطان الايطالي في ليبيا، وتهيئة الرأى العام الأوربي عامة والإيطالي خاصة للاستعمار.

وقدّم البنك القروض لليبيين برهان الأرض، وعند العجز عن التسديد تُحجز الأرض وتُباع لأحد أعضاء الجالية الإيطالية، وقد وصلت قروض الليبيين إلى 18.700.000 جنيه عند تلييب البنك في سنة 1970.

واتّخذ الموقف الوطني والتركي من بنك روما مساراً معارضًا، فقد نَدَّد الوطنيون بالمساعي الإيطالية للتدخل في شؤون البلاد، ووثيقة مؤرخة في 2 نوفمبر 1908 تشير إلى ذلك بمناشير ألصقت في مناطق بمدينة طرابلس، كما حَرَّض الوطنيّون الأهالي على مقاطعة السلع التي تصل طرابلس بالسفن الإيطالية، والامتناع عن تفريغها، وساد شعور عام بأنَّ تصرفات بنك روما وأفراد الجالية الإيطالية قد حادت عن الصّواب.

وأعلن الاتِّحاديون الأتراك عن سياستهم المناهضة للاستعمار، وأدت صحيفتا «الترقي وأبي قشّة» الطرابلسيتين دوراً في التنديد بما يقوم به البنك، وطالبت الآستانة بإقرار

موقف أكثر حدة من الإيطاليين.

وجاء إبراهيم باشا (1909–1911م)- كما تقدّم قوله- وكان موقفه صلباً صارماً فشكّل لجنة للتحقيق، أكَّدَتْ أن بنك روما تحايل على القانون العثماني بمساعدة أفراد من الجالية الإيطالية لشراء الأراضي، وأن أموال البنك الموظَّفة هي ملك للحكومة الإيطالية والفاتيكان، وبهذا أوصت لجنة التحقيق العثمانية:

- بإيقاف شراء الأراضي من قبل الإيطاليين.
- وتشجيع شركات غير إيطالية للقيام بالمشاريع.
- ورفض بناء مصنع للورق من نبات الحلفاء الذي تقدمّ به بنك روما (1909م).

وصدر الفرمان السلطاني العثماني في 24 أبريل 1909 بمنع بيع الأراضي الميري، وعدم جواز بيع الأهالي لأراضيهم لأية شركة أجنبية، ومنع الأجانب من شراء الأراضي، ولأنَّ بعض المواطنين كانوا يأخذون العمولات والرشاوى من البنك فقد أفلح الوالي العثماني من كشفهم واعتبرهم جواسيس، واتُّهموا بالعمل لصالح الحكومة الإيطالية، وقد سخَّر الوالي شرطته في مراقبة البنك من خلال فتحات صغيرة بمدرسة عثمان باشا المقابلة للجناح الشرقي من البنك.

وكان الموقف الإيطالي واضحاً في تشجيع سياسة البنك، ويبدو ذلك في كتابات (بيانزا) في صحيفة تريبونا، وكلمات النائب «روميو كالينو»، في برلمان روما، وما أدلّى به (فرانشيسكو ماجيري) بأن العداوة العثمانية وصلت حدّها الأعلى (1910–1911)، وما ذكره (وليم اسكيو) من أنَّ التغلغل السلمي قد فشل وأنّه حان الوقت للغزو العسكري.

ولعبت ثلاث شخصيات (برياني وبلداري وبسيلي) الدور الأساس لتقديم الدعم الكامل للحكومة الإيطالية تمهيداً لاحتلال ليبيا، وهكذا «من دون النفخ في الأبواق، ومن دون ضجيج افتتح بنك روما- على حين غفلة- فرعاً في طرابلس ثم في بنغازي» كما وثَّق ذلك شاهد عيان إيطالي.

تقدمّت السُفن الإيطالية وأحكمت حصارها على الشاطئ الطرابلسي، وغدا موقف الحامية العثمانية متأزّمًا، وهو لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل، وعند الساعة الثانية

والنصف من بعد ظهر اليوم الثالث من شهر أكتوبر 1911م، تلقَّى ميناء طرابلس أوّل قنبلة من السفينة «البندتو برين Benededtto brin»، وأخذت القنابل تتساقط، وبدأ الرّد من المدافع الطرابلسية، من قلعتي الحميدية شرقي المدينة، والسُّلطانية من غربيِّه، وكان رَدُّها تعبيرًا فقط عن رفض الاحتلال.

في اليوم الخامس نزلت القوات الإيطالية الشَّاطئ الطرابلسي بنحو 1732 جنديًّا في مرحلتها الأولي، وفي يومي الحادي عشر والثاني عشر من الشهر نفسه دُعِّمت بقوات آخرى تحت إمرة الجنرال «كانيفا»، وتمكنت في وقت قصير من السيطرة على المدينة والواحات المحيطة بها، على باب قرقارش، ومنطقة الهاني، ومصادر المياه في بومليانة، وأخذت في إقامة تحصينات حول المدينة، من شاطئ الهنشير شرقًا، وصولًا إلى آبار بومليانة غربًا، على مسافة كيلومترين تقريبًا.

(كارلو كانيفاCaneva : قائد عسكري إيطالي تولَّى حكم المستعمرة طرابلس من أكتوبر 1911م وحتى سبتمبر 1912م.)

انسحبت الحامية العثمانية إلى جنوب المدينة، واتّخذت من بلدة العزيزية مقرًّا لها بقيادة العقيد التركي «نشأت بك» والتحق به المجاهدون من كلّ المنطقة الغربية والوسطى، وأخذ في تنظيم صفوفه في تشكيلات عسكرية.

استعد المجاهدون لمعركة «الهاني – شارع الشَّط»، فأقامت قوات المجاهدين نقاط تمركز في «قصر الهاني» على وجه الخصوص، والهاني ربوة عالية إلى الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس، مُقام عليها قصر اتّخذه العثمانيون مقرًّا للنواحي الأربع وهي آنذاك: سوق الجمعة والمنشية والرقيعات والعلاونة.

وبدأ الإعداد للمعركة، فكان الاتصال بسكان المدينة والمنشية على وجه الخصوص، مع تنظيم قوات المجاهدين على طول خط المواجهة، وفي صبيحة يوم 23 أكتوبر 1911، باشرت قوات المجاهدين هجومًا على طول الجبهة، وقوة من الفرسان اللّيبيين تخترق القوات الإيطالية، وتتقدَّم باتّجاه باب قرقارش، ويشتبك أهالي المنشية مع الرُّماة الإيطاليين، ويقضون على الكثير منهم، وينسحب الإيطاليون إلى منطقة الشَّعاب وفشلوم وزواية الدهماني، وتنتهي المعركة بخسائر فادحة للإيطاليين.

وثيقة: «أطلق الرّجال والنساء والشيوخ النّار علينا، كانوا مسلحين ببنادق حربية

وبنادق صيد وعِصِيّ، زحفوا علينا إلى مسافة 50 متراً، وهم يطلقون نيران أسلحتهم، مُلَوّحِين بعصيهم، وكانوا يرتدون خِرَقًا من جميع الألبسة» (إيطالي ناجٍ من المعركة.)

وثأرًا لتلك الهزيمة استباحت إيطاليا طرابلس المدينة (24 و25 أكتوبر) متهمة الأهالي بالخيانة بوقوفهم مع المجاهدين، وقد ذُكِرَ أنَّ عدد القتلى كان نحو الأربعمئة طرابلسي، كما يَشْهَد يوم 26 من الشهر نفسه نفي قرابة السّتمئة طرابلسي من مختلف الأعمار إلى الجزر الإيطالية.

وفي يوم 5 نوفمبر 1911، أعلنت إيطاليا ضَمَّ طرابلس إلى التّاج الإيطالي، وإثر ذلك بدأت المفاوضات بين الدولة العثمانية وإيطاليا، ومع بداية شهر يوليو 1912، أثمرت بمعاهدة «أُوشي لوزان»، حيث رضخت الدولة العثمانية إلى الضغوط الإيطالية والدولية فتنازلت عن ليبيا، ويُصْدِر «السلطان» فرماناً في 16 أكتوبر 1912 بمنح البلاد استقلالها الذاتي، قبل يومين من توقيع المعاهدة التي أدّت إلى انسحاب الدولة العثمانية من ميدان القتال.

(تشير الباحثة هالة شيوغين في أطروحتها باسم «حرب طرابلس الغرب والعلاقات التركية الإيطالية (1911-1912) للصعوبات التي واجهت الدولة العثمانية قبل حرب طرابلس مثل: احتلال النمسا للبوسنة والهرسك، وإعلان البلغار استقلالهم عن الدولة العثمانية، ومقاومة منطقة البلقان للعثمانين، واتفاقية الروس وإيطاليا، وتقدم الكاتبة معلومات مفصلة عن حرب طرابلس، ومساندة عساكر الجيش العثماني للشعب الليبي.)

وعُقد مؤتمر العزيزية (21 أكتوبر 1912) وضَمَّ الزعامات الطرابلسية، وانقسموا إلى فريقين، فريق يريد التصدّى للغزاة قتالاً، وفريق آخر يرى السَّير في العملية السلميّة وإجراء مفاوضات.

ولصدّ هجمات المجاهدين بَنى الإيطاليون «الكردون» وهو حائط حول المنطقة المحتّلة في طرابلس المركز، ويُذْكر أنّ سمكه نحو 50 سم وارتفاعه قرابة 4 أمتار ويمتد من بوستة إلى قرقارش وطوله 10 كيلومترات وتتخلله أبواب: بوستة وتاجوراء وترهونة وبن غشير وعكارة والعزيزية وقرقارش كما يذكر المهندس علي الميلودي عمورة في «القلاع والحصون والقصور والمحارس على التراب الليبي خلال مختلف العهود»، هذا ولا يزال جزء ظاهر منه بالقرب من منطقة الهاني، وقد ظَلَّ الإيطاليون مُحاصَرِين فيها طوال الفترة

من 1915م إلى 1922م.

وتذكر الوثائق الضّابط العثماني أحمد شكري بابا بك، برتبة نقيب، حارب إلى جانب الطرابلسيين، قاد ثلاثين جنديا بأربعة مدافع، ونجح في وقف زحف العساكر الإيطالية المتوجّهة إلى عين زارة، ما منح الفرصة للمجاهدين بالانسحاب إلى الخطّ الدفاعي الثّاني، وكان ذلك الحدث بتاريخ 1911/12/4م، كما تشير المراجع التّاريخية إلى أنور باشا، من كبار ضباط الجيش العثماني، التحق بالمجاهدين، وهو مؤسّس «تشكيلاتي مخصوص» كان مقرها درنة، وكان تحت قيادته «نشأة باشا» الذي عينه قائدًا لمنطقة طرابلس.

وفي 16 نوفمبر 1918 تنادى زعماء طرابلس بمسجد المجابرة بمسلاتة لتنفيذ فكرة إنشاء حكومة وطنية باسم «الجمهورية الطرابلسية». أُنْتُخِبَ رمضان السويحلي وسليمان الباروني وعبد النبي بلخير وأحمد المريّض أعضاء لها، وانْتُخِبَ مجلس شورى من أربعة وعشرين عضواً يمثلون مختلف المناطق، وانتخب مجلسًا شرعيًا لها، واختيرت بلدة العزيزية مركزاً للحكومة، وأَبْلَغَ وفد مجلس الجمهورية الحكومة الإيطالية بهذا الشأن، وطالب الاعتراف بحكومة الجمهورية، وهو الأمر الذي رفضته إيطاليا.

وثيقة: والأدب الشعّبي في ملحمة الجهاد اللِّيبي هو وثائق تاريخية لهذه الفترة، «إقدامًا وتراجعًا انتصاراتٍ وهزائم، موتًا وحياةً، هجرةً وأسفارًا.»*(عبد الوهاب الأجدل الزِّنتاني)*

وخلال عشرين سنة (1911–1931م) لم تتوقف المقاومة الليبية في كلّ بلدة، كما لم تتوقف المعتقلات الجماعية، حيث حُشِرَ الأهالي في معسكرات بإجراءات قمعية.

في 1922–1923م نقلت السجون التي بداخل قلعة طرابلس إلى سجن جديد بمنطقة باب بن غشير وهو «سجن باب بينيتو»، وأُقيم سجن آخر بالجديدة كما روت «ورقات مطوية» للباحث محمد الأسطى، وامتلأت السجون بالمجاهدين الطرابلسيين، ووضع في معسكر العقيلة ما يزيد عن 80 ألف مواطن تعرضوا للجوع والأمراض، ويصف الشاعر الشعبي رجب بوحويش حياته وزملاءه بهذا المعتقل، ومع أواخر سنة 1931م، وبإعدام المجاهد عمر المختار خبت المقاومة في كلّ البلاد، وَغَدت ليبيا الشَّاطئ الرّابع لإيطاليا.

يُبْرِزُ قلم «براين ماكلاين» مؤلِّف كتاب «العمارة والسياحة في ليبيا إبّان الاستعمار

الإيطالي» والذي تُرْجِمَ بقلم «محمد عمران أبوميس» ونشرته في طبعته العربية الأُولى «دار الفرجاني الطرابلسية» - يُبْرِزُ المعالم الكبرى التي تحققتْ في الفترة الإيطالية لليبيا، والتي عُبِّرَ عنها بالعمارة «الكولونيالية» **colonialism** أيْ: الاستعمارية، وهو مفهوم للدلالة على منظور نزوع دولة ما إلى استعمار دولة أخرى، ومن المعروف أنَّ المرادف العربي وهو «مُسْتَعْمِر» يدلّ على الإعمار، وهو ما تلجأ إليه تلك الدول في توضيح رسالتها للاحتلال.

(قال أحد الجزائريين في ندوة علمية بالجزائر إنهم ليسوا بمستعمرين، بل مستدمرين، فقد دمّروا بلادنا ولم يُعمّروها.)

أولت الإدارة الإيطالية المستعمرة طرابلس ببرنامج صيانة ومحافظة، وكانت البداية بقوس «ماركوس» حيث كان من أولى أولوياتها عرض النُّصْب كاملاً، وهو المَعْلَم الأثري المرتبط بتاريخ روما وطرابلس لما يَقْرُبُ من ألفي سنة على عودة روما لمستعمرتها السابقة.

ولتنظيم المنطقة المحيطة بالقوس أُجريت الحفريات الأركيولوجية ما بين عامي 1914و1918، ومع العام 1937 كان المشروع الذي نُفِّذَ بإشراف المصمِّم «دي فاوستو» قد تمَّ، وظَهَرَ القوس كاملاً في حديقة منخفضة عن الشّارع، وقد تطلب الأمر إزالة وإعادة بناء أجزاء كبيرة من بنايات القرن الثامن عشر المجاورة للنُّصب.

في سنة 1912م أرسلت إيطاليا المهندس لويجي لويجي **Luigi** في مهمّة إلى طرابلس لدراسة البيئة الإدارية، وتحديد أهم الإصلاحات اللازمة، فأوصى بإعادة بناء الميناء، وإنشاء منظومات مياه وصرف صحي، وتنظيم الشّوارع، وتشييد مبان حكومية في طرابلس والواحة المحيطة بها، واقْتُرِحَ للمدينة القديمة أطرابلس ترميم أسوارها وقلعتها وإقامة منتزه جميل وواسع، لِيُحْدِثَ تباينًا مع الأزقة الضيقة، وذَكَّرَ بالطقس المعتدل والشمس المشرقة، وبسبب تواصل المعارك لم يُنْجَزْ من مقترحه سِوَى استكمال جزئي لأعمال شبكة المياه، وصيانة بعض الشوارع.

(مع العام 1919 أصبحت الفاشية حركة أيديولوجية مُنظَّمة دَعَّمت إعادة مجد الإمبراطورية الرّومانية، وسَعَتْ لتوسيع مناطق نفوذ إيطاليا، ووصل موسوليني في 31 أكتوبر 1922، للسّلطة وَلُقِّبَ بـ الدوتشي (القائد).

«عُيِّنَ جوزيبي فولبي Gioseppe Volpi الرّجل السياسي ورجل الأعمال حاكما لليبيا (أغسطس -1921 مايو 1925م) فرأى أنْ يبدأ إعادة الاحتلال، فأسند المهمة العسكرية إلى «رودولفو غراتسياني Graziani» ومع نهاية سنة 1925م أصبحت معظم المناطق السّاحلية ومراكز إستراتيجية أُخرى في دواخل طرابلس تحت سيطرة الإيطاليين.

دَشّنَ فولبي برنامجًا طموحًا للاستيلاء على الأراضي، حيث ذُكِرَ أنّه استغلّ نصًّا فقهيًّا يقول: «إنَّ الأرض الزراعية الّتي لا يشغلها صاحبها لمدة ثلاث سنوات تؤول إلى الدولة» وهكذا بلغت الأراضي المغتصبة من الأهالي إلى أكثر من نصف مليون هكتار، كما يُوصف بانّه وَضَعَ نظامًا ضريبيًّا أكثر فاعلية وربحية– ما مكَّن من تطوير المُستعمرة بنسق أسرع ومكثَّف ذاتيًّا.

وأصدرتْ لجنة الصِّيانة والمحافظة قائمة في شهر نوفمبر 1921 نُفِّذَتْ ما بين 1922و1926م، جُدِّدتْ فيها ثلاثة عشر مبنىً دينيًّا إسلاميًّا، وأربعةُ وعشرون مسكنا خاصًّا، وضَمَّت كذلك صرحين رومانيين، وترميم أسوار المدينة القديمة، الّذي يعود إلى المهندس «رومانيلِّي»، وترميم السراي الحمراء والتي برعاية المعماري «برازيني.»

ولإعادة رسم الوجه العامّ لطرابلس المدينة أُنجزت مشروعات مهمة منها: إعادة بناء الميناء، وتنظيم فضاء عام من إعداد اليكساندرو ليمونجيللي، وهو «بياتزا إيطاليا» قبالة السراي الحمراء، (ميدان الشهداء اليوم)، وشُقَّ شارع رئيس هو طريق «فيتوريو عمانويل الثالث»، على أنقاض شارع العزيزية في العهد العثماني (شارع الاستقلال)، وقد اشتمل على قاعة البلدية، ومحكمة، وكاتدرائية، وبهذا أصبح مركز حياة المدينة الإيطالية، ومن المعروف أنّ اسمه أيام المملكة «شارع الاستقلال» وغُيِّر إلى شارع «امحمد المقريف» في عهد الجمهورية العربية الليبية، وعاد إلى مُسَمَّاه الأوّل «شارع الاستقلال» بعد ثورة السّابع عشر من فبراير 2011.

في ميدان الكاتدرائية piazza della cattedrale نُظِّمتْ مسابقات لتصميم مشروعات عامّة، وقد أُسند التنظيم إلى بلدية طرابلس ووزارة المستعمرات، وكان الغرض من ذلك تصميم ثلاثة مبان في الفضاء العام أمام الكاتدرائية، والتي قام بتصميمها المهندس المعماري saffo panteri.

(الكاتدرائية مبنية على أنقاض مبنى قديم، وهي مسجد في الوقت الحالي، برعاية جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، والمسجد تحفة معمارية بجهود ثلّة من المعماريين الموهوبين.)

(مع أواخر الستينات شاهدتُ الإيطاليين رجالًا ونساءً في هذا الشارع وهم يتبضعون من متاجره الأنيقة، وقد استمرت الجالية الإيطالية في طرابلس إلى السابع من أكتوبر 1970م، حيث صدرت الأوامر بترحيلها، وأشير إلى وجود نفق بين شارع الترسانة والطريق المؤدي إلى الميناء، وكنت أمر راجلا خلاله، وفيه شُيِّدَ المتحف الجماهيري، الذي افتتح سنة 1987م.)

ويُصَمَّمُ النُّصْب التّذكاري لصرعى الحرب والنّصر (1923 – 1925) تخليدًا لذكرى الجنود الإيطاليين الذين قَضَوا في بداية الغزو، ويقع في الواجهة الشاطئية الغربية من المدينة القديمة بالقُبَّة (خزان المياه حاليًا)، وله صورة تذكارية سنة 1928 بمناسبة زيارة ملك إيطاليا لطرابلس.

(نقل الإيطاليون مقبرة النصارى إلى خارج السور، وأقاموا نصب الجندي المجهول.)

ويَذْكُرُ الدّارسون أَنَّ تصميم هذا النّصب ذو ارتباط بضريح «تيودوريك» Theodoric في رافِنّا Ravenna من القرن الخامس الميلادي، والذي يُقْرَأ على أنّه «لحظة الوصل بين الشرق والغرب»، وهو تجسيدٌ ملموس للسِّياسة الاستعمارية.

وشُيِّدَتْ جادّة «لونجو ماري كونتي فولبي» من المعماري الرّوماني أرماندو برازيني، وتمتد هذه الجادّة من السَّراي الحمراء غربًا وحتى حيّ زاوية الدهماني شرقًا وهو شارع عريض به أشجار النخيل، ويحدّه عند الشاطئ درابزين حجري، وعُرِفَ باسم شارع» أدريان بلت» في الفترة الملكية، وأدريان هو ممثل الأمم المتحدة في ليبيا قبيل الاستقلال.

واتّسعت المنظومة السياحية، وشُرِع في السِّياحة الداخلية بتسيير حافلات شهرية من طرابلس إلى غدامس، وتُوَثِّقُ البطاقات البريدية حملة السيارات الأولى من 26 فبراير إلى مارس 1925م وقد شارك فيها غراتسياني كسائح حيث كان الوصول إلى غدامس مساء الرابع من شهر مارس، ومغادرتها في صباح الثامن من الشهر نفسه.

وثيقة: «بالأمس فقط أنهينا حملة ثانيه بالسّيارات، من طرابلس إلى غدامس، بقيادة غراتسياني الذي سلك طريقا جديداً إذا ما استثنيا منطقة الكثبان الرّملية الكبرى

المتحرّكة، ما بين سيناون وغدامس» (فولبي، برقية إلى وزير المستعمرات 1925م)

وبرزت في عهد دي بونو 1928 -1925) De Bono م) «أهمية التطوير الاقتصادي للإقليم بتأسيس «معرض طرابلس التجاري» في أوائل سنة 1927م، والذي نُظِّمَ بطريقة مماثلة للمعارض في إيطاليا مثل معرض ميلانو التجاري، وقد حضر الافتتاح دوق بوليه وقرينته، واعترف بالمعرض كهيئة عامة بتاريخ 7 نوفمبر 1927م.

*(دي بونو، أحد الأربعة الذين قادوا مع موسوليني **Mussalini** حركة الزحف على روما وإنشاء الفاشية.)*

وكان معرض طرابلس التجاري يعرض أحدث المنتجات في مجالي الصِّناعات والحِرف التقليدية، وهو في الوقت نفسه وسيلة للدعاية الاستعمارية تبرز فيها قوة إيطاليا كأُمّة مُستعمِرة بتشجيعها للتّطوير والتنمية، وقد اتّضحت الوظيفة الاقتصادية لهذا المعرض في الروزنامة السياحية لليبيا آنذاك، وقد استمرّ حتَّى سنة 1939 سنويًّا.

وحَظِيَتِ الصناعات التقليدية المحلية باهتمام فكانت العروض في مدن إيطاليا، (ميلانو ونابولي)، وفي معرض تورينو الدّولي سنة 1928 عَرَفَ الإيطاليون وغيرهم «قرية طرابلس للصِّناعات التقليدية.»

وظهرت قوانين «دى بونو» للتنمية الزّراعية، وأُنْجِزَت مشاريع ذات علاقة بالبنية التحتية، ولتطوير منظومة سياحية في طرابلس شُيِّد: «الفندق الكبير» (1925 – 1927)، وقد خَطَّطت له ونفذته البلدية، وهو على بُعد أربعة تقاطعات من بياتزا إيطاليا (ميدان الشهداء حاليًا).

كان الفندق الكبير حينها من أفخم الفنادق بإقامة لحوالى 120 شخصًا، به مطعم وبار وملاعب للتنس وحديقة خاصة، ومظهره الخارجي بنمط العمارة السياحية، ويشتمل على قشرة رقيقة من أقواس الحدوة المغربية، وخلال سنوات 1926–1928م، صدرت صحيفة «كوارتا سبوندا» **La quarta sponda** (الشاطئ الرابع).

(زار موسوليني طرابلس 1926م، وهي الزيارة الأولى له، وقُدِّمَ له كتاب «نهضة طرابلس الغرب» ويتضمن الأعمال التي قام بها «فولبي»، ومُخَطَّط «دي بونو» لتطوير البلاد وإدماجها في إيطاليا.)

وفي شهر يناير من سنة 1929م، يُصْبح المارشال «بييترو بادوليو **Pietro Badoglio**» (1929- 1933م) حاكما لإقليمي طرابلس الغرب وبرقة، وهو قائد عسكرير وسياسي، من المقربين للملك عمانويل، ويُعَدُّ رجل الملمّات- كما وُصِفَ- من أسوا وأعنف الحكّام الإيطاليين لليبيا، إذْ أمر بإنشاء ثلاثة عشر مركز اعتقال في منطقة برقة، وتحت إدارته اختتمت العمليات الحربية المتواصلة التي قادها الجنرال «رودولفو غراتسياني»، والتي أنهت المقاومة مع حلول شهر يناير سنة 1932.

في فترة حكم بادوليو كان طلبه من المعماريين الميلانِيّين (نسبة إلى ميلانو)، «ألبرتو نوفيلوو» **Alberto Novillo**، و»جويدو فيرتزا» **Guido Ferrazza**، و»أُوتّافيو كابياتي» **Otavio Capiat**- إعداد مخطّط عام جديد لمدينتي طرابلس وبنغازي.

من أعمال هذا الحاكم أنّه أنشأ مرافق عامة جديدة، منها: المدرسة الإيطالية العربية، وتشييد سلسلة من ثمانية فنادق في أنحاء مختلفة، ذات أحجام صغيرة، ودور عرض سينمائي، وتشجيع الإيطاليين على الاستقرار كمستوطنين زراعيين، ونقْل مقر المعرض إلى حيّ تجاري وسكني جديد في جادة صقلِيّة **Corso Sicilia**، وهو شارع عمر المختار الحالي (1929م)، وقد تحوّل من معرض محلي إلى معرض أقرب إلى الدّولي (1930م)، بإشراك عدد محدود من العارضين الأفارقة والأوربيين وبشعار: «المعرض الإفريقي الأَوّل»، وفي فترة حكمه تم تشييد القصر (1933م) وأوّل من سكنه كان بالبو فنُسِبَ إليه.

وتمتع «بالبو» **Balbo** بشعبية واسعة بعد قيادته أُسطولاً من أربع وعشرين طائرة مائية في رحلة جماعية عبر المحيط الأطلنطي إلى نيويورك ثُمَّ إلى شيكاغو عام 1933، وقد أدّى بزوغ هذا النجم في نهاية المطاف إلى إقصائه بعيدًا، من قِبَلِ الزّعيم الفاشستي موسوليني عام 1934، حيث أُسْنِدَ إليه منصب حاكم ليبيا.

وبالبو (1934- 1940) مارشال جو، كان أحد زعماء فرق القمصان السّود، التحق بالفاشية سنة 1921، تنقل كثيرًا في مدن ليبيا حين عُيِّن حاكمًا لها، وَتوَاصَلَ مع شخصيات بارزة فيها، وحَوَّل البلاد إلى مملكة خاصة به، وأقام مكتبه بالسراي الحمراء، وجعل القصر الذي سكنه مزيّنًا بالخيالة، ببرانسهم الحمراء المزركشة، وهم وقوف عند مدخله وفي الممرات المؤدية إليه، وصارت السّلطات المطلقة في يده: الشؤون السياسية،

والإدارية، والتشريعية، والعسكرية، والمالية، وكانت إصلاحاته الإدارية بغرض توحيد إقليمي طرابلس الغرب وبرقة تحت سلطة واحدة.

(اتّخذ الملك محمد إدريس السنوسي القصر المشار إليه مُقامًا له، وهو فسيح الأرجاء، وبطراز هندسي رفيع، وكنتُ في صباي أذهب اليه في ليالي شهر رمضان المبارك- في العهد الملكي، مشيًّا على الأقدام من بيتنا بالمدينة القديمة- لأستمع إلى قراءات المجوّدين من القراء الذين كانوا يأتون لطرابلس في هذا الشهر الكريم، من مصر المحروسة وغيرها، وقد أصبح يسمى قصر الشعب بعد 1/ 9/ 1969، وشغله الاتحاد الاشتراكي، ثُمَّ غدا مكتبة عامة، ثُمَّ متحفًا لقطع من الآثار الرومانية وغيرها، ومقصدًا لبرامج ثقافية وفنية، وقد شاهدتُ ذلك عيانًا، فسبحانه مُغيّر الأحوال من حال إلى حال!!)

ولتكون البلاد كلها بإدارة سلطة مركزية واحدة قَسَّمَ بالبو البلاد إلى إقليمين متميزين: الأول أربع مقاطعات ساحلية وهي: طرابلس، ومصراتة، وبنغازي، ودَرنة، والثاني مقاطعة نائية وهي: الجفرة والكُفرة وغات، ومع سنة **1939**م صدر المرسوم الملكي الإيطالي بدمج المقاطعات الأربع ضمن أراضي مملكة إيطاليا، وفي سنة **1940**م، ضمت ليبيا رسميًا إلى إيطاليا ليكون ساحلها الشاطئ الرابع المكمل لسواحلها الثلاثة.

وثيقة: «أطلقت إدارة بالبو برنامج العفو وتطورت سياسته المحلية إلى مزيج من صرامة الحكم وإيماءات مصالحة محسوبة بدقّة.» (ماكلارين)

ومن أكثر المبادرات طموحًا لإدارة بالبو هي فلسفة الدمج من خلال «منح الجنسية الإيطالية الكاملة للسكان المحليين.» كما أعلن عن العفو العامّ للجميع، ومع معارضات من عدة جهات إيطالية وخاصة عضو الأكاديمية الإيطالية والخبير في الشريعة الإسلامية البروفسور «نالّينو» **Nallino**- إلاَّ أن موسوليني وافق على منح الجنسية لليبيين، وهو ما عُدَّ انتصارًا لأفكار بالبو الدَّامجة.

وثيقة: «والحقيقة أنَّ السِّياسة الإيطالية تُجاه الليبيّن بمنحهم الجنسية، وفي نفس الوقت حرمانهم من المساواة في الحقوق، دليل واضح على تضارب السّياسة المحلية في ليبيا، ومن خلال إيماءة مزدوجة بالِدمج والتمييز في آن، فإنَّ اللّيبيين يوصفون وفق معايير الثقافة الحضرية الحديثة بأنّهم غربيّون، ولكنّهم يظلّون بدائيين ومتخلفين ولا غربيين.» (ماكلارين)

بحلول الذِّكرَى السّادسَة عشرة للثورة الفاشستية (1938) كان التعبير الرمزي عن دمج ليبيا في الدّولة الإيطالية، الشّاطئ الرّابع لإيطاليا، قطعة من التراب الإيطالي، وجزء من القدر التاريخي لإيطاليا، هي وطن الأجداد استعادت في النهاية حقيقته التاريخية: الإحساس والقدرة البنّاءة للإمبراطورية كما كان يُرَدِّد موسوليني.

وتأسست مدرستان في مبنى «دار البارود» الواقعة إزاء سوق المشير ما بين جامع أحمد باشا القرمانلي وميدان الشهداء وهذا هو سوق الصناعات التقليدية من تصميم المهندس المعماري دي فاوستو، وتنفيذ المكتب الفني بالبلدية، ودشنت الدار في 28 أكتوبر 1935.

المدرسة الأولى للخزف والفخار بإشراف الأستاذ «ميليس» والأخرى للمعادن (الذهب والفضة وطرق النحاس ونقش المعادن) بإشراف الأستاذ «قويدو انجليني»، وفي وقت لاحق انتقلت مدرسة المعادن إلى فندق بنت السيد بباب البحر، وارتحلت مدرسة الخزف والفخار إلى مكتب الفنون والصنائع، خارج السُّور.

وفي البرنامج الرياضي والترفيهي تأسس فريق الليتوريو العربي (G.A.L)، (Gioventu arabe del littorio وهي من الأندية الإيطالية التي كانت تستقطب الأطفال الطرابلسيين، واللتوريو يرمز إلى الاتحاد قوة، وهو شعار يخلّد العمل الفاشي، عبارة عن حزمة من العِصيّ مربوطة بخيوط يتوسطها فأس.

وعرفت البلاد تحسين البِنْية التحتية، وتطوير منظومات المياه والصّرف الصحي، وتطوير شبكة الطرق، وإدخال الإنارة، وإنشاء الحدائق في المراكز الكبرى، في طرابلس وبنغازي، وبعثات جيولوجية لاكتشاف مصادر المياه الجوفية في الداخل (نالوت وغدامس)، واسْتُحْدِثَتْ ثلاث وستّون وحدة سكنية لموظفي مدينة طرابلس، وخلال السّنتين الأُولَيَيْن من حكم بالبو كان متوسط المصروفات لمدينة طرابلس 54 مليون ليرة، وهو مبلغ ضخم أُنْجِزَتْ به المشاريع المُخَطَّط لها.

ويذكر الدراسون لحقبة بالبو أنّه كان له مشروعان بارزان ترصدهما الوثائق التّاريخية وهما شقّ الطريق السّاحلي واستيطان الإيطاليين في البلاد.

قُسِّمَ الطريق الساحلي إلى قطاعات، وطُرِحَ كل قطاّع في مناقصة تنافسية، واشتمل الطريق على استراحات وإقامة للمسافرين، وانتهِيَ منه سنة 1937، قَبْلَ أسابيع من

الزيارة الثانية لموسوليني.

ومشروع الطريق خطاب استعماري، نجد تعبيرًا رمزيًّا عنه في تصميم قوس الأخوين فيليني، وقصته مُسَجّلة بدقة من قِبَلِ الأثري المرموق فيليب كنريك، في كتابه «إقليم المدن الثلاث»، وملخص ذلك:

كان تشييد طريق معبد إنجازًا هندسيًّا عظيمًا للإدارة الاستعمارية الإيطالية، وقد أُنْجِزَ في فترة تزيد عن عام واحد بقليل، بين 1935و1936، وكان عَرْض السَّطح المُعبّد بالإسفلت خمسة أمتار، وعُرِف باسم «فِيًّا بالبايا» (Via balbia)، وانتُهِيَ العمل به في شهر فبراير 1937م.

رَغِبَ بالبو بإحياء ذكرى إتمام الطريق ببناء قوس نصر عظيم في منتصف الطريق تقريبًا، فَعُهِدَ بتصميمه إلى المعماري «دي فاوستو»، المسؤول عن بناء جزء كبير من أعمال العمارة الرسمية الإيطالية في المُستعمرَة الليبيّة.

أخذ القوس شكل برج مستدق، يبلغ ارتفاعه 30.85 مترًا، له فتحة ارتفاعها 15.75 مترًا، وعرضها 6.50 أمتار، واتَّسَمَ القوس من حيث أسلوبه بكثير من الحِدَّة في الهندسة المعمارية الفاشية، وجمع تأثيرات فينيقيّة وهيلينستية ورومانية، وبُنِيَ من الإسمنت، وبواجهة من الحجر الجيري، زنتها 350 طنًّا، اقتطع من محجرة تيفولي، ونُقِلَ بواسطة سفن شراعية إلى رأس لانوف، في رحلة استغرقت ما بين خمسة عشر وعشرين يومًا.

في عليّة القوس المُكَوَّن من ثلاثة صفوف نقْشٌ «للشاعر «هوريس» يرجع للعام 17 قبل الميلاد يمدح إنجازات الإمبراطور «أغسطس» (30ق م.– 14م) ونصه: «أيهّا الشَّمس الراعية، أَدْعُو ألاّ تَرَيْنَ أبدًا مدينة أعظم من روما.»

على كلا جانبي القوس فجوة، بكل واحدة تمثال برونزي ضخم مستلقٍ على أحد جانبيه يتلوّى ألمًا، وهو تلميح لأسطورة الأخوين «فيليني» والتي تتعلق برسم الحدود بين مناطق نفوذ القرطاجيين في إقليم المدن الثلاث، والإغريق في إقليم برقة، والتمثالان حاليا (في فترة زيارة الأثري كنريك) على قاعدتين داخل مدخل منطقة مدينة «سلطان» الأثرية وهما من عمل النّحات «الديكو كونتي «Aldeico conti:»، وقد شاهدهما الأثري كنريك.

وبالقوس جدارية بارزة من حجر التراميزتين موضوعها: «بناء الطريق، وتأمين الإمبراطورية الجديدة» تُظْهِرُ مسَّاحي أراض يرتدون قبعات ويحملون رسومات هندسية، ووراءهم عمال ليبيون بمطارق ثقيلة، وآلة لتحطيم الصخور، وعربات سكّة حديد، وفي الخلفية قافلة من الإبل تجلب براميل المياه.

وفي الجانب صورة « الدوتشي موسوليني» على رأس قواته محييًا الملك «إيمانويل الثالث» بشاربه، وفي الأعلى مُزارع يحرث الأرض (سيوف تحولت إلى شفرات محراث)، وفي الزاوية العليا مشهد لملائكة يعزفن بالأبواق، ونقوشان باللغتين الإيطالية واللاتينية، يقابل أحدهما الآخر، موجودان فوق القنطرة، وقد نفذ أحدهما الفنان كويرينو روجيري **Quirino Ruggeri** ويرمز إلى إنشاء الطريق، ونفذ الآخر الفنان إركولي دري **Ercoli Drie** ويرمز إلى تأسيس الإمبراطورية الرُّومانية، بالإضافة إلى لوحات بها اقتباسات من خطب موسوليني.

بعد خمسة وثلاثين عامًا هُدِمَ القوس في عهد الجمهورية العربية الليبية (**1972**) وأصبحت أشلاؤه مرمية في الرمال بشكل مهمل، إذ «لم يعد بالإمكان السماح له بالتعايش مع الجمهورية».

ويستمر كنريك في العرض والتحليل وإبداء رؤيته، فيقول:

«أمّا تأثير هذا النُّصب التذكاري المنافي للعقل والطبيعة، والّذي بُنِيَ لكلّ الأزمان، ولكنه تهدّم بعد خمسة وثلاثين عاماً على بنائه، وبأشلائه المرمية في الرمال بشكل مهمل، يمثل تذكيراً لا يمكن تجاهله للأمجاد المنهارة للفرعون المصري رمسيس الثاني، ولقصيدة شيلي «أوزيماندياس» **Ozymandias** الّتي تظهر على قاعدة تمثال رمسيس الثاني، ونصُّها: «اسمي أُوزيماندياس، ملك الملوك، انظرْ إلى أعمالي أيها العظيم، يالَلْيأس! لا شيء باق حول هذا الحطام الهائل، رمال لا حدود لها جرداء، وحيدة ومنبسطة تمتد بعيداً بعيداً!!»

ويبين كنريك قصة الحدود، فيورد أنه– بعد صراع مرير وغير مثمر تقرّر تسوية الأمر لرسم الحدود بين الطرفين القرطاجي والإغريقي بسباقٍ، تنطلق مجموعتان تضمُّ عدائَيْن اثنين من كل جهة، وفي وقت واحد، من قرطاج وقورينائية، والمنطقة التي تلتقي فيها المجموعتان تكون نقطة ترسيم الحدود.

ركض الأخوان فيليني مسافة أكثر من العدائَيْن اليونانيين، فَاتُّهِما بالغشّ وتعرضا للتحدّي بأنْ يُدفنا أحياءً لكيْ يتم تثبيت الحدود، ووافق القرطاجيان.

ورأت إيطاليا الفاشية أن ذلك الأمر يمثل نموذجا عظيمًا للإخلاص للوطن، وهو ما جعلها تُخَلِّد هذين الرَّجلين على طرفي القوس في شكل يَنِمُّ على أنهما مدفونان أحياء.

استجمع بالبو مهاراته في تنظيم فعاليات للدعاية الفاشستية، ومشروعه الهندسي الهائل الّذي استكمله ليصير شريانًا يربط ليبيا بتونس ومصر يعكس «فخر ومجد إمبراطورية إيطاليا»، وما لم يذكره «بالبو» هو أنَّ إنجاز هذا المشروع الهائل الضَّخامة للبنية التحتية تمَّ في معظمه على أكتاف وبسواعد العمال اللّيبيين، كما يُدَوِّن الباحث ماكلارين.

وبغرض إدماج ليبيا كمستعمرة حديثة في إيطاليا الحضرية كان مشروع توطين عشرين ألف أسرة – أيام بالبو – على أنَّ الهدف الأبعد هو توطين خمسمئة ألف مستوطن بحلول العام **1950**.

هجرة جماعية تنطلق من «جنوة» بتاريخ **27** أكتوبر **1938**م، بخمس عشرة سفينة، وتستقر في قُرى زراعية صُمِّمت خصيصًا في طرابلس (ستّ قُرًى) وبرقة (أربع قُرًى) وإحداها قرية «بيانكي» الشهيرة بطرابلس، وهي من تصميم المعماري «أمبير تودي سيني»، وتَظْهَرُ في منظر جوي بالإضافة إلى منظر آخر لمستوطنين في الطريق إلى القرية (أكتوبر **1938**)، وفي عهده شُيِّدَ فندق «المهاري» الذي بني العام **1935**.

وثيقة: «طرازه الرزين، وحسن صقله يغلب على أناقته، وهو متوّج في الواجهة بقبة صغيرة منسجمة مع البهو، فسيح وحسن الإضاءة، وبأفنيته الخمسة الأنيقة الرّائعة، وارتفاعه البسيط، وبياض حيطانه، يتجلّى وضّاءً متألقًا مقابل البحر وهو ما يمثِّل انصهار عمارة طرابلس المحلية في جمالية حديثة تستجيب لمتطلبات مستوى حضري من الراحة المعهودة في السِّياحة الاستعمارية.»

وتتأسَّس الجمعية الليبية للسياحة والفنادق «إيتال **Etal**» سنة **1935**، وبها بلغت المنظومة السيّاحية أوجّها، برعاية برنامج بالبو التحديثي، حيث أُسِّسَتْ شبكة من الفنادق: عين الرّومية بيفرن – فندق نالوت – فندق عين الفرس بغدامس – فندق لبدة.

(فندق برنيتشي ببنغازي شُرِع في تنفيذه سنة 1928م، تصميم مارسيللو بياشنتني، ولويجى بيكيانتو)

وبمناسبة افتتاح موسوليني الطريق الساحلي تُصدر البطاقة البريدية وهي تُصَوِّر «الصواري» **savary**، وهم الخيالة الليبيّون في الجيش الإيطالي، وكان ذلك في الاحتفال العسكري الذي أُقيم في منطقة عين زارة بطرابلس، وهو حدث يرمز إلى توحيد المستعمرة في مشهد سياحي حديث.

ويشهد موسوليني في زيارته الثّانية لطرابلس والتي كانت لتسعة أيام من شهر مارس، من اليوم الثاني عشر وإلى اليوم الحادي والعشرين من سنة 1937م- مسرحية «سوفوكليس» أوديب مَلِكًا، والتي عُرضت بالمدرج الرّوماني المُرَمَّم حديثًا في مدينة صبراتة.

إنَّ خدمات السينما والمسرح تأخذ مكانًا مهما في برامج المنظومة السياحية، فتشهد طرابلس سينما «ارينا جاردينو» في الهواء الطلق التي عرضت أفلامًا متنوعة واستغل فضاؤها في الرياضة (الرماية والملاكمة) كما برز مسرح «ميراماري» مقابل كورنيش البحر.

ويُصَمَّمُ «مسرح الودان» خلال العامين 1938و1939، والذي قَدَّمَ أربع حفلات أوركسترا، وثماني شركات دراما مختلفة، ويُوَصَفَ بأنه «فضاء يشعر المرء في طرابلس وكأنه في ميلانو.»، وبطاقات بريدية تحمل صورًا للرقص الشرقي التقليدي في الملهى بسوق المشير (1935) مع عروض موسيقية وراقصة في الفنادق والمسارح.

الإنجليز والفرنسيّون:

بحلول شهر سبتمبر 1939 تندلع الحرب العالمية الثانية، وينقضُّ هتلر على بولندا والدّانمارك والنّرويج وبلجيكا، وتُعلن إيطاليا الفاشية في 10 يونيو 1940 الحرب على فرنسا وإنجلترا، مساندةً «الرايخ الثّالث»، وتسقط باريس في أيدي قوات المحور.

في اجتماع للزّعماء اللِّيبيين في المَهْجر يُعْلَن عن تأسيس جيش ليبي باسم «القوة العربية اللِّيبية» وعند الناس باسم «جيش التّحرير السُّنوسي» للقتال إلى جانب القوات البريطانية ضد الإيطاليين، وكان ذلك الحدث في التاسع من شهر أغسطس 1940، وعلى امتداد ثلاث سنوات (1940 – 1943) شاركت وحدات منه في الحملات

العسكرية (هكذا وَرَدَ) واقترب الجيش الليبي من الأربعة آلاف مقاتل، وتشكّل في أربع كتائب.

بقيادة مونتجمري يدخل الجيش البريطاني برقة (1942/11/11)، ويصل إلى مصراتة (1942/11/18)، وتسقط طرابلس بين يديه (1943/1/23) وفي الوقت نفسه يكون الجيش الفرنسي بقيادة «ليكرك» في فزّان، وهكذا أصبحت طرابلس وبرقة تحت الانتداب البريطاني، وسيطرت فرنسا على المنطقة الجنوبية، ووصلت قواتها إلى غدامس ودرج وسيناون وألحقت بالمنطقة العسكرية الجنوبية لتونس، أمّا غات فكان نصيبها أنْ تلحق بالمنطقة الجنوبية للجزائر.

(مونتجمري (1887 – 1976م.) قاد قوات الحلفاء إلى الانتصار على قوات المحور، تغلب في معركة العلمين الشهيرة 1942، على ثعلب الصحراء الألماني رومل.)

ومع بروز دور الأمم المتحدة في تحقيق الاستقلال للشّعوب المستعمرة اتجهت أنظار اللّيبيين إلى العمل السياسي، وعرفت البلاد الاحزاب السياسية التي كان لها حضور قوي في تأجيج الساحة الليبية بالدعوة إلى الاستقلال.

وفي 1949/3/10 يخرج مشروع «بيفن سيفورزا» للوجود، ويقضي بفرض الوصاية الإيطالية على طرابلس، والبريطانية على برقة، والفرنسية على فزّان، على أنْ تمنح البلاد الاستقلال بعد عشر سنوات من تاريخ الموافقة عليه.

وبموافقة اللجنة المختصة في الأمم المتحدة 1949/5/13 يُحَالُ المشروع إلى الجمعية العامة للتصويت، ويُحْدِثُ ضجّة كبرى، وتَعُمّ ليبيا مظاهرات ضخمة، فإضرابًا عامًّا، ثم عصيانًا مدنيًّا، ويبوء المشروع بالفشل.

الاستقلال:

وتُصدِرُ الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم 289، في 1949/11/21 الذي يقضي بمنح ليبيا استقلالها في موعد لا يتجاوز الأول من شهر يناير 1952، وصاغت الجمعية الوطنية الليبية المشّكلة من 60 عضوًا الدستور وأعلن استقلال ليبيا (24/ 12/ 1951م) وأُخذ بنظام الاتحادي بأقاليم ثلاثة (الفدرالية)، باسم «المملكة الليبية المتحدة»، وفي أبريل 1963، عُدِّل اسم الدولة إلى «المملكة الليبية»، ونَصَّ الدُّستور

على أنّ ليبيا دولة ديمقراطية مستقلة ذات سيادة، وفي يوم 1951/12/24 احتفل الليبيّون بالاستقلال.

وبتشكيل جناح عسكري عُرِف بالضّباط الوحدويين الأحرار تمكّن بالإطاحة بالملكية في 1969/9/1م، وإعلان الجمهورية العربية الليبية، ثم النظام الجماهيري في 1977/3/2م، ومع 2011/2/17 كانت بداية إزاحة النِّظام، وتُعْلَن دولة ليبيا في 2011/10/23م، وتبدأ المرحلة الانتقالية من ذلك اليوم وإلى تاريخ كتابة هذه الصفحات.

طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين

وثيقة: «من حظ هذه المدينة أنْ توفرت عنها في مختلف الفترات تقارير تضمنها أقوال الرّحالة العرب والمؤرخين والجغرافيين وانطباعات الأسرى والرّحالة الأجانب، وجميعها تشكّل صوراً متعاقبة متلاحقة للأزمان التي مرّ بها تطوّر المدينة» (خليفة محمد التليسي.)

«أطرابلس مدينة بيضاء من الصخر الأبيض، على ساحل البحر، خصبة حصينة، ذات ربض، صالحة الأسواق، وكان لها في ربضها أسواق كثيرة، فنقل السّلطان بعضها إلي داخل السور، وهي ناحية واسعة الكور، كثيرة الضياع والبادية، وبها من الفواكه الطَّيِّبة اللذيذة الجيدة، القليلة الشّبه بالمغرب وغيره، كالخوخ الفَرْسَك والكُمَّثْرى اللّذين لا شبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع، وطيقان الأكسية الفاخرة، الزُّرق والكحل النَّفُوسية، السّود والبيض الثمينة، إلى مراكب تَحُطُّ ليلًا ونهارًا، وَتَرِدُ بالتجارة على مَرِّ الأوقات والساعات صباحًا ومساء، ومن بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم.»

وخصّ أهل أطرابلس بكلمات جميلة فقال: «وأهلها قوم مرموق مِنْ بين مَنْ جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال، فيتميزون بالتَّجمّل في اللِّباس، وحسن الصورة، والقصد في المعاش، إلى مروءات ظاهرة، وعشرة حسنة، ورحمة مستفاضة، وعقول مستوية، وصحبة وفيّة، ومعاملة محمودة، ومذهب في طاعة السّلطان سديدة، ورباطات كثيرة، ومحبّة للغريب أثيرة ذائعة.»

ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية، لا يدانيهم أهل بلد، إذا وردت المراكب

ميناءهم عرضت لهم دائمًا الرّيح البحرية، فيشتدّ الموج لانكشافه، ويصعب الإرساء، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين، فيُقَيّدُ المركب، ويُرْسَى به في أقرب وقت، بغير كُلفة لأحد، ولا غرامة حبَّة، ولا جزاء بمثقال.»

(ابن حوقل مؤرخ (943-988م)، له: وصف الأرض.)

وخصّ البكري سُكّان طرابلس بوصف متميّز، فقال: «أهل طرابلس من أحسن النّاس معاشرة، وأجودهم معاملة، وأبرَّهم بغريب.» ووصف المدينة فَدَوَّن: «وعلى مدينة طرابلس سور ضخم، جليل البنيان، وهي على شاطئ البحر، ومبنى جامعها أحسن مبنًى، ولها أسواق حافلة جامعة، وحمّامات كثيرة فاضلة... وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون، أعمرها وأشهرها مسجد الشَّعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرّياح، وهي كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين جليلة إلى شرقيّها، ويتّصل بالمدينة سبخة كبيرة يُرْفع منها الملح الكثير.»

(البكري مؤرخ (1030-1094م) جغرافي وموسوعي وأديب أندلسي، « أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) اسمه على فوهة من فوهات القمر لإسهاماته المتميزة في حقل الجغرافيا.)

وفي إشارة لأثر قبائل بني هلال وبني سُلَيْم وما أحدثوه من خراب في أوّل أمرهم (1051م) أورد الإدريسي:

«وكانت قبل هذا مفضلة العمارات من جميع جهاتها، كثيرة شجر التِين والزّيتون، وبها فواكه جمَّة ونخل، إلاَّ أَنَّ العرب أضرَّتْ بها وبما حولها، وأجلتْ أهلها، وأخلت بواديها، وغَيَّرت أحوالها، وأبادتْ أشجارها، وغوّرتْ مياهها، وأرض طرابلس عديمة المثال في إصابة الزّرع، ولا يُدْرَى أَنَّ على معمور الأرض مثلها في ذلك، وهذا مشهور معلوم.»

(الإدريسي مؤرخ 1099-1160م، عالم رسم خرائط، جغرافي، له: «نزهة المشتاق».)

وأشار عبد الواحد المراكشي إلى أهمية طرابلس الدّفاعية كثغر من الثغور الإسلامية على السّاحل الافريقي، فكتب: «وكانت العِمَارة متّصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان، تمشي فيها القوافل ليلاً نهاراً، وكان بين الإسكندرية وطرابلس الغرب حصون متقاربة جدا، فإن ظهر على البحر عدوّ نوَّر كلّ حصن للحصن الّذي يليه، واتَّصل التّنوير، فينتهي خبر العدو إلى الاسكندرية أَوْ من الإسكندرية إلى طرابلس في ثلاث

ساعات أو أربع ساعات من الّليل، فيأخذ النّاس أهبتهم ويحذرون عدوّهم، ولم يزل هذا معروفًا في أمر البلاد إلى أنْ خَرَّبَت الأعراب تلك الحصون، ونفت عنها أهلها إبَّانَ خَلَّى «بنو عبيد» بينهم وبين الطريق إلى المغرب.»

(عبد الواحد المراكشي (1185–1207م) مؤرخ، صاحب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، وُلِدَ بمراكش وتَعلَّم بها، وطاف ببلدان الشَّمال الإفريقي والمشرق العربي، وتوفي ببغداد.)

وذكر أطرابلس ياقوت الحموى في معجمه فقال: «مدينة في آخر أرض برقة، وأوّل أرض إفريقية... على مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان، وهي على شاطئ البحر، ومبنى جامعها أحسن مبنىً، وبها أسواق حافلة جامعة... وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون، أعمرها وأشهرها مسجد الشّعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرّياح، ولها بساتين جليلة في شرقيّها.»

(ياقوت الحموي: ت 626هـ/ 1228م، له: معجم البلدان.)

وشملت نقمة العبدري أهل طرابلس والمدينة بأسرها، فلم يستوقفه شيء منها إلاَّ جامعها ومدرستها والأثر الرُّوماني الذي وصفه وممَّا سَجَّلَه: « ثُمَّ وصلنا إلى مدينة طرابلس، وهي للجهل مأتم، وما للعلم بها من غرس، ولم أَرَ بها ما يروق العيون، وسَمَا أن يقوم بالدُّون سوى جامعها ومدرستها، فإنَّ لهما من حسن الصورة نصيبًا، وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة، لولا أنَّ محاسنها مقصورة على الصورة.

(إشارته إلى المدرسة المستنصرية الحفصية، وقد تقدّم وصفه لنصب ماركوس أوريلوس)

ووصف الناقد خليفة التليسي في كتابه (حكاية مدينة) العبدري بأنّه رحّالة عظيم، ذو شخصية قويّة، مُستقل في رأيه، وفي حكمه على الأشياء، وهو ما أعطى لرحلته مذاقا شخصيًّا، وأحكامه قاسية على طرابلس، ولكنها تتفق مع الواقع التاريخي للحياة العلمية في تلك الفترة.

(العبدرى (1250–1330م) رحّالة، ومؤرخ، وقاضٍ وفقيه، له: «الرحلة المغربية».)

ووقف ابن رُشَيْد السِّبْتي معجبًا بمدرسة المدينة، التي شيدّها ابن أبي الدنيا في العهد الحفصي الفقيه القاضي الطرابلسي (655–658هـ/ 1257–1259م)، فقال: «واجتزتُ تلك الليلة الّتي أقمنا بها بعد المغرب بشارعها الأكبر، ولم أكن عرفت المدينة،

فنفحني نسيم الصباح جادت بِرَيّا القرنفل، فالتفتُّ نحو تضوعه مستنشقا ذلك النسيم، وعهدي بتنسّم العطر عهد قديم، فألفيتُ عن يسار المارّ بابًا شارعًا، ولِمَا حوله من الأبواب فارغا، فتوقفت اتنشّقُ ذلك العُرف إلى أنْ تعرفتُ أنّها مدرسة، فأقدمتُ على الدخول تحكيمًا في الإذن للعرف، فوافيت وسطها روضة مُخْضَلّة من خِيرِيّ أحمر، قد استوى على سوقه، وناصَى بعضه بعضا بسوقه، وقد عَلَّل بالسقي شجره فأينع، وتفتح زهره فاستكمل واستجمع، فأقمت بها ساعة أَتَعَلَّلُ بذلك النسيم، وكأنِّي حللت بجنة النّعيم، وكلما انسحب الظلام ذلك النَّمَّام، وُلِدَ ذلك الابتسام.»

(ابن رشيد السِّبتي مؤرّخ رحّالة، فقيه وقاضٍ مُحَدِّث ونحوي، قام برحلته في سنة (685هـ- 1280م) وقد قَدِمَ إلى طرابلس عن طريق البحر بعد زيارته للإسكندرية، وروضة مُخْضَلَة: نَدِيّة، والخِيرِيّ: نبات له زهر، وغُلِبَ على أصفره، يُستخرج دهنه، ويدخل في الأدوية، ومكان المدرسة المستنصرية غير محدّد بدقة، وإنْ كان من المحتمل أن تكون في المكان الحالي لمسجد درغوت، كما يذهب الباحث التاريخي الطرابلسي سعيد علي حامد، أوْ تكون في المكان الذي شَيَّد فيه عثمان باشا الساقزلي مدرسته أوْ غير ذلك مِمّا يكتشفه الباحثون.)

وتُعَدُّ رحلة التِّجاني أوفى مرجع وأشمله، وهي من أهم المصادر في التاريخ لليبيا وأحوالها العامة في ذلك الزّمان، وُصفت رحلته بأنّها هَيِّنة ليّنة، وكانت إقامته طويلة في طرابلس، فاعتمد عليها الدّارسون والمؤرخون، ونالت أهميّةً لدى العرب والأجانب المحدثين، ومِمّا ورد فيها: «ولمّا توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يَغْشِي الأبصار، فعرفتُ صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء... ورأيت شوارعها فلم أَرَ أكثر منها نظافة ولا أحسن اتِّساعًا واستقامة، ذلك أنَّ أكثرها يخترق المدينة طولًا وعرضًا من أولها إلى آخرها، على هيئة شِطْرَنْجِيّة، فالماشي يمشي بها مشي الرُّخ خلالها.»

(الرُّخ: طائر خرافي، بالغ القدامي في وصفه، ويطلق على قطعة من قطع الشِّطْرَنْج)

«وبداخل المدينة مدارس كثيرة، وأحسنها المدرسة المنتصرية (المستنصريّة) التي كان بناؤها على يد الفقيه «ابن أبي الدُّنيا» فيما بين سنة خمس وخمسين (بعد الستمئة هجرية) إلى سنة ثمان وخمسين (بعد الستمئة هجرية)، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعًا وأظرفها صنعًا.»

«معتدلة الهواء والجوّ والنّسيم، ربيعها وخريفها ومشتاها وصيفها على قدر من الاعتدال ووسط من الحال، والسّور محيط بها، حصينة معاقلها، منيعة قلاعها، حريزة استحكاماتها ولم تَخْلُ من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، محدقة ببساتين ذات بهجة واجنة ناضرة، كثيرة الفواكه والنَّخل والزّيتون، وفيها شجر اللَّيمون السُّكرى البديع، والرُّمان التاجوري الياقوتي الذي لا نظير له، والبطيخ الأخضر كبير الحجم زنة الواحد قنطار، والزعفران الغرياني.»

(أماثل القوم: خيارهم، والوصف السابق لولاية طرابلس جميعها، والتِجاني رحّاله ومؤرخ، زار طرابلس 706-708هـ/ 1306-1308م، وبقي بها قرابة ثمانية عشر شهرًا.)

ومَرّ الرّحالة الكبير ابن بطوطة بطرابلس ضمن رحلته الكبرى فلم يصفها، ويظهر أنّه كان مشغولا بزواجه من بنت لأحد أمراء تونس، عقد عليها بصفاقس، وبنى عليها في طرابلس الّتي دخلها في اليوم الرابع من عيد الأضحى، ويبدو أنَّ أيام العسل قد أنسته المدينة التي أقام بها مُدّة.

(ابن بطوطة رحّاله معروف، زار طرابلس 725هـ/ 1325م.)

وزار طرابلس الرّحالة المغربي الكبير أبو الحسن الوزّان المعروف بـ» ليون الإفريقي» إبّان الاحتلال الإسباني، فقال: « تقع في سهل منبسط، تنتشر فيه أشجار النّخيل، وبيوتها جميلة، كما أنَّ ساحاتها منظمة، وتتميّز بصناعات مختلفة تقوم على جوانبها، أغلبها وأكثرها انتشاراً حياكة النّسيج.» وأشار إلى حركة التبادل التجاري بينها وبين البندقية.

(أبو الحسن الوزّان كاتب دبلوماسي، زار طرابلس 1518م.)

ومَرَّ بطرابلس «ابن عبد السلام الناصري» في العهد القرمانلي، ومما دونه: «وقد مَرَّ بهذه البلدة بعض الأدباء من أرباب الدولة العلوية الذي رافق زوجة المولى إسماعيل سلطان المغرب، فاقتفى في وصف طرابلس ما سجله العبدري ومما قاله الإسحاقي: «فلو رآها لهذا العهد (العبدري) لزاد لومه لأهلها وإيلامه» وجعل هذا القول ابن عبدالسلام النّاصري يَرُدّ على الإسحاقي ويصفه بأنه: إمَّا جاهلٌ وإمَّا مُفْتَرٍ إلاّ في إنكار عدم التدريس وهو فيه بَرىء.

وذَكَر ابن عبد السلام أنَّ غاية مِمّا يجاب به «على أنَّ الرجل قد يَرِدُ البلد على جناح طائر – على ما أعلم من حال الرّكبان– فلا يشتفي من خبرها» ومع هذا فقد انتبه ابن عبدالسلام إلى تقصير الأئمة والعلماء في التّدريس، فقال: «غيرَ أنَّ أئمتها مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يُقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النّفيس، وكأنَّها عليهم تعذّرت، وعادة عندهم قد تقرّرت، سوى فرد من النّاس بدا في جنح ليلها كالنِّبراس، والحاصل مدح البلد وأهلها وحسن أخلاقهم وجودهم سارت به الرّكبان، وفضلهم من شمس الضّحى أظهر وأوضح.

وبالجملة فهذه البلدة أنيقة، في بحار الجمال والحسن غريقة، أُعْطِيَ ساكنها الشجاعة والنهاية في الحزم والبراعة، وأُشربتْ قلوب من بها مهابة، وما أرادهم أحدٌ بسوء إلاَّ والله تعالى كالملح أذابه، أمطر الله عليها سحائب الرَّحمة.»

وأبهجت ابن عبد السلام سواني المنشية بخيراتها فكتب: «وزاد البلد حسنا ما بساحتها من المنشيّة، ذات النخيل البهيّة، والثمار الرائعة، والفواكه الفائقة، يَكِلُّ عنها نطاق البيان، ولا يضبطها لسان ولا بنان، لا سِيَّما « اللاّقوج « الذي لا يوجد له مُناظِر، والليمون الّذي يتَّخذ من أنواع الأزاهر لتنظيف الثياب والأبدان.»

*(ابن عبد السلام النّاصري شاعر فقيه صوفي، أمضى سبعة أيام بطرابلس (**1649**م)، في رحلته الحجارية الكبرى.)*

ووصف العياشي طرابلس فقال: «وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدوّ شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعايبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسقة الأدوار، واسعة طرقها، سَهْلٌ طروقها، إلى ما جُمِعَ لأهلها من زكاء الأوصاف، وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرّة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوًا إلاَّ سلامًا ولو لِمَنْ استحقّ ملاما، سِيَّما مع الحُجَّاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنَّهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدًا في إفضالهم عليهم وإنعامهم، ومن هذه المدينة يشتري الحُجَّاج ما يحتاجون من الإبل والقِرَب، ويتخذون زادًا نحو من ثلاثة أشهر إلى مصر إنْ كان الوقت شتاءً، وإنْ كان صيفا فنحو شهرين.

وإبل طرابلس غاية في الجودة، قَلَّ أنْ يوجد لها نظير، شبيهة بإبل بلدنا، بل تزيد

عليها بكثرة الخِدْمة، فإنّهم يستعملونها في سائر الأشياء حتّى الحراثة والدّراس، ويَسْنُون عليها، ويديرون الرَّحى، فتمرنت بذلك على المشاقّ العظيمة، مع طيب هواء البلدة، ونقاء مرعاها، فيقلّ فيها الغِشُّ، وتندر أمراضها.

(سَنا على الدّابة: سَقَى عليها.)

«وإذا اجتمع الأركاب فيها كَثُرَ الزّحام على الأراحي، فيلاقي الحُجّاج من ذلك مشقة، ولولا ما جُبِلَ عليه أهلها من السماحة وحسن الخُلق، لما تَهيَّأ للحجّاج اتّخاذ الزّاد منها، لصغرها وكثرة الواردين، سِيَّما مَنْ لم تطل إقامته كركبنا في هذه السّنة.»

(الرّحا (الرَحَى): الأداة التي يُطْحَن بها، وهي حجران مستديران يُوضع احدهما على الآخر ويُدار الأعلى على قطب، والجمع أرحاء ورُحيّ وأرحية.)

وتحدث العياشي عمّن لقيه من علماء طرابلس ومنهم: اليربوعي الفقيه، وابن مساهل المفتي الذي حُمدت سيرتُه، والمكّي صاحب خزانة كُتب ليس مثلها لأحد من أهل بلده، كما وُصِفَتْ.

*(العياشي عاش خلال الفترة: **1627–1679**م، وقد مَرَّ بطرابلس في رحلته إلى الحجّ (**1649**م)، وصادف مروره وجود عثمان باشا الساقزلي على رأس الولاية، له: «ماء الموائد» وهو عنوان رحلته، وعَنَى به التعبير عن رحلة العطش في الصحروات القاحلة، وفي اللغة: عَنَى لقول كذا: قصده، والمضارع: يَعْنِي، أمَّا «عُنِيَ بالأمر» فمعناه: اهتمَّ وشُغِلَ به، فهو مَعْنِيٌّ به.)*

ووصف الرّحالة الدّرعي عند وصوله إلى طرابلس في حجته الأولى الغارة العنيفة من الأسطول الإفرنجي فكتب: «وفي رحلتنا إلى الحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف، (1096هـ/ 1685م) حاصرها الكفار دمرهم الله تدميرا، وذلك أنا يوم نزولنا بمنزل الركب بسور البحر، إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسها إلى أنّ كملت اثنتين وعشرين سفينة، فأقاموا عليها دمرهم الله بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم، وعناء شديد ... فلمّا كان بعد العشاء ليلة السبت ضرب الكفرة دمرهم الله بمدافعهم فرأينا من ذلك ما لم نره قطُّ ولا سمعنا به.

ترى البارود حين يخرج من بخش المدافع فإذا بكورة محمرة تحكى الشهب خرجت منه وصعدت، ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصم منه الآذان، فتتصدع في الموضع الذي وقعت فيه وتتفرق، لا تقع على بناء إلا وهدمته ولا على بسيط مستوٍ إلا وحفرته ولا عليّة أو أسطوانة إلّا وهدتها ولا على شجرة إلا وأحرقتها أو قلعتها، فتمكث في أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول.»

«وفي بعض الليالي وهي من الليالي الهائلة أخذوا في الضرب الليل كله إلى الصباح، بل إلى الضحى لا يفترون عنه ساعة، وضربوا فيما أخبرنا به بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمئة كورة ... وعند الفيْء عادوا للرمي إلى الضحى ولما قرب الزوال زحفوا للمرسى فعاقهم قرب البرجين اللذين على البحر من المرابطين بها البائعين أنفسهم من الله، وهما لا يخلوان من حارس في السلم والحرب، وردوهم على أعقابهم وولوا أدبارهم وعانقوا أدبارهم والحمد لله رب العالمين ... ثم جرى بينهما صلح على أن يُرجع لهم المسلمون جميع ما عندهم من أسراهم، وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك ... ثم أجلى الله الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد إتمام المهادنة وإمضاء شروطهم، وفرح المسلمون بانتقالهم عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح.»

(الرّحالة المغربي أبوالعباس سيدى أحمد بن محمد بن ناصر الدّرعي.)

هذا ما نقله الباحث الطرابلسي خليفة التليسي في كتابه «حكاية مدينة»، وينقل شارل فيرو الوصف نفسه مع اختلافات يسيرة حيث يذهب إلى أنَّ الأسطول الأوربي كان فرنسيًّا وهو ما يراه الباحث سعيد حامد، ولكن معرّب كتاب الحوليات يذهب إلى أن الأسطول كان إسبانيًا كما جاء في هامشه.

ويقدّم الرّحالة الحشائشي لمحة عن مدينة طرابلس فيقول عن أهلها: «طباعهم تميل إلى البداوة أكثر من الحضارة وهم على كمال بشرى في أنفسهم وأغلبهم يميلون إلى التجارة خصوصا في هاته السنين الأخيرة فلهم متجر عظيم مع أهل السودان... ولا يميلون إلى الغرباء في أول الأمر وقد ذكرت هذا في رحلتي لكن تحققت بعد ذلك أنهم إذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم وصدق الله تحقيقي هذا بيتين من الشعر وجدتهما ببعض التقارير للفقيه أبي الحسن:

لأهل طرابلس عادة من البر تُنسِي الغريب الحميما
حللتُ بها مُكْرَها ثم إذا أقمتُ بها أبدلوا الهاء ميما

وفي رمضان سنة (1313هـ/ 1895م) دخلتُ جامع السوق داخل البلد وهو جامع بهيج عليه رونق عظيم فوجدت كثيراً من أعيان الترك من ضباط وغيرهم كل منهم جالس على ركبتيه بخشوع وتؤدة ووقار يسمعون كلام رب العالمين.»

وفي أحد أركان الجامع من الجهة القبلية وجدت العالم الفاضل النحرير المنعم الشيخ

محمد بن مصطفى باشا مفتي السادة الحنفية يقرئ الحديث الشريف (متن الشفا للقاضي عياض) وعليه حلقة عظيمة من أعيان البلاد وغيرهم وهو على اسطبل من اللوح عال على الأرض بمقدار يسير تراه أعلى من جميع من دار به من السامعين. وهاته عادة جلوس المدرسين عندهم إلّا أنّ الكراسة لا تنقطع من يده، وهو أوّل مشهور بالعلم هناك.

ويأتيها من أوربا غالب السلع التي تأتي إلى بلد تونس ويخرج منها القمح والشعير والبقر والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبرتقال والليمون والفلفل الأحمر الشايح والحنا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك.

وغالب تجارها من أهل البلد وبعض من المالطيين واليهود، ولا يوجد فيها بانكه مالية في وقت حلولي بها ولا طرق من الحديد ولا معامل اوربية نارية ولا قهاوي منظمة على الشكل الأوربي، وهي ما زالت بعيدة عن التنظيمات الأوربية والتحسينات.

وفيها من العساكر (في ذلك التاريخ) ما ينيف على الثمانية آلاف جندي تامة العُدد والعَدد، وقيل لي أن جميع مراسيها كلها محصنة بالألغام البحرية بحيث لا تجوز سفينة كبيرة إلا بدليل. وما أبهج نظام تلك العساكر العثمانية خصوصا عندما تكون الموسيقى السلطانية تصدح بنغماتها الشجية في أدواح المنشية والضحى ينشر نسيمه العليل على أفنان الشعاب ذوات الظل الظليل وثغر طرابلس في ابتسام والربيع ضارب أطنابه بأريافها وعلى الدنيا السلام.

*(الصّحيح في قواعد الإملاء كتابة «موسيقا» بألف ممدودة مثل ألمانيا – فرنسا – روسيا – إفريقيا وغيرها، حيث إنَّ كلمة **music** أعجمية بأكثر من ثلاثة أحرف، أمّا*

«موسيقي» بالياء دلالة على الفنان.)

(الحشائشي (محمد بن عثمان)، رحّالة زار طرابلس 1895 له: «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب»، أَمَّا كتابه الذي يُصَوِّر رحلته الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق فقد جاء فيه صفحات سلبية عن أهل طرابلس، وقد عَلَّق عليها الأستاذ محمد المرزوقي التونسي بقوله «لم يُلاحظ أيَّ رحالة من الرَّحالين العددين، فكيف تَسَنَّى للحشائشي أنْ يُلاحظ وحده هذا!!!!)

وثيقة: شَكَّل الرَّحالة المغاربة برحلاتهم الحجازية مصدرًا مهما من مصادر التاريخ للبلدان التي زاروها ومَرّوا بها، ولقد كان المغاربة بحقّ سادة هذا الفنّ في الأدب العربي، ولعل اسمهم لا يبرز ضمن ألوانه كما يبرز من خلال «أدب الرِّحلات.» (خليفة التليسي)

وكتب « الفيسي ميلانوفيتش» تقريرًا عن سفن الطرابلسيين جاء فيه:

«ومنازلهم– هي في معظمها– ذات شكل مربع أو مستطيل، تستمد النور من فناء داخلي تحيط به بواكي وممّرات مسقوفة تنفتح عليها الحجرات المحيطة بالفناء، أمَّا من الخارج فهم لا يستغلون الشّرفات الضّيقة الصغيرة المحجبة بمشربيات، وسقوفهم مسطَّحة ذات استواء مغطاة بالطين الّذي يمنع عنها تسرب المياه التي يستفيدون منها هي الأخرى باختزانها.

وبالمدينة كنيستان، واحدة لاتينية (كاثوليكية)، والأخرى إغريقية (أرثوذكسية)، ورهبانها يخصّون بكلّ احترام من جانب الأتراك.

(لا تزال الكنيستان قائمتين بالمدينة القديمة بساحة النصارى (السيدة مريم.)

والشّعب إنساني المسلك، وليس له من البربرية سوى الاسم، وهو يُحْسِن استقبال الأجنبي الذي يتمتع بكل حرية، ولا تلحقه إهانة أو احتقار، وإذا حدث أنْ تعرض لذلك، ففي وسعه أنْ يلجأ إلى القضاء حيث يلقى العدل والإنصاف.»

(يقصدُ بالبربرية: التوّحش، وهكذا نفى عنه هذه التهمة، وقد ترجم تقرير الفيسي ميلانوفيتش (1765م) الأستاذ محمد مصطفي بازامة في: «الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر، وقد نقلناه بتصرّف».)

ووثيقة على شكل رسالة كتبها «أغسطينو بلاتو» الذي شغل منصب قنصل

البندقية بطرابلس في العهد القرمانلي، وهي بمحفوظات مدينة فينيسيا، منشورة في كتاب: «طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر» وجاء فيها:

« تقع طرابلس عاصمة الإيالة في الساحل الإفريقي، عند أقصى طرف من ساحل فسيح، ينتهي إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط، الذي يلتفّ بها على هيئة خليج فيشكّل ميناءً رحبًا.

وتبدو المدينة من بعيد بمنظر ساحر جذاب، وتشكّل بساتينها أجمل مشهد عام، ولكنك حين تقترب منها تبدو لك ما يشبه المدينة المنهارة، ولا ترى في شوارعها سوى الرّكام والأنقاض بسبب تدمير الأسوار وتداعي البيوت، وبيوتها مبنيّة على هيئة أديرة، وتفتح على صحن فسيح تستقبل منه النّور، وقليلاً ما تتوفر بها نوافذ خارجية، وبها كمية وافرة من التمور وأنواع الفواكه والحمضيات اللّذيذة الّتي تنتجها البساتين، والتي تشكّل طوال العام أو أغلبه أجمل المناظر وألطفها، وليست أقلّ من ذلك وفرة كمية حصاد القمح في سنوات الخصب– بالإضافة إلى سَدّها لحاجات السّكان– تُصدر منه شحنات هائلة عن طريق البحر إلى موانئ إسبانيا.

(أغسطينو بلاتو: *قنصل البندقية في طرابلس 1777م*.)

ومن الوثائق المهمة انطباعات ورؤى «الآنسة توللي» في كتاب: «عشر سنوات في بلاط طرابلس» ورسائلها تعتمد على المشاهدة والمعاينة، والكتاب في نظر الباحثين من أهم المصادر عن العهد القرمانلي، وعن الفترة الأخيرة من «عهد علي باشا القرمانلي»، الحاكم الثالث من أفراد العائلة القرمانلية، والذي ظَلَّ متربعًا على كرسي الباشوية إحدى وأربعين سنة شمسية، من 1754م إلى 1793م.

«قبل دخولنا خليج طرابلس، وحين كنّا على بضعة أميال من اليابسة بدت لنا الأرض جميلة المناظر، تزيّنها رقع متناثرة من الخضرة المحببة، ولم يَبْدُ هناك ما يشوه استواء الأرض المنبسطة الشّهباء اللون، بل البيضاء تقريبًا والّتي تتناثر فيها صفوف طويلة من الأشجار، هذا هو المنظر الّذي ترسمه أشجار النخيل الوافرة التي نُسِّقَتْ زراعتها في صفوف طويلة، وصِينت على أجمل صورة ونظام.

والحقّ أنَّ البياض النّاصع الذي عكسته المنازل المربعة المرشوقة بالكِلْس– علّه يصدُّ

حدّة أشعة الشمس عنها- كان مدهشًا جدًّا. . . ويغسل البحر أقدام المدينة من ثلاث جهات، أمَّا في الجهة الرّابعة فيوجد سهل رملي يطلقون عليه اسم «المِنْشِيَّة».

(الكِلْس: الجير، وهو المادة المتبقية بعد تسخين الحجر الجيري تسخينًا شديدًا، وبعد خروج بعض مكوناته.، والمنشية: اسم للدلالة على المنطقة الواقعة خارج أسوار مدينة طرابلس القديمة، ولها امتداد واسع وكانت عبارة عن مجموعات من السواني الغنيّة بالأشجار المثمرة والزهور العطرة، وتشمل قديمًا: شارع الزاوية – شارع السيدي – شارع بن عاشور – سيدي المصري – شارع الظِّل – جامع الصقع – رأس حسن، أمَّا ساحل المنشية فكان يَضُمّ: الساحل، والهنشير، وشط الهنشير، والتسمية «المنشية» دلالة على حداثة نشأة هذه المنطقة بدءًا من زمن ولاية درغوت باشا، أمّا اليوم (*2021*) فهي أكوام خرسانية وبيوت وعمارات ومتاجر!!!)

واسترعى نظر الآنسة توللى «بازار البُنّ» وهو سوق المشير، فتقول: «وبازر البُنّ هو المكان الّذي يقصده الأتراك ليتحدثوا عن الأخبار اليومية والشؤون العامة، ويرشفوا بعض فناجين القهوة.

وحين يكون المغاربة في هذه القهاوي يخدمهم عبيدهم الخاصُّون الذين يظلّون واقفين قريبًا من أسيادهم، أحدهم يُمسك بغليون السّيد، وآخر بفنجانه، وثالث بمنديله، فيما السَّيد يتكلّم، تراهم جالسين قد صالبوا أرجلهم، وبأيديهم فناجين القهوة المحضّرة، بحيث تجعل المشروب قويًّا، وكأنّه خلاصة القهوة (روح القهوة)، والقهوة التي تقَدّم إلى سيدات القلعة يكون فيها قدر من الكمون، وأكباش القرنفل، وجوزة الطِّيب.

لقد سرنا في إحدى ليالي العيد في ذلك البازار حتَّى ما بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً، فوجدناه يغصّ من كلّ ناحية منه بعلية القوم في أزهى حُللهم.

كان أرج العنبر، وفوح أزهار البرتقال، وشذا الياسمين نفَّاذًا إلى درجة مثيرة للضيق، وكان البازار بفضل العدد الضخم من المصابيح المشكوكة بين طرفيه مشرقًا، وكأنّه في وضح النّهار.»

(تقدّم القول إنَّ المقصود بالمغاربة هم الطّرابلسيوّن، لأنّهم جزء من المنطقة المغربيّة تاريخيًّا)

وتورد ملاحظاتها عن الحمامات فتدوِّن:

«والحمامات في طرابلس واسعة في العادة ومبنيِّة من الرّخام، وهي تَظَلُّ غاصّة بالسيدات، طوال ساعات النهار وحتّى غروب الشمس إذْ يذهبن هناك للتزين والتجميل، وهنّ يصطحبن جواريهنّ وخدمهنّ معهنّ، ذلك أنَّ الواحدة تحتاج إلى الكثير من الخدم بعد أنْ تستحم، فجارية تغسل شعرها بماء زهر البرتقال، وثانية تقوم بتجفيفه بِذَرور خاص حضرته من العطور القوية، ويتألف من العنبر المحروق والقرنفل والمسك وجوزة الطيب، وثالثة تُصفِّف شعرها على هيئة ضفائر صغيرة تبلغ خمسين ضفيرة، وهى عملية تستغرق وقتا طويلاً كأنها مغنية فعلًا... يزيد من إزعاجها الآم نتف الشعر النابت على نحوٍ غير سوي، ثُمَّ صَبْغ الرموش وترجيج الحواجب، والتكّحل بمسحوق أسود على مراود من الفضة أو الذَّهب.»

(الذَّرور: ما يُذَرُّ، وَتَرْجِيَة الحواجب: تسويتها في طول وتقوّس.)

ومن المعالم البارزة في العهد القرمانلي «قصر للاّ زنوبيا» الذي نَفَّذَ فيه أحمد باشا الأول القرمانلي مذبحة الانكشارية، وعند زيارة توللي له وجدته خراباً، وإنْ كانت بقاياه –كما أوردتْ– تدلّ على أنّه كان فخمًا في سالف الأيام، وقد تقدم الحديث عن ذلك في مبحث القرمانليين.

والحديث عن المنشية الجميلة ومنازلها الريفية يأخذ حيِّزًا في انطباعات توللي، تقول: « بَدَتْ لنا حدائق العرب الكثيرة في هذا المكان، فإذا هي بساتين من أشجار البرتقال، وكروم من نُصْب الزيتون، ومغارس النّخل... ومن شأن هذه جميعًا أنْ تخلع على المدينة منظرًا مغايرًا لما يجده المشاهد حين يقترب من عاصمة أوربيّة.»

ويضرب القحط والمجاعة طرابلس، ويأخذ الطاعون بأهلها 1785م، أيام علي باشا الأول القرمانلي، وفي ذلك تُسجِّل توللي:

الولاية في هذه الأيام تعاني حالة من القحط والمجاعة حتّى إنّه ليروع المرء أنْ يمشي راجلًا أو على حصانه بسبب المخلوقات الميتة الّتي كثيراً ما تقع هالكة في عَرْض الشارع.

«لقد هاجم الوباء المدينة منذ شهرين، فكم نفسًا تُرَى أُزْهِقَتْ خلال هذه المدّة

القصيرة ثلاثة آلاف مخلوق! نعم، ثلاثة آلاف وارتهم جبّانات طرابلس وخسرتهم البلاد إلى الأبد، إنّهم يبلغون حوالى ربع سكان المدينة.»

«وتتكشف طرابلس بعد الوباء عن منظر مخيف جدًّا، ففي بعض بيوتها لا تزال جثث الضحايا التي هلكت، ولم تجد من يدفنها، بل من يذرف عليها دمعة الرّحمة، فبقيت في أماكنها ودُفنت هناك، بينما يقع المرء في منازل أُخرى على أطفال ينتقلون هنا وهناك قد هَجروا أهلهم وهجرهم أهلوهم، وظَلُّوا من دون امرئ يرعاهم.»

(الآنسة توللِي إنجليزية استقرت بطرابلس من 1783 إلى 1793م، ربطتها صلة قرابة بالقنصل الإنجليزي ريتشارد توللي والراجح أنه أختـه ما أكسبها لقبه، كتبت مذكراتها في رسائلها إلى أقاربها في بريطانيا، وتولّى ريتشارد توللى السَّفير نشرها وعرّبها الأستاذ عمر الديراوي أبوحجلة، وقد لاحظ المُعَرِّب –كما تبيّنتُ أنا شخصيًّا– مفاهيم خاطئة عن الإسلام وليست منه وترجع إلى مفاهيم العوام، وهو الخلط نفسه عند مابل تود في «أسرار طرابلس» وعند شارل فيرو في «الحوليات»، ويحتاج ذلك إلى قراءة متأنية لانطباعات الرَّحالة جميعًا، ودراسة اتجاهاتهم الفكرية.)

وقام الرّحالة باديا لبليك المعروف باسم «علي بك العباسي» في نوفمبر عام 1805م، بزيارة طرابلس ضمن رحلته إلى بعض البلدان الإفريقية والأسيوية، ومما جاء في انطباعاته:

«إنّها مدينة أجمل من أيّة مدينة بمملكة المغرب، تقع على شاطئ البحر، طرقها مستقيمة وواسعة بدرجة كافية، وبيوتها منتظمة وحسنة، وأكثرها تقريبًا تتميّز ببياضها السّاطع الباهر، وأمَّا أبوابها فهي بصفة عامّة من النسق التّوسكاني.»

(توسكانا: إقليم بإيطاليا، عاصمته فلورنسا ذات المناظر الخلابة، والتراث الفني: معهد النهضة الإيطالية، وموطن دانتي ومايكل انجلو، وليوناردو دى فينتشي، وستّة مواقع توسكانية في قائمة التّراث العالمي.)

«والأغلبية العظمى من السّكان تفهم وتمتلك عدّة لغات أجنبية أوربية، والباشا نفسه يتكلّم الإيطالية، كما أنَّ المجتمع هنا أكثر انطلاقًا وحرية من المغرب.»

وأشار «باديا» إلى إمكان المعتنقين من الأسرى للإسلام أنْ يحتلُّوا مناصب عالية في الدولة، ولفتت نظرة المآذنُ المخروطية، وشاهد الحانات والمقاهي الكثيرة يديرها مسلمون،

وثمة ثلاثة سجون بالمدينة، اثنان للأهالي، والثالث خاص بالأتراك، وذكر أنَّ عدد اليهود حوالى ألفين، ويعاملون معاملة حسنة، ويحتكرون تقريبًا التجارة مع أوربا..»والميزان التجاري مع أوربا حسن، ويميل لصالح طرابلس، حيث إنَّ قيمة الصادرات تفوق بواقع الثلث على الواردات.»

(تقمّص باديا لبليك مظهر وجيه مسلم، وزار مكة باسم «علي بك العباسي»، وهو رحالة إسباني مستكشف ومستعرب وسياسي، وصف المغرب وطرابلس وقبرص ومصر في رحلته (1803-1807م) وكانت زيارته لطرابلس سنة 1805م، وقد وصف الرّحالة باديا المآذن بالمخروطية، والمخروط في علم الهندسة مُجسَّم يبتدئ من سطح، ويرتفع مستدقا حتى ينتهي إلى نقطة أو سطح أصغر من قاعدته.)

وزار طرابلس الرّحالة الألماني الشهير «بارث» وسجّل انطباعاته، وممَّا دوّنه:

«أقمتُ بطرابلس الغرب ستّة أيام، ويُضاف الغرب إلى اسمها تمييزًا لها عن طرابلس الشام... موقعها جميل وموفَّق، مرتفع صخري صغير متغلِّل في البحر، ويتصل بواسطة سهل رملي بواحة من النخيل الكثيف التي تحيط بها من كلّ الجهات، ويُعْرَف هذا السّهل باسم المنشية... ولموقع طرابلس أهمية عظمى حيث تنطلق منها أقصر الطرق إلى قلب تكرور والسودان.»

«وبالنّظر للنشاط التجاري مع دواخل إفريقيا فإنّه من الطبيعي أنْ نجد في متاجرها المجهزة بصفة عامة تجهيزًا حسنًا جميع المنتوجات التي تأتي من تومبكتو وبورنو، وأهم المصنوعات اليدوية ومنها: البسط والأحزمة الحمراء وأشياء أُخرى مشابهة وأعمال الصناعة.

ويجري هنا تصدير الصوف الممتاز والسنامكي، وبعض التوابل الأخرى، وعروق الرُّوبية، وجلود الماعز والضأن المدبوغة، والفواكه المجفّفة كالتمور وغيرها، ومنتوجات البلدان الجنوبية، ولكن التصدير الآن أضعف من الاستيراد.»

«ويبلغ عدد سكان المدينة بما في ذلك اليهود الذين يشغلون القسم الشرقي منها وينصرفون للتجارة وصناعة الذهب والفضة – عددًا يتراوح بين ثلاثة عشر إلى أربعة عشر ألف نسمة»، ويعلّل الرّحالة هذا العدد القليل بأنّه ناشئ من أثر الحروب الداخلية بين أفراد العائلة القرمانلية.»

وحين كان الرحالة «بارث» بطرابلس شاهد قافلة يتقدمها «مهريّ» فوصفه أجمل وصف قال: «وقد كان من حظي أثناء إقامتي بها أنْ شاهدت وصول قافلة من غدامس، تتألف تقريباً من ألف جمل، محملة بالتبر واللؤلؤ والزعفران والتوابل وريش النعام والعبيد... إذ إنّ تجارة الرقيق ما تزال قائمة هنا، ولم تُلْغَ، وقد سدَّتْ هذه القافلة تقريباً كل طرق المدينة لبضع ساعات، أبلغ بوصولها، قبل ساعات من دخولها للمدينة، رائد يتقدمها ويركب مهرياً عاليا كأنه زراقة رائعة، ذلك المهري ساكن الصحراء العجيب والذي يمثل هو والطارقي كل طبيعة هذه البلاد، كان ذلك هو الحيوان الوحيد من نوعه الذي تمكنت من رؤيته، وما زلت حتى اليوم أعتبر أنَّ رؤيتي له كانت حظًّا حقيقياً، ذلك لأنه من الحالات النادرة أن يأتي هذا الساكن الصحراوي حتى الساحل الذي لا يطيق طقسه. وهذا الحيوان العداء الكريم ليس صديقاً للجمل العادي، بل يضمر له عداء مريراً لا يمكن التغلب عليه إلا بعد فترة طويلة من الألفة والترويض، وربما كان هذا النوع الذي رأيته نموذجياً، فيما تميز به من جمال خاص، وعلو فائق، ونحافة رشيقة زائدة، كما كان وبره يلمع لمعان الحرير، وقد زاد من جماله الطبيعي تلك الحَوِيّة الرائعة الغنية بزخرفتها ووشيها الرفيع.»

(بارث: رحالة ألماني، عالم لغوي آثار، بدأ رحلته عام **1845** بعد دراسته العربية في لندن، نُشر كتابه عن رحلاته عبر المناطق الساحلية في البحر الأبيض المتوسّط سنة **1849**م، أمّا رحلاته واستكشافاته في شمال ووسط إفريقيا فهو في خمسة أجزاء (**1857** و**1858**م، والحَوِيّة: كساء محشوّ يُحَوَّى حول سنام البعير تركبه المرأة.)

وخصّ الرّحالة الألماني «نختيجال» طرابلس بشيء من الوصف في رحلته المشهورة باسم «الصحراء والسودان.»

«إنَّ أنشط مظاهر الحياة في مدينة طرابلس تتجمع حول هذا الحي (حي باب البحر) فهناك المقاهي بروادها من مختلف الأجناس، ودكاكين الحلاّقين، ومتاجر المالطيين الصاخبة، ونشاط التجارة البحريّة.

وتحدث نختيجال عن شخصيتين بارزتين، الأُولى هو: الوالي علي رضا باشا، وشيخ البلد «علي القرقني» والذي كان يُمارس الأعمال التجارية، بنى فندقًا، وملك محلات تجارية بسوق الرّباع، وحمام النسي (النساء) بطريق الحلقة، وبواخر خاصة به تعمل بين

مالطا وطرابلس، وتُحْمَل كل عام هداياه إلى كبار رجالات الآستانة، عُيِّن أول عميد لبلدية طرابلس 1870م، وبعد ثورة الأهالي عليه أيام الوالي العثماني محمد حالت باشا (1870-1871م)، هاجر إلى تركيا وتوفي في إسطنبول عام 1874م.)

(نختيجال: رحّالة ألماني له: الصحراء والسودان»، انطلق من طرابلس 1869م إلى بورنو عن طريق فزَّان، ومع العام 1871م ارتحل صوب تيبتسي في رفقة من أولاد سليمان.)

وفي فبراير من عام 1880م. يصل طرابلس الرّحالة الإيطالي «كامبيريو» صاحب مجلة «المكتشف» الّتي تصدر بميلانو، وُصِفَ بأنه من غلاة الدّعاة الاستعماريين، من أولئك الذين أسهموا بنصيب وافر في تكوين الرّوح الاستعمارية الإيطالية الحديثة، وقد كان اهتمام كامبيريو للجانب الاقتصادي، وما يمكن أنْ تقدمه البلاد من إمكانات للاستثمار، ومن مذكراته:

«إن مدخل الميناء ضيق والصخور تضايقه من كل مكان، ولكن الميناء طبيعي ورائع غير أنه غير مأمون، ويمكن بإنفاق نصف مليون ليرة تحويله إلى ميناء آمن بغلق الفتحات التي تتخلل الجزر الطبيعية التي تكوّن الميناء» ويصف المنظر البهيج لطرابلس كما تبدو من البحر بنخيلها ومآذنها ومراكبها مما يبعث في النفس انطباعا حسناً عنها، ويذكر لنا أنّ أجمل منازل طرابلس هي التي تقع في شارع البحر، وليس للشوارع أسماء.

ولأن شوارع المدينة تتميز بأقواسها فيرى أنَّ ذلك لتدعيم المنازل التي لا تقوم على أساسات متينة، وهذه الأقواس تمنح المدينة طابعًا فريداً خاصًّا يتميز بالأصالة والجمال.

(كامبيرو، رحّالة إيطالي، صاحب مجلة المستكشف التي كانت تصدر بميلانو ومؤسس جمعية الاكتشافات التجارية.)

وقام السياسي والصحفي الإيطالي تومياتي برحلة زار خلالها طرابلس وضواحيها، وسجل انطباعاته في كتابه «طرابلس الغرب»، يقول: «أما شوارعها فينبغي أن لا تجتازها ليلاً حيث يمكن لأية خطوة أنْ تكلفك حياتك، فالضجيج يخبو والخطوات تختفي في الحي العربي الذي لا يجرؤ أحد على اجتيازه، حتى الشرطة التركية، فالعربي شديد الغيرة على حيه ومنزله، ووراء كلّ سؤال، وخلف كل سرّ تختفي المرأة دائماً، ولكن عندما يستيقظ الفجر بين أشجار النخيل فإن مدينة أخرى تخرج من نومها، وينتشر مشهد رائع متعدد

الألوان أمام أبصارنا، وتستيقظ الشوارع كما تستيقظ شهرزاد الجميلة، وهناك ترفرف آلاف الأردية البيضاء بالقرب من شاطئ البحر لتستغرق في البيع والشراء، حيث يباع كل شيء (البرتقال والليمون هنا أجمل منه في جزيرة صقلية) وآلاف الأطنان من الحلفاء تشحن أسبوعياً إلى إنجلترا وأمريكا وما تزال طرابلس العاصمة الكبرى لتجارة السودان وجميع منتوجات أواسط إفريقيا تتدفق على شواطئها عبر طرق قوافلها التي ترجع إلى آلاف السنين، والحياة تنشط في أسواق المدينة حتى منتصف النهار، وبعد أنْ تتمّ كافة المعاملات التجارية فإنّ الكسل يستولي على النفوس التي يلوذ بعضها بالأسوار العتيقة، المقاهي أو المتاجر الكبيرة، وهم يتحدثون (أفصح) وأنقى لهجة بين سكان الشمال الأفريقي».

(توميای: سياسي وصحفي إيطالي، زار طرابلس وضواحيها وبنغازي أيام الوالي رجب باشا **1906-1909**م، له: «طرابلس الغرب».)

ومن ضمن رحّالة القرن التّاسع عشر «كوبر» الذي يسجّل أنّ المدينة تنقسم إلى أربعة أحياء تُسمَّى حُومَات، وهي:

-1 حومة باب البحر في القسم الشّمالي الغربي من المدينة، وفيها: شارع قهوة دحمان، وجزء من الحارة الكبيرة، والقنصلية الإنجليزية، والقوس الرّوماني، وجامع قورجي وجامع سيدي سالم المشاط...

-2 حومة البلدية في القسم الشرقي من المدينة، من باب البحر إلى أسفل وفيها: الأسواق والحمامات، ومساجد: أحمد باشا، وشائب العين، والناقة، ومركز البلدية، والقنصلية الإيطالية، ومدرسة عثمان باشا...

-3 حومة كوشة الصفار، وهي إلى الغرب من المدينة، ويسكنها المسلمون، وتخلو من المباني العامة، وهي نظيفة منظّمة.

-4 حومة غريان: في القسم الجنوبي من المدينة: وفيها: الحارة الصغيرة ويسكنها اليهود.

(هذه حومات المسلمين الأربعة.)

وأهم شهادة له هي تلك التي تسجل التّسامح الديني، يقول: «إذا أراد المرء حقًّا أنْ يعرف كيف يعيش المسيحيّون في طرابلس فعليه أنْ يذهب إليها في عيد الفِصْح، لأنَّ

الكاثوليك يحولون المدينة إلى شعلة ملتهبة بالألعاب النّارية في هذه المناسبة، ويطلقون مدافع «المورتار» كلّ ساعة تحية للعيد، من ثمانية عشر إلى عشرين مدفعا في الميدان، ويُقال إنَّ هذه العادة نشأت من عادة تحية الباشا الذي كان يزور الأُسقف رسميًّا، وكانت الحكومة هي التي تخصِّص البارود لإطلاق القذائف إلاَّ أنَّها الآن لا تفعل ذلك، ولكن الباشا والموظفين الأتراك يقومون في هذه المناسبة بزيارة القناصل الأوربيين» وبعد هذا يتساءل الكاتب! «والمسألة هنا هي: أين هو التعصب التركي؟ وهل سنسمح نحن في إنجلترا برقصة الأشباح يقوم بها الهنود الحمر؟! أو باستعراض للمرابطين في أوسع ميادينا؟!»

وعن أهل طرابلس ومدينتهم يقول: «إنَّ طرابلس– بين مدن الشرق– أهلها قانعون راضون، النقود قليلة، ولكن المناخ مناسب، الشمس مشرقة دائمًا، والنّاس الطيّبون راضون بحياتهم الحالمة الوادعة، فلماذا نعكّر عليهم صفوهم؟!... طرابلس ومدينتها التركية الجميلة، وشوارعها الشرقيّة الزاهية».

(كوبر: رحالة زار طرابلس 1885 و1886م.)

ودخل طرابلس جوستيانو روسي الإيطالي، الذي دَوَّن رحلته بعنوان «تونس وطرابلس اليوم»، وقد وصل طرابلس من صفاقس بطريق البحر، فبدت له طرابلس كأنها خارجة لتوّها – ببياضها النّاصع – من زرقة البحر:

«تُبدي نفسها بطريقة جيدة، وباعثة على إغراء من يتأملها من البحر، بمنازلها البيضاء، وبقلاعها الواهية، وبخضرة واحة النخيل التي تحيط بها، أشكال وحركات وألوان تعطي لهذه المدينة مظهرًا أنيقًا ساحرًا.»

ويصف ميدان السيدة مريم ويتحدث عن النادي الأوروبي الذي يجتمع به التجار المالطيون والإيطاليون، وعن قوس ماركوس الذي جعله أحد المالطيين حانة لبيع النبيذ. وممّا ذكره وجود مسرح صغير يحمل اسم الكاتب المسرحي الإيطالي «غولدوني» تُعْرَض فيه الفرق الإيطالية وبعض المغنيات اليهوديات اللّواتي يرقصن رقصة البطن».

(جوستيانو روسي الإيطالي: زار طرابلس 1901و 1902م، له: تونس وطرابلس اليوم.)

وقدمت «مابل تود» أجمل الصور الفنيّة الشِّعرية عن الحياة الطرابلسية الزاخرة بالألوان الصاخبة والهادئة في كتابها «أسرار طرابلس» حيث وثّقَتْ انطباعاتها، فقالت:

«وتُقَدّم طرابلس – بالبحر الأزرق، والرمال، وبياض المدينة الباهر، وبالعرب والبدو المحيِّرين والغامضين، وبآثار مغمورة في التاريخ – تقدّم طرابلس بهذا كلّه نصف المنسي، فكلّ حجر مليء بالإيحاء، ولأنّها الجار القريب لخرائب لا تُحْصَى عصفت بها الرّمال، كلٌّ منها بقصتها الصامتة تنتظر التفسير.

إنَّ طرابلس تقدِّم مادة لا يمكن تخيلها للفنان، وعالم الآثار، والمؤرخ، وتقدّمُ مثل ذلك للمنقِّبين عن المشاكل السّلالية، ولدارسي علم اللغات.»

وعن وصولها لطرابلس تقول:

«إنَّ وصول ميناء طرابلس المتلالئ في الصباح الباكر كان مشهدًا موحيًا تقريبًا لسفن أجنبية ترفع أعلام اليونان وتركيا وفرنسا، ولقوارب صغيرة محليّة، ولصيادي الأسماك، والغواصين على الإسفنج، ولكلّ الحياة المثيرة للفضول في مجتمع متميز غير أوربيّ.»

وتصف مابل تود شوارع المدينة فترصد الحركة فيها: «بالك..بالك.. ويقفز المرء جانبًا بسبب الصرخة المفاجئة الجافّة، ويمرُّ حمار نحيل مثقل متأنيًا، ولا وقع لحوافره الصغيرة على الشارع الرَّمليّ الأبيض.»

وعن الفراشية التي تلتحف بها المرأة الطرابلسية، وعن وجوه الرِّجال تقول:

« تلتف النِّساء بثيابهن التفافًا كاملًا ما عدا عين سوداء واحدة، ويُبدي الرّجال وجوها سمراء ذات رصانة.»

ولأنّ طرابلس في تاريخها لكلّ النّاس، فتلحظ مابل تود: «ويملأ الشوارع الرئيسة اليهود المتعجّلون، والمالطيون ذوو الوجوه المستديرة، والنّساء في اللباس الوطني، وأُمم الصحراء المتدفّقة، تمتلئ الشوارع بهؤلاء من كلّ لون، ابتداءً من الأصفر إلى البُني الغامق جدًّا ومن ثَمَّ الأسود القاتم الشّبيه بالأبنوس أو الأسود المجلوّ مثل الجلد المصنوع– إنّهم خليط من البربر والزّنوج والفزانيين والسُّودانيين في مشهد متحرّك.»

«وكانت صرخات جوقة الشارع تختلف من فرد إلى آخر: بطاطا، برتقال، وخاصة البيض الأبيض الذي يبيعه رجال سود فاحمون، وكان يرافق كل سلعة صوت خاص ونغمة خاصة ولهجة أو لغة خاصة».

«ويقرأ العرب الأتقياء القرآن، أمام متاجرهم، والاستغراق باد عليهم، إنهم لم يكونوا أبداً بمنأى عن شؤون الحياة، وكأنما يريدون على كل حال نسيان زيادة السعر التي خَصوا بها المسيحيين».

«وكان الينبوع التركي نقطة تجمع كبرى في المدينة، شُيِّدَ على شرف السلطان السابق، وهو يظلّ محاطاً دائماً بحشود مختلفة كل الوقت».

(المقصود بالينبوع التركي في زمن السّلطان السابق هو أحمد راسم باشا الذي قام بإمدادت الماء من آبار بومليانة إلى أطرابلس القديمة.)

«ولقد سُوِّرت المدينة تسويراً هائلاً سنة **1900** وكانت البوابات الثقيلة تُغلق عند السادسة وتُوصد في وجه المقيمين خارج المدينة عندما يأخذ المغيب يورد المباني البيضاء بلون وردي شهي، ولا يستطيع أحد الدخول أو الخروج حتى الصباح».

«وعندما تدار البوابتان معاً، تلتقيان على قطعة نحاسية في الشارع، كل من يطأها ساهياً في عودته من المدينة يقدر له الرجوع إليها، ولقد كان هذا حظي السعيد سنة **1905**م، رأيت المدينة الصحراوية مرة أخرى، بعد خمس سنوات، وكانت البوابة وجزء من السور قد أزيلا، وبزغ شعور غامض لإنشاء شارع واسع على الطريقة الأوربية، فرُصف شارع على شاطئ البحر وأحيط بسور ودرابزين.»

«وكانت قوارب الإسفنج ترسو أحياناً في المارينا، حيث كنا نتناول قهوة بعد الظهر في بعض الأوقات، وكان الرجال المسنون يصنعون السلال الخشبية، يجلسون في الزوايا، وكانت جبال من جرار الماء من كل الأحجام والأشكال التي يمكن تخيلها مكومة هنا وهناك، وكان يوجد في سوق السمك، سمك أحمر زاه، وأزرق لامع.

ورأيت قريباً من هذا المكان في مناسبات عديدة درويشاً ورعا ذا رأس وذقن غزيرين أجعدين، ورأس لا يعتمر طربوشاً ولا يرتدي حوليا ونظرته ذات انجذاب غريب يطالع في عينيه النفاذتين، ويمر شيوخ الطرق والأتقياء ما بين الحين والآخر، فتحييه كل يد تحية احترام».

ووصفت «مابل تود» العرس الطربلسي وتحدثت عن يوم «المَحْضَر» الذي يلي ليلة الدخلة فقالت:

«وجلستْ في صفٍ –على الأطراف– أربعون أو خمسون امرأة، شابات جذّابات في

مظهرهنّ، ولكنهنَّ مطليات بالمسحوق حتَّى البياض الشّاحب، مع مثلثات قِرْمِزيّة ناصعة مرسومة على كلّ خدّ من خدودهن، وكانت حواجبهن مخطّطة بالأسود تخطيطًا ثقيلًا، وهى تلتقي فوق الأنف، وتمتدّ عبر الأصداغ إلى الشَّعْر.»

(القِرْمِز: صبغ لونه أحمر قانٍ، ويُظَنُّ أنه عصير نوع من الديدان الصخرية، يقال: لون قِرْمِزيّ، والصَدغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن، والجمع: «أصداغ».)

وتمضي الكاتبة في وصفها للنساء الطرابلسيات:

«وظهرت في تمازج مُدهش تنانير قصيرة، سراويل طويلة، قمصان بلا أكمام من الحرير والمَخْمَل، كلّها مطرزة تطريزًا كثيفًا بالذّهب والفضة أَرَتْ كلّ لون يمكن تصويره: قِرْمِزيّ، وَرْدي، أزرق، كوبالت، أصفر، أزرق، أخضر حشيشي، حتَّى الموشِيَات الحرائر والسّلاسل والأساور، في تمازج مُدهشٍ أنيق مزخرف، ومسرحي، ذي قوة غير عادية...»

وتتمعن مابل العروس فتقول: «وجلست العروس الصغيرة في مكان بارز، ثابتة لا تتحرّك بين هؤلاء السيدات الجميلات الحاضرات، وهى أزهى وأبهى من أيٍّ منهنّ.. إنّها مزيج صاخب من الألوان الحقيقية، وكانت مخامل وحرائر قميصها وسروالها والدّبوس الفضي المتعلّق بشعرها الأسود المضفور جيدًا، والصدرية الموشاة، والحذاء الذهبي، وأرطال من الأقراط المتدلية من نصف دزينة من الثّقوب في كل أذن، وأذرع من الليرات الذهبية تلتفّ حول رقبتها الرقيقة، ومثلها من الأزهار المنسوجة في سلاسل، والمعتمدة على حبال من الزّينة، ملتفة حول خدَّيها الأبيضين القِرمزِيَيْنِ–كلّ هذا كان أكبر وأطول وأجمل وأثقل ممّا لدى الأُخريات، وكان متلائمًا مع طبيعة هذه المرحلة الكبيرة الوحيدة في حياتها.»

«جلست العروس الشّابة هادئة تمامًا، يداها المصبوغتان بالحِنّاء حتَّى الحمرة الداكنة، والمغطيتان بالذّهب بالطريقة التقليدية إلى الكوع مفرودتان على ركبتيها، بينما جلست سيدة من كلّ جانب تُرَوِّح لها، بتفانٍ مستمر في تلك الحرارة الخانقة.»

(الكوع: طرف الزَّند الذي يلي الإبهام، والجمع «أكواع»، وتُرَوِّح «من الفعل: رَوَّح عليها بالمروحة، أي: حركها ليجلب إليها نسيم الهواء.)

وتنتقل الكاتبة إلى وصف موكب الرِّجال فتقول: «موكب آخر هادئ جدًّا، في العادة

يسير فيه الرِّجال بحواليهم الخيالية، في مقدمة صانعي الفرح، وبينهم عدد كبير من الزّنوج، وهم سودانيّون من الجنوب، يقرعون الطبول، ويشعلون نارًا حمراء، ويطلقون شيئًا يشبه الألعاب النّارية، ويسير العريس في الوسط مودِّعًا العزوبية هذا الوداع المرح.»

وثيقـة: «ومهما كانت طرابلس فإنّها مدينة سحر، بيضاء كأحلام الجنَّة، مزركشة بحواش من النخيل والزيتون، ذات جذور عميقة في ذكريات القرون... تنتظر طرابلس– وقدمها في زرقة البحر الأبيض المتوسّط، ورأسها في نار السماء، وظهرها مقابل الصّمت للصَّحارَى الأبدية – قدرها الأخير، وكيفما حلّت التعقيدات الدّبلوماسيّة، فإنَّ طرابلس الناعمة الشرقيّة نصف الوسطوية، لن تكون أكثر مِمَّا هي، ولابُدَّ من أنْ تفيق أخيرًا مدينة الرّومان والعرب والأتراك القديمة المسوّرة، وتحتلّ مكانها في موكب العالم الحديث». (مابل تود)

(الوسطوية: من القرون الوسطى، مابل تود: 1900م و1905م، زوجة رئيس البعثة الأمريكية في طرابلس، لها: «أسرار طرابلس» وهو انطباعاتها إبَّان إقامتها في طرابلس.)

وقام الرّحالة الفرنسي «ماتيزيو» بزيارة طرابلس، فَأُخِذَ بمنظر الأجناس التي تَعِجُّ بها منطقة باب البحر، من عربٍ ويهود ومالطيين وزنوج... كلّ الألوان، وكل البَشْرَات، وكلّ الملامح تمتزج في تنوع لا حدَّ له.

(ورد عند خليفة محمد التليسي: «ماتزويل».)

«وفي هذا المنفذ الوحيد لتجارة السودان، شعور مختلفة، طويلة وقصيرة شقراء وسوداء، مناسبة أو مجعدة تبدو تحت مختلف أنواع أغطية الرأس من طرابيش وطواقي ومناديل وقبعات، وملابس واسعة وضيقة وثقيلة، تعرض مختلف البضائع الشائعة في التجارة المحلية، وتدلّ كلّها على حياة زاخرة كثيفة في هذه الزاوية الإفريقية.»

يلفت نظره رُخص الأسعار فيقول: « في وسعك أنْ تعيش عيشة الأمراء بعدد قليل من الدّراهم... ونسماتُ البحر تهبُّ يوميًا على شوارعها وأزقتها وتجعل الجوّ صحيًّا.»

(دخل الرحالة ماتيزيو طرابلس فجر يوم 23 أبريل 1901م.)

وحلّ «جاكو مودي مارتينو» بطرابلس، ونشر انطباعاته، ومِمَّا دوّنه:

« لو بُعِثَ أجدادنا ورفعوا رؤوسهم يتأملون طرابلس فَلَنْ يدهشهم أنْ يروا سلطانة البحر الأبيض الجميلة وهي تستلقي في وهن وارتخاء، بثوبها الأبيض الشّفاف في أحضان ذلك القوس الهلالي الذي تكوّنه شواطئها الممتدة من الجزر البحرية الصغيرة حتَّى القلعة المهيبة، وتلك الغابات من النخيل التي تُغطي الأرض بطبقة خضراء.»

ومن أقواله وهو يفحص النّاس:

« لقد ظلت (طرابلس) كما كانت، ثابتة على الزّمن، لم يغيّرها شيء، ولماذا تتغيّر؟! وكل شيء ساكن خامد لدى هؤلاء القوم الرّافضين للتقدّم... فالعرب والأتراك يجلسون في المقاهي المواجهة لشاطئ الميناء، تهبُّ عليهم نسمات البحر النّديّة، وهم يدخنون ويحتسون القهوة، وتلك غاية السعادة في نظرهم!!!»

(جاكو مودي مارتينو عضو مجلس الشيوخ الإيطالي، له: «طرابلس وقورينا وقرطاجة»)

من مراجع هذا البحث:

- معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا / تأليف مجموعة من الباحثين _طرابلس اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم ،2007.
- عشر سنوات في بلاط طرابلس / تأليف ريتشارد توللي ، ترجمة عمر الديراوي أبوحجلة طرابلس : دار الفرجاني، د. ت.
- تاريخ الفتح العربي في ليبيا / الطاهر الزواي ._ بيروت : دارالتراث العربي ، دار الفتح ، 1969.
- اعلام ليبيا / الطاهر الزاوي ._ طرابلس : مكتبة الفرجاني، 1961.
- – طرابلس بين 1510 الي 1850 /كوستانزيو برنيا ؛ تعريف خليفه التلسي ._ طرابلس : دار الفرجاني ،1969.
- – ليبيا بين الماضي والحاضر / حسن أحمد محمود ._ د.م : مؤسسة سجل العرب ،1962.
- تاريخ الدولة العثمانية / على سلطان ._ طرابلس : نشورات مكتبه طرابلس العلمية العالمية ، د. ت.
- ليبيا بين الماضي والحاضر / فرانشكو كورو ؛ خليفه التيلسي._ طرابلس :

المنشأة العامة للنشر والتوزيع 1984.

• الحوليات الليبية / شارل ميزو ؛ محمد عبد الكريم الوافي ._ طرابلس : منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي المنشأة العامة للنشر والتوزيع، 1983.

• حكاية مدينة / خليفة التليسي._ طرابلس : الدار العربية لكتاب، 1985.

• المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب / أحمد بك النائب . ط1 ._ القاهرة : مطبق الاستقامة ، 1961.

• تاريخ طرابلس الغرب / محمود ناجي ._ بنغازي : منشورات الجامعة الليبية 1970.

• مدينة طرابلس عبر التاريخ / نجم الدين غالب الكيب._ القاهرة : دار الجيل للطباعة ، 1070.

• يهود مدينة طرابلس الغرب / خليفة الأحول ._ طرابلس : مركز جهاد الليبيين، 2005.

• اسرار طرابلس / مابل لويس كود ، طرابلس : دار الفرجاني ، 1968.

• بلدية طرابلس في مائة عام / بلدية طرابلس ._ طرابلس: (د.ت) ، 1970.

• تاريخنا / الصادق النيهوم._ د.م : دار التراث ، د.ت.

• طرابلس تحت حكم الاسبان وفربسان مالطا/ أتوري روسي ._ طرابلس : مؤسسة الثقافة الليبية 1969.

• ليبيا خلال الحتلال العثماني الثلني 1835_ 1911 / انتوني كاكيا ._الطبعة الاولى ._ طرابلس : دار الفرجاني 1975.

• التذكار : فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأختيار / ابن غلبون، تعليق الطاهر الزاوي ._ ط 2 ._ طرابلس : مكتبة النور ، 1967م.

• موسوعة الأثار الأسامية في ليبيا / مسعود شقلوف وأخرون ._ طرابلس مصلحة الأثار، د.ت .

• نماذج من الفنون والعمارة الإسلامية / على مسعود البلوشي طرابلس : مكتب إدارة المدن التاريخية ،2010م.

• دراسة تاريخية عن مبنى المدرسة البحرية العثمانية / إسماعيل الفيتوري .ـ طرابلس: منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة إطرابلس ، 2020م.

• جامع درغوث : دراسة تاريخية / يوسف الخوجة –ط1.– طرابلس: منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس ، 2020.

• فندق القرمانلي لمدينة اطرابلس القديمة : دراسة تاريخه / فاطمة شنيبة.–ط1.– طرابلس : منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس ، 2021م

• دار القاضي : حوش الباشوات / أحلام ابوزبدة .– طرابلس :منشورات مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة ، 2002.

• أسواق مدينة اطرابلس القديمة /مفيدة محمد جبران .–ط2.–طرابلس :منشورات مكتب إدارة المدن التاريخية ، 2010م.

• فنادق مدينة اطرابلس القديمة / مفيدة محمد جبران .– ط2.–طرابلس :منشورات مكتب إدارة المدن التاريخية ،2010م.

• جامع الخروبة / زينب الهادي البوسيفي ، امحمد محمد عمارة /طرابلس: منشورات مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة ،2002م.

• مبنى القنصلية الأمريكية /أحلام أبوزبيدة ، عبدالرزاق قرارة .– طرابلس : منشورات مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة ، 2004م.

• محمد مصطفى بازامة، الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر.

• محمد هاشم النعسان، الحركة العلمية في طرابلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين بحث في كتاب: دور طرابلس الغرب في نشر الثقافة العربية الإسلامية.))

• محمود الصديق ابو حامد، حكاية قلعة طرابس (السراي الحمراء).

• محمود الصديق أبو حامد، ومحمود عبدالعزيز النمس، مدينة طرابلس منذ الاستيطان الفينيقي حتى العهد البيزنطي.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان.
- مشروع إعادة تأهيل بعض المباني التاريخية (خطة 2012م)- القنصلية الإنجليزية- جامع درغوت، يوسف خليل الخوجة.
- البيوت التاريخية في المدينة القديمة، الدراسات: مفيدة جبران – نعيمة القطوس – ناهد عبد المولى) التوثيق الفني: بسمة المبروك – مريم بن غيث –ريمة حمودة – مصطفى الجمل – مصطفى حفتر – لجين بن حميدة.
- بنك روما، مريم سلامة ورضا الحرك.
- أدلة الفضاءات الثقافية بالمدينة القديمة.
- إحسان عباس ومحمد نجم، ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.
- أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا.
- معاجم لغوية: لسان العرب- المعجم الوسيط.
- براين ماكلارين، العمارة والسياحة في ليبيا إبان الاستعمار الإيطالي.
- تاكر، سقوط مثل الرعد (حرب السنوات الأربع بين أمريكا وطرابلس الغرب)
- جالسبري ميسّانا، المعمار الإسلامي في ليبيا.
- حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق، محمد الأسطى وعمّار جحيدر.
- رجب الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم.
- الطيب محمد حمادي، اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والرّوماني في إقليم برقة.
- عبد الواحد ذنون طه، دور طرابلس في الفتح العربي الإسلامي (بحث في كتاب: دور طرابلس الغرب في نشر الثقافة العربية الإسلامية.)
- عمار محمد جحيدر، سالنامات ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1286هـ= 1894م).
- العياشي، الرحلة العياشية.
- عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية.

- فيليب كنريك، إقليم المدن الثلاث.

الفهرس االتفصيلي

- الأهالي (السّكان الأصليّون): اللِّيبو – المشواش...
- الفنيقيوّن في طرابلس: حضارتهم – معرفة الشواطئ الطرابلسية.
- القرطاجيّون في طرابلس: تأسيس قرطاج – الحضارة القرطاجية –إقليم المدن الثلاث – أويات: الموقع والاسم– الصراع المسلح بين القرطاجيين والإغريق في إقليم وادي كعام – أسطورة الأخوين فيليني ورسم الحدود بين القرطاجيين والإغريق – الحروب القرطاجية الرومانية –حنبعل يتخطى جبال الألب ويستعين بالطرابلسيين – اكتشافات أثرية – الرومان يدمرون قرطاج.
- النوميديّون في طرابلس (المملكة الصحراوية الأمازيغية): نوميديا في قسنطينة بشرقي الجزيرة – خضوع الأمبوريات الطرابلسية لنوميديا– نوميديا في قبضة الرّومان – ثورة يوغرتا– الحديث عن الأمازيغ وتاريخهم.
- الرّومان في طرابلس: إدماج إقليم المدن الثلاث (لبدة وصبراتة وأويا) في كيان الإمبراطورية الرّومانية في عهد الإمبراطور يوليوس قيصر – القبائل الليبية تشنّ غاراتها ضد الوجود الرُّوماني– تكفريناس وثورته ضد الرّومان – إعادة تشييد لبدة وصبراتة وأُويا– قوس ماركوس أوريليوس في طرابلس القديمة (وصفه عند الرّحالة والمؤرخين: (كنريك– العبدري– التجاني– بارث– توللي– جيرارد)– سبتيميوس سيفروس (سيرته) – أويا عاصمة إقليم طرابلس –القلاع الرئيسة الثلاث (غدامس – القريات الغربية – أبونجيم) – الدستور الأنطونيني (مرسوم كاركلّا).
- اليهود في طرابلس: إقليم برقة تحت إبط البطالمة – بنتابوليس، المدن الخمس: (قورينا (شحات) – أبولونيا (سوسة) باركي (برقة– المرج) – توكرة – يوسبيريدس – برنيقا (بنغازي) – جاليات يهودية تستقر في إقليم برقة منذ العهد البطلمي – الإمبراطور الروماني أغسطس يمنح اليهود حق الإقامة– ثورة اليهود في فلسطين – غزو القائد الرّوماني «تيطس» بيت المقدس، وتنكيله باليهود – لجوء اليهود إلى قورنيا – ثورة اليهود بقيادة (يوناتان) على السلطة الرومانية في إقليم برقة والقبض عليه وإعدامه –

ثورة مسلحة لليهود بقيادة أندرياس – جلاء اليهود إلى سرت ومن هناك إلى مدن إقليم طرابلس – إقامتهم في طرابلس القديمة – تاريخهم: الأعمال – المناسبات – قصة إستير اليهودية – منتدياتهم ومعابدهم – احتفالاتهم ... إلخ.

• الوندال في طرابلس: إقليم المدن الثلاث في قبضة الوندال – جنسيريك أعظم ملاك الوندال والمنطقة تعجّ بالثورات.

• البيزنطيّون في طرابلس– الإمبراطورية الرومانية الشرقية – بيزنطة (القسطنطينية) –جستنيان الأول الأمبراطور الرّوماني يطرد الوندال – لواتة الأمازيغية تحاصر لبدة –الناسامونس والجرمنت يثورون – البيزنطيون ينشرون المذهب الكاثوليكي المسيحي في المدن الطرابلسية والدّاخل – الأهالي الأمازيغ يعتنقون المذهب الدُّوناتي المسيحي – قلاع لحماية تجارة القوافل – الأثرى أوريجيما وحديث عن بقايا السّور البيزنطي في طرابلس – الهدوء حتى الفتح العربي.

• العرب المسلمون: ولادة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم 571م، ووفاته سنة 632م.

• العرب المسلمون في طرابلس الفتح الأوّل: عمرو بن العاصّ يدخل طرابلس – تعريب كلمة تريبولي إلى «أطرابلس» وورودها في خطاب عمرو بن العاصّ إلى عمر بن الخطاب– صحابة الرسول الأعظم في الأراضي الطرابلسية –المنيذر الإفريقي– أسوار مدينة طرابلس القديمة وأبوابها التاريخية – الفتح العربي الثاني في خلافة عثمان بن عفان– غزوة العبادلة بقيادة ابن أبي سرح.

• الأُمويّون في طرابلس: الأهالي في المدن الطرابلسية والتونسية يخلعون طاعة العرب في فترة الفتنة الكبرى – الفتح العربي الثالث في خلافة معاوي بن سفيان–القائد العبي حُدَيْج– القائد العسكري عقبة بن نافع يدخل ودّان وزَويلة وغدامس –عقبة يختط مدينة القيروان– تاريخ المنطقة المغاربية كُسيلة – الكاهنة ديهية – هشام بن عبدالملك الخليفة الأموي العاشر وثورات الأهالي– الأمازيغ (التاريخ).

• العباسيّون في طرابلس: انقضاض العباسيين على الأمويين – القلاقل في المنطقة الإفريقية.

• الخطّابيون في طرابلس: ثورة أبي الخطّابّ الإباضي - مبايعة إسماعيل بن درار الإباضي الغدامسي قاضياً - زحف الخطّابيين على طرابلس والاستيلاء على قابس والقيروان - عبد الرحمن بن رستم الإباضي أمير القيروان - ابن الأشعث من قواد أبي جعفر المنصور يواجه أبا الخطاب في ورداسة بالقرب من تاورغاء - مقتل أبي الخطاب - تشييد معقل ابن رستم في تيهرت.

• الأغالبة في طرابلس: إبراهيم بن الأغلب ونشوء دولة الأغالبة - استيلاء الأغالبة على إقليم طرابلس - المصالحة بين الأغالبة والدولة الرستمية على مناطق طرابلس - أسد بن الفرات يحتوي «هوارة» الأمازيغية، ويندفع نحو جزيرة صقلية - الرجل الصالح عبدالله الشّعّاب وظهوره أيام الأغالبة - الحصون والمحارس بساحل البحر وإيقاد النّار (البريد المستعجل).

• الطولونيّون في طرابلس: حملة عباس بن أحمد بن طولون على طرابلس - محاصرة طرابلس المدينة - إلياس بن منصور النفوسي يتصدّى للطولونيين - تراجع ابن طولون إلى مصر بعد خسارته.

• العبيديّون (الفاطميّون) في طرابلس: عبيدالله الشيعي المهدى - راية الإسماعليين الشيعة في الشّمال الإفريقي- طرابلس في قبضة العبيديين- الثورات الطرابلسية ضد العبيدين - العبيديّون يدخلون مصر بقيادة جوهر الصقلي وتخطيط مدينة القاهرة، وبناء جامع الأزهر - المعز لدين الله يتوجه إلى مصر - نزوله بطرابلس وهديته لبناء جامع الناقة - تاريخ جامع الناقة (وصفه) - ذكريات المؤلف.

• الزيريّون الصنهاجيّون في طرابلس: بُلُكِّين الزيري الصنهاجي في المهديّة، -وَهْب طرابلس له - الأمير الرّابع من العائلة الزيرية: «المعز بن باديس» وتحوّله إلى مذهب أهل السنّة وجعله المالكية المذهب الرسمي للبلاد وخلع طاعة الفاطميين - تأثير الشيخ الزَّجال فيه.

• بنو خزرون الزّناتيّون في طرابلس: فُلْفُل (فلفول) بن سعيد بن خزرون واستيلاؤه على طرابلس - الشخصية الدينية «ابن المنمر» الطرابلسي وإشادة المؤرخين به- محنته السياسية- وَرُّو (وَرْوَا) بن سعيد، والأحداث في فترة حكم بني خزرون الزناتيين.

• بنو هلال وبنو سُلَيْم: أصولهم - استيطانهم بمصر - إطلاق جموع بنى هلال وبني

سُلَيْم على مناطق الشّمال الإفريقي –علاقة المعز بن باديس وابنه تميم بهذه القبائل– تبدُّد قوى زناتة وهوارة ولواتة أمام هذه الجافل –كيف نظر الباحثون إلى هذه الجموع البشرية (الإدريسي– المراكشي– ابن خلدون).

• النّورمان الصقليّون في طرابلس: احتلال الصقليين لطرابلس في حملتهم الثانية – تولية رافع بن مطروح على طرابلس أيامهم وهي الولاية الأولى له – اثنتا عشرة سنة من الخضوع والطاعة.

• الموحِّدون في طرابلس: الطرابلسيون ينتفضون على الإفرنجة – دخول طرابلس تحت نفوذ الموحِّدين – مبايعة الموحدى «عبد المؤمن بن علي» – الولاية الثانية لابن مطروح – اعتزاله الرئاسة – حنينه لطرابلس وشرح المؤرخ الطاهر الزاوي لما أنشده ابن مطروح.

• قره قوش وابن غانية في طرابلس: الأيوبيون يطمحون الاستلاء على طرابلس– قره قوش المغامر يزحف على مدن الصحراء ويدخل طرابلس – ويخطب لصلاح الدين الأيوبي في المساجد– حصنه في منطقة قره قوش – قره قوش يفتك بأعيان المحاميد والجواري– ابن غانية يتصدّى لقره قوش – محاصرة قره قوش في ودّان وقتله – الناصر الموحِّدي يتعقب ابن غانية – مقتل ابن غانية – استقرار المُلك للنّاصر الموحدي.

• الحفصيّون في طرابلس: خضوع طرابلس لراية الحفصيّين– الطرابلسيون يشرعون في حفر خندق وتسجيل التجاني للحدث –ابن أبي الدنيا الطرابلسي – المدرسة المستنصرية.

• الوشاحيّون بنو ثابت: الطرابلسيون يثورون ضد الحفصيّين – طرابلس في حكم أسرة عربية طرابلسية – بروز ملامح الدولة المدنية في عهد أسرة بني ثابت – وفاة المؤسس (ثابت الأوّل).

• الجنويّون في طرابلس: جنوة الإيطالية (الازدهار) –ثابت الثاني واحتيال الإفرنجة عليه واحتلالهم لطرابلس – هروبه ومقتله على يد أنصاره لخذلانه البلدة – بقاء الإفرنجة في طرابلس لخمسة أشهر فقط.

• المرينيّون في طرابلس: ابن مكّي صاحب قابس – مفاوضة الجنويين وفداء طرابلس

بالذّهب – طرابلس لابن مكّي المريني – ابنه عبد الرحمن وثورة الأهالي عليه.

• عودة أسرة بنى ثابت – حضور الحفصيين مرة أخرى –عبد الواحد بن أبي حفص وتقلده طرابلس – سور الستارة – إقراره الأمن والأمان.

• الإسبان في طرابلس: سقوط الأندلس – الإسبان ينقضون على مدن الشّمال الإفريقي – تنبّه الإسبان إلى ثروة طرابلس وتنعّم رجالاتها وقلة أسلحتها – الإسبان يحتلون طرابلس – المؤرخون يصفون الغزو –أسر الشيخ عبد الله شرف صاحب القلعة – أحمد النائب الأنصاري يصف الحادثة – قصة اللؤلؤة والدّلاعة –موت فرديناند وتولّ شارل الخامس إسبانيا – القلعة أيام الاحتلال الإسباني – دراسات: سعيد بن حامد – أبوحامد – رمضان الشيباني – فيليب كنريك – أبراج الأسبان الثلاثة (الوصف) –مشاهدة الرّحالة الوزّان للقلعة في تلك الأيام.

• فرسان القديس يوحنا في طرابلس: فرسان القديس يوحنا (تاريخهم) – منح الإسبان طرابلس للفرسان – الأخوان برباروسا (عرّوج وخيرالدين) في البحر الأبيض المتوسّط واضطلاعهما بمقاومة الإفرنجة – دخول كرمان أحد قواد برباروسا تاجوراء وقيادة حركة المقاومة– أحمد الحسن الموحدي يضع يده في يد الفرسان ويحاصر تاجوراء – انكسار حملة الموحدي وخوفه من بارباروسا– ظهور شخصية «مراد آغا» واستقراره بتاجوراء وتواصله مع أهالي طرابلس وتنسيق حركة الجهاد – روايتان عن مراد آغا وكيفية التحاقه بأهالي تاجوراء –الزاوي يعجب برسالة عمر الباروني: «الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس»– تواصل مراد آغا بأعيان طرابلس للجهاد.

• العثمانيون في طرابلس: أصولهم وتاريخهم – السلطان سليمان القانوني يأمر بتحرير طرابلس – سنان باشا يحاصر طرابلس وسفن درغوت باشا تسانده بحراً، ومراد آغا وأهالي طرابلس يساندونه برًّا – العثمانيون يحرّرون طرابلس – الآستانة (دلالة الكلمة)– طرابلس ولاية عثمانية تخضع للباب العالي – شرح عبارة «جاء الترك بس» بنظام حساب الجمل – تعقيبات من باحثين ودارسين عن دخول طرابلس في عداد الولايات العثمانية (خليفة التليسي– أحمد أوزل– تيسير بن موسى– رضوان نبيل عبدالحي) دراسات أكاديمية: محمود علي – عمار جحيدر.

أوّلًا- العهد العثماني الأوّل:

- مراد آغا: (سيرته) – طرابلس في عهده – حادثة بلدة زوارة – مسجده بتاجوراء ومدرسته – تربته بالمسجد.

- درغوت باشا: تاريخه – حكمه مساحات شاسعة من البلاد – أسرة «أولاد محمد» في فزان – برج التراب (وصفه)- برج دار البارود (وصفه)- قصره (وصفه)- التسامح الديني (مقبرة النصارى) – الإنكشارية (دلالة الكلمة) – المُكْني الصفاقسي ودخوله تحت إمرة درغوت باشا – عائلات صفاقسية مهنية تنتقل إلى طرابلس – مسجده (وصفه) – إصابته في حصار مالطا ودفنه بمسجده.

- جعفر باشا: سيرته – ثورة يحيى السويدي واحتفاء أهالي تاجوراء به وإطلاق اسمه على أحد مساجدها- محاصرة السويدي لطرابلس ثم رجوعه عنها – القبض على السويدي وازهاق روحه –انتهاء الثورة وخضوع تاجوراء لعسكر الوالي العثماني جعفر باشا.

- سليمان داي (صِفْر داي): تجديده لمسجد الناقة –السجن التركي القديم (الأول في العهد العثماني) – اعتماده البطش والتنكيل وزيادة الضرائب على السكان – التواجير يشتكون إلى السلطان العثماني – إعدام صِفَرْ داي بأمر من الآستانة.

- مصطفي شريف باشا (تاريخه) – تأسيس القنصلية الفرنسية (1630م).

- رمضان داي: شخصيته الضعيفة – نفوذ امرأته الشبلية، – غضب الناس عليه !

- محمد باشا الساقزلي: نسبه ومواهبه – التخلص من مريم الشبلية – «وظيف القضاء» وتعقيب الطاهر الزاوي- عنايته بالأسطول وتصديه لسفن الإفرنجة – مواجهته العنيفة لثورات الأهالي – الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانية وكنيسة السيدة مريم الكاثوليكية- الحمام الجديد (السجن الثاني في العهد العثماني الأول)- موته بتفاحة مسمومة.

- عثمان باشا الساقزلي: من أعماله: مدرسة عثمان باشا الدينية – قصر عثمان باشا (موقعه)- الصراع البحري بين البحرية الطرابلسية والاساطيل الغربية، تشييده للحصون والقلاع – مساكن أثرياء ووجهاء طرابلس- مدرسته (الوصف) – الحمام

الكبير (سجن الأسرى) – الفندق الكبير (فندق الباشا) – سوق الرباع القديم – المشاركة في معركة الدردنيل – قبائح عثمان باشا وتتبع المؤرخين – موته بشرب السُّمّ بعد محاصرته من قِبَل العسكر.

- الفترة الزمنية (–1672 1687م):

- محمد باشا الإمام (شائب العين): سيرته – «شائب العين» – اهتمامه بالعمران والأسطول – سوق الترك (وصفه) – الأوروبيّون يسرقون آثارنا – مسجده الذي بناه (وصفه) – خلعه وعودته إلى الآستانة – رجوعه في عهد صهره – وفاته بطرابلس ودفنه بجامعه.

- مبايعة الدرغتلي (القهوجي) وثورة الجند عليه واختيار الغليبولي – خليل بك – الجنّ يقلد الخوجة الولاية – قيام أبو أُمِّيس على الجنّ – ظهور أحمد باشا القرمانلي – السنوات العشر الأخير من العهد العثماني (الفوضى – الخرافة)

ثانيا- القرمانليّون: الكوارغلية - مصاهرتهم للأهالي.

–1 الرجل الأول: أحمد باشا القرمانلي: تصفية أعدائه – قضاؤه على نفوذ الإنكشارية والضباط العثمانيين – قضاؤه على الانشقاقات والانتفاضات – علاقاته مع الدول الأوربية – القنصلية الإنجليزية – تسامحه مع أصحاب الديانات غير الإسلامية – برج أبوليلة وصفه – ذكريات المؤلف – الأسطول الفرنسي يباغت طرابلس – ميكاكي ووثيقته – ابن غلبون يؤرخ للقرمانلي الكبير –عنايته بالزراعة والرَّعي –زَخْر طرابلس القديمة بالحرف والصناعات التقليدية –نمو موارد الدولة – جامعه ومدرسته (الوصف) – فقد بصره وانتحاره.

–2 الرجل الثاني: محمد أحمد القرمانلي: عاش على أمجاد والده – ظهور ربابنه كبار – كثرة ثورات الأهالي خارج طرابلس عليه.

–3 الرجل الثالث: علي بن محمد بن أحمد القرمانلي (علي الأوّل): عنايته بالزراعة والتجارة وتشييد المباني في أول عهده – حوش القرمانلي (حوش الحريم) – انتعاش العلاقات الدبلوماسية بين طرابلس والبندقية – عبد الرحمن آغا البديري (السفارة) – المحظية إستير اليهودية – الفوضى وفتك الطاعون بالناس – نشوب الصراع بين أبنائه

(الحرب الأهلية) – إغلاقه باب زناتة.

برغل في طرابلس: استيلاؤه على طرابلس –»بُرْغل» (الدلالة) – حمودة باشا باي تونس يأمر بملاحقة برغل – تحالف القرمانليين مع باي تونس – هروب برغل – عودة القرمانليين إلى طرابلس.

–4 الرجل الرابع: أحمد باشا القرمانلي الثاني: تنازل علي باشا عن الحكم لابنه أحمد باشا الثاني – تمرد الابن «يوسف باشا» على أخيه.

–5 الرجل الخامس: يوسف باشا القرمانلي: وصفه وسيرته – السنوات العشر الأُولى من حكمه – تولى يوسف باشا القرمانلي حكم طرابلس بأقاليمها الثلاثة (طرابلس وبرقة وفزّان) – طرابلس التمدن والانفتاح – عنايته بالبحرية الطرابلسية – وزراء البحرية الطرابلسية (رؤساء المرسى) – تاهية وقورجي – مجموعة قورجي المعمارية (الجامع والمدرسة)– العلاقات الطرابلسية الأمريكية – افتتاح القنصلية الأمريكية (الموقع والوصف) –كاثكارت أوّل قنصل أمريكي بطرابلس – حرب السنوات الأربع –الفرقاطة فيلادلفيا وقصة أسرها – حرق فيلادلفيا – احتلال درنة– اتفاقية سلام وصلح بين الباشا يوسف والأمريكيين – معاهدة التجارة والملاحة بين طرابلس والقوى الكبرى– مقارنة بين رؤيتين: النيهوم وتاكر في أحداث هذه الحرب.

–6 الرجل السادس: علي باشا القرمانلي (علي الثاني): يوسف باشا يعهد بالولاية لابنه البكر «علي الثاني» – أهالي المنشية والساحل يتبرّمون من علي الثاني – تدخل الآستانة وإنهاء الحكم القرمانلي.

ثالثاً– العهد العثماني الثاني:

- مصطفى نجيب باشا: فترة قصيرة من الحكم
- محمد رائف (رئيف) باشا: مقاطعة الأهالي للأسواق – لجوء الوالي رائف باشا إلى العنف ومهاجمة تاجوراء – استدعاؤه إلى الآستانة وتولية والٍ جديد.
- طاهر باشا– حسن باشا– عشقر باشا: الجزّار من قواد عشقر باشا وسياسة عنيفة ضد الأهالي وركود تجاري.
- محمد أمين باشا: سيرته – المستشفى العسكري.

- حاجي أحمد عزت باشا: وباء الكوليراء – الاهتمام بالترسانة البحرية– مضاعفة عدد الحاميات – قصة الجنديين الفرنسيين– فرض المعونة العمومية.
- أحمد عزت باشا (وهو غير حاجي أحمد عزت باشا): الولايتان الأولى والثانية: سيرته – المكاتب الرشدية – البريد – مباشرته لمستشفى الغرباء وسوق الحميدية.
- محمود نديم باشا: إشادة الأهالي والقناصل الأوربية بسيرته – غرس أشجار الزيتون وتطوير الصناعات المحلية– نشوب ثلاثة حرائق – إبطال عادة «رأس الجمل» الموروثة عن العبيديين.
- علي رضا باشا (الجزائري): الولايتان الأولى والثانية – سيرته – صورته حسنةَ عند الناس – برج الساعة (وصفه) – إنشاء قضاء مدني، وجزائي، وتجاري – تنظيم البريد – تشجيع البناء خارج الأسوار – الحديقة العمومية – مرسى الحلفاء – سوق العزيزية (شارع الاستقلال) – أنقص امتيازات القناصل الأوربية– حديث الرحالة الألماني نختيجال عن هذا الوالي.
- محمد حالت باشا: موسم جدب وندرة الحبوب بالبلاد – عام الجزر (عام الذّبح) كاكيا يردُ على فيرُّو في تشخيص هذا الوالي.
- محمد نظيف باشا: الفرنسيون يحتلون تونس– الخوف على طرابلس– انتشار المجاعة (سنة الدقيق).
- أحمد راسم باشا: كفاءته وإخلاصه – مستشفى الغرباء (وصفه) –المدرسة البحرية العثمانية – زراعة أشجار التوت (حدائق راسم باشا بسيدي المصري) –استقدام ماء الشفه من آبار بومليانة (وصف الحدث كما ورد.)
- نامق باشا: مدرسة الفنون والصنائع خارج السور– التجنيد الإلزامي – إمداد المياه من آبار عين زارة.
- حافظ باشا: إحصاء السكان – إنشاء المصرف الزراعي – تسجيل الأراضي – تحصيل الضرائب –كسوف كلي للشمس في عهده (الوصف).
- حسن حسني باشا: حالته الصحية المتردية – اكتساح وادى المجنين طرابلس.
- رجب باشا: المدرستان التكميلية والعليا – تركيا الفتاه – تجميل المدينة –

استدعاؤه إلى الآستانة ثم عودته– فتح باب الحرية– فتح شارعين وإنشاء حديقة صغيرة بالقرب من الفندق الكبير.

- إبراهيم باشا: إحصاء السّكان – علاقة سيئة جدًّا مع إيطاليا.

مظاهر الحياة العامة (العهد العثماني الثاني):

أسلوب الإدارة – ولاية طرابلس أربع متصرفيات (سناجق) –مدخول الخزانة في ولاية طرابلس – النظام القضائي – قانون الأراضي –سكان طرابلس المركز: احصائيات – البلدية – الشبكة المائية – الجاليات الأجنبية – الاشجار والثمار – الصناعات التقليدية – ملبوسات الرّجال والنساء – صناعة الذهب والفضة – نبات الحلفاء – الإسفنج – تجارة القوافل – التبغ والملح – الحرير وزراعة أشجار التوت – أحجار الصَّوّان – صناعة الفخار.

- الإيطاليّون في طرابلس: بنك روما القديم (بوسعاية النصارى): موقعه – وصفه– استثماراته – تمهيده للغزو – الأسطول الإيطالي قبالة الشاطئ الطرابلسي – الحامية التركية – قصف طرابلس – نزول القوات الايطالية – الجنرال كانيفا – المجاهدون والحامية التركية يستعدون للمقاومة– معركة الهاني وشارع الشط – إعلان ايطاليا ضم طرابلس– معاهدة أوشي لوزان – الجمهورية الطرابلسية – توقّف المقاومة – ليبيا الشاطئ الرابع لإيطاليا.

- العمارة والسياحة في ليبيا إبّان الاستعمار الإيطالي – قوس ماركوس – الفاشية في إيطاليا – الدوتشي موسوليني.

- جوزيبي فولبي حاكم ليبيا – الاستيلاء على أراضي الأهالى – النظام الضريبي – لجنة الصيانة والمحافظة – بياتزا إيطاليا (ميدان الشهداء) – طريق فيتوريو عمانويل الثالث (شارع الاستقلال) – ميدان الكاتدرائية – نُصب تذكاري لصرعى الحرب الإيطاليين (خزان المياه حالياً)– جادة لونجو ماري كونتو فولبي (شارع إدريان بلت) .

- دي بونو حاكم ليبيا – معرض طرابلس التجاري – قرية طرابلس للصناعات التقليدية وعروضها في مدن إيطاليا– منظومة سياحية (الفندق الكبير) – زيارة موسوليني الأولى.

• بادوليو حاكم ليبيا – أسوأ وأعنف الحكّام – مراكز اعتقال في إقليم برقة– عمليات حربية لـ (غراتسياني) – انتهاء المقاومة – المعماريون الميلانيّون ومخطط جديد معماري – سلسلة فنادق – انتقال المعرض التجاري إلى جادة صقلية (شارع عمر المختار) – الشروع في السياحة الداخلية – حملة السيارات.

• بالبو حاكم ليبيا – سيرته – قصره – مبادرة العفو العام – دمج الأهالي في الدولة الإيطالية وإقرار منح الجنسية الإيطالية – الصناعات التقليدية وتأسيس مدرستين في مبنى دار البارود – البنية التحتية – مشروع شق الطريق الساحلي – مشروع الاستيطان – تصميم قوس الأخوين فيليني – الأثرى المرموق فيليب كزيك يصف القوس – فندق المهاري (الوصف)– الجمعية الليبية للسياحة والفنادق (ايتال) – زيارة موسوليني الثانية ومسرحية «أوديب ملكاً» على مسرح صبراتة – مسرح الودان.

• الإنجليز والفرنسيّون:

• الحرب العالمية الثانية – إيطاليا تساند الرايخ الثالث «هتلر» – تأسيس الجيش الليبي– مونتجمرى في طرابلس – الفرنسيون في الجنوب – مشروع بيغن سيفورزاء.

• الاستقلال – الجمهورية العربية الليبية – دولة ليبيا.

• طرابلس في عيون الرّحالة والمؤرخين: ابن حوقل – البكري – الإدريسي – عبد الواحد المراكشي – العبدري – ابن رشيد السِّبتي – التجاني – ابن بطوطة – الوزان (ليون الإفريقي) – العياشي –الناصري – الدرعى – الحشائشي – جيرارد – الفيسي ميلانوفيتش – أغسطينو بلاتو – الآنسة توللى – باديا لبليك (علي بك العباسي) – بارث – نختيجال –كامبيريو – تومياتي –كوبر – روسي – مابل تود – ماتيزيو – مارتينو.

السِّيرة الذّاتية العلمية

عبدالله عبدالحميد بن سويد

- وُلد في 1948/5/17 بالمدينة القديمة/ طرابلس– ليبيا
- ليسانس لغة عربية– جامعة طرابلس 1972م.
- ماجستير علم اللغة العام (علم اللسانيات)– جامعة القاهرة 1977م.
- دكتوراه علم اللغة العام– جامعة واشنطن سياتل 1982م.
- أستاذ أكاديمي بكلية اللغات– جامعة طرابلس 1972- 2016م.

من أساتذته:

أ. عبدالله الهوني (ليبي) (المرحلة الجامعية).

أ.د. عبدالصبور شاهين(مصري) (مرحلة الماجستير).

أ.د. كمال بشر (مصري) (مرحلة الماجستير).

أ.د. مايك بريم (أمريكي) (مرحلة الدكتوراه).

- الخبرة:

– عضو اللجنة التربوية للاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاية الصم سابقًا.

– عضو لجان المناهج والتعريب سابقًا.

– عضو لجان إعداد الكتب المدرسية سابقًا.

– أشرف على تدريس مادة اللغة العربية في المدارس المالطية الحكومية، 1992–1998.

– أمين قسم اللغات الإفريقية بجامعة طرابلس (2003 إلى 2014م.)

– أستاذ الدراسات العليا – محاضرات – إشراف– ومشاركة في مناقشة رسائل الإجازة العالية «الماجستير» والإجازة الدقيقة «الدكتوراه» بالجامعات الليبية.

- التثقيف:

1- محاضرات عامة وتخصصية في الفكر واللّغة والتاريخ.

2- المشاركة في الندوات والمؤتمرات العلمية بالداخل والخارج.

- النشاط البحثي:

- له أكثر من ثلاثين بحثاً علمياً منشوراً بمجلات محكمة إنجليزية وعربية منها:

- مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ومجلة كلية التربية، ومجلة كلية اللغات، ومجلة تراث الشعب، ومجلة شؤون ثقافية، ومجلة المنبر، ومجلة العربية بكندا، وغيرها.

- شارك في ندوات ومؤتمرات علمية محلية وإقليمية وعالمية: تونس- الجزائر المغرب- مصر- سوريا- الأردن- اليابان- الولايات المتحدة الأمريكية...إلخ

- له اهتمامات واسعة بلغة الصم، وكان في مهمة لليونسكو بغرض دراسات تتعلق بالصم وضعاف السمع في الثمانينات من القرن العشرين.

- هواياته:

- القراءة الشاملة- الفنون- السِّياحة- الرّياضة.

- إصداراته:

1- مؤلفات في اللغة العربية.

2- مؤلفات في كتاب الطفل.

3- مؤلفات في العربية لغير الناطقين بها.

4- مؤلفات في لغة المعاقين سمعيا.

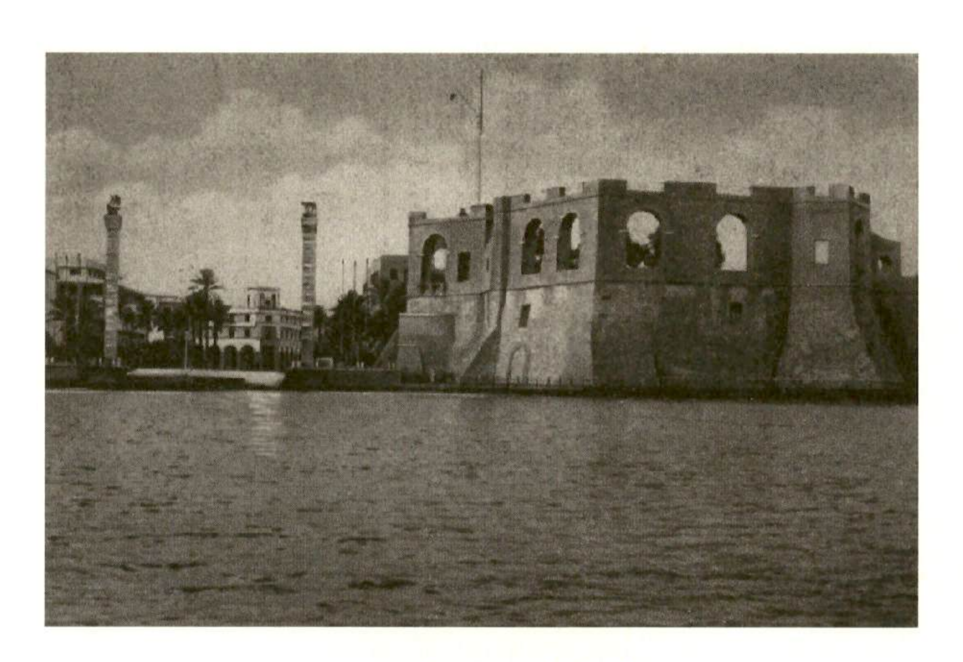
5- مؤلفات في التوثيق اللغوي.

6- مؤلفات في اللغات الافريقية.

7- مؤلفات في التاريخ.



لوحة للواجهة البحرية طرابلس



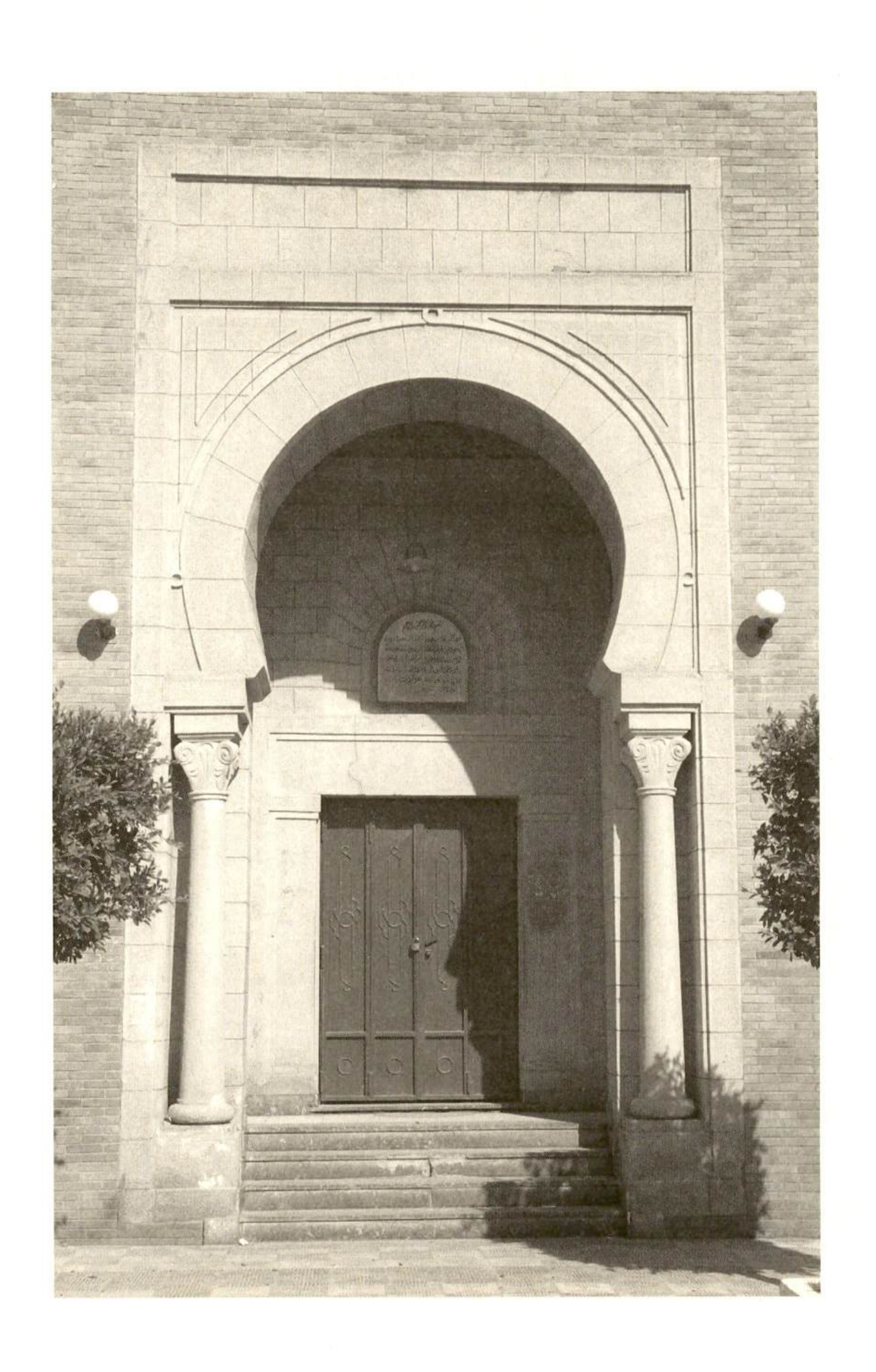
قلعة السرايا الحمراء



قوس ماركوس أوريليوس



برج الساعة



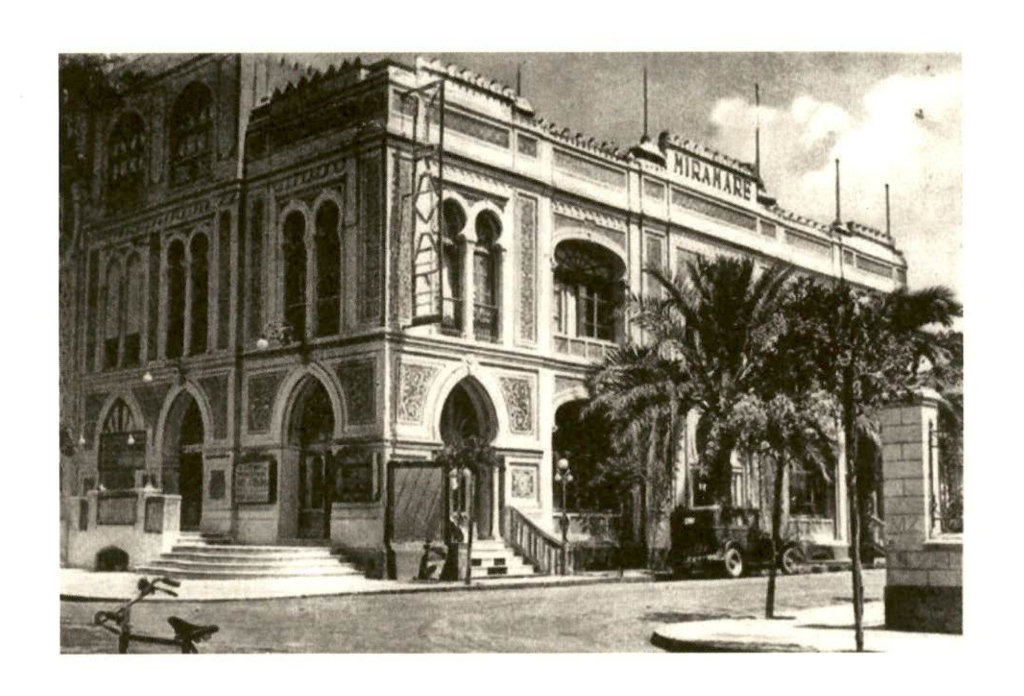
مسجد الشنشان



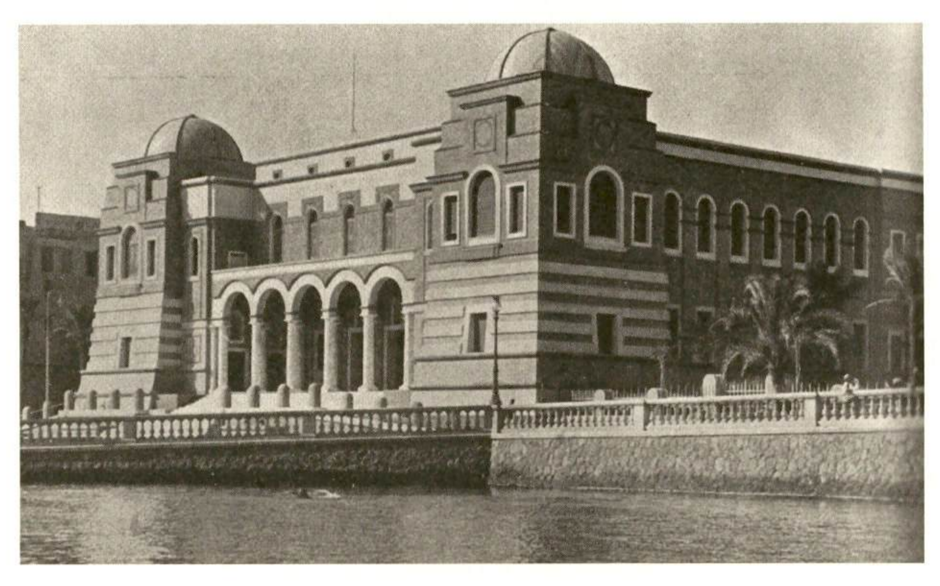
باب المنشية



باب الخندق



مسرح الميراماري



مصرف ليبيا المركزي



حديقة البلدية



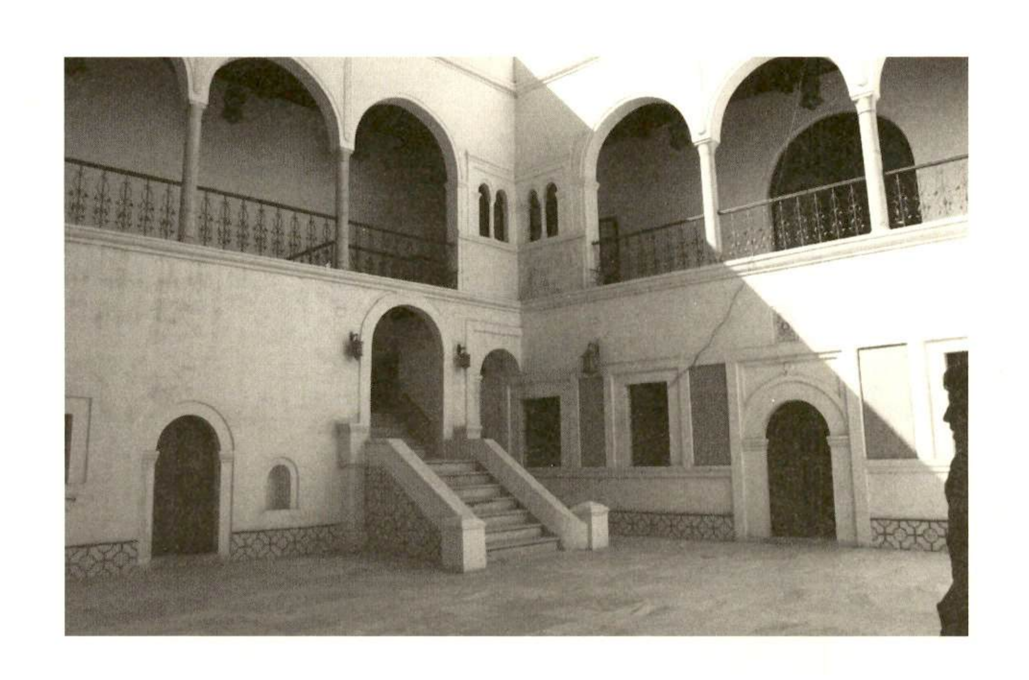
الفندق الكبير



مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية



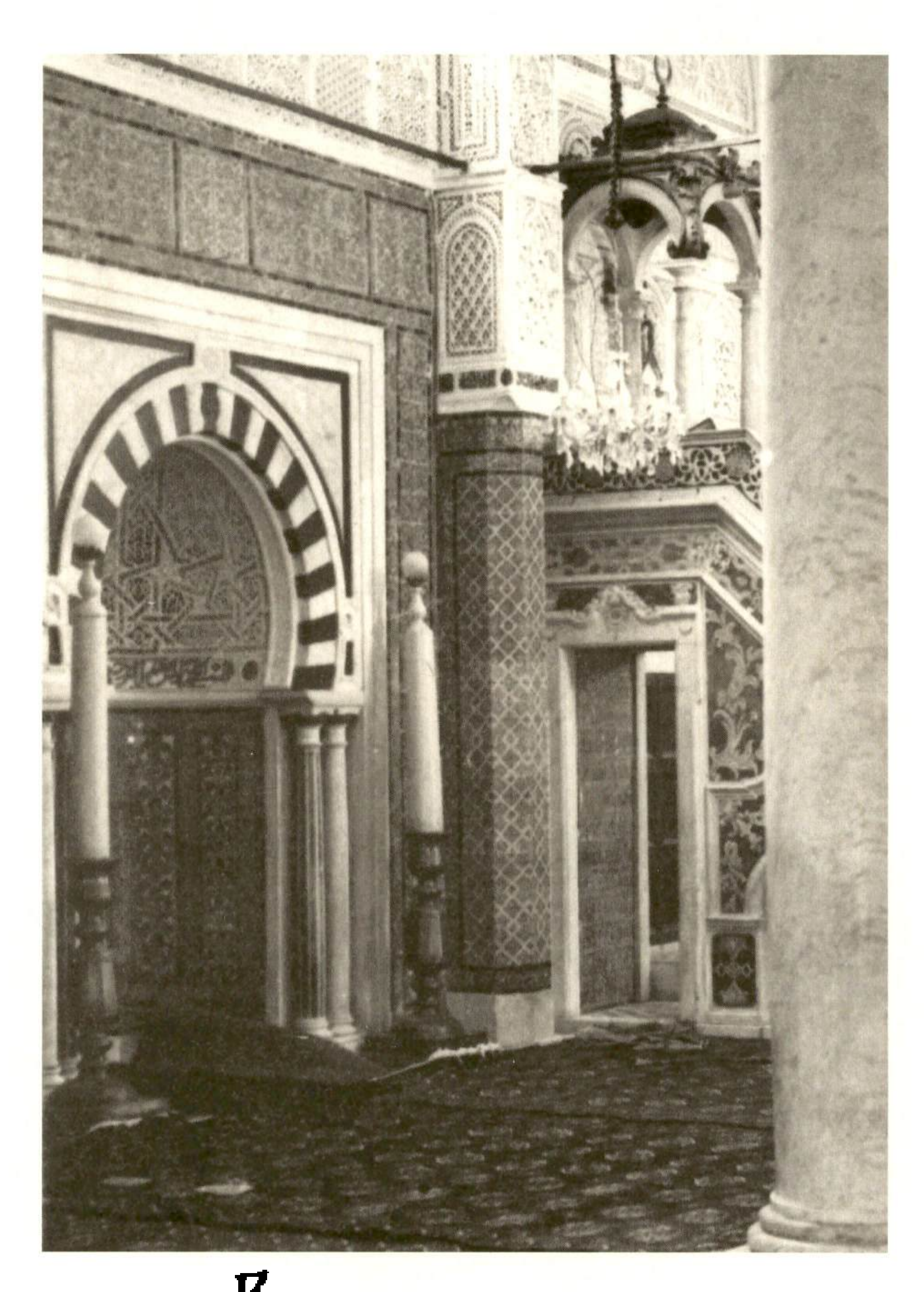
حوش القرمانلي



حوش محمود بي



حوش قنابة



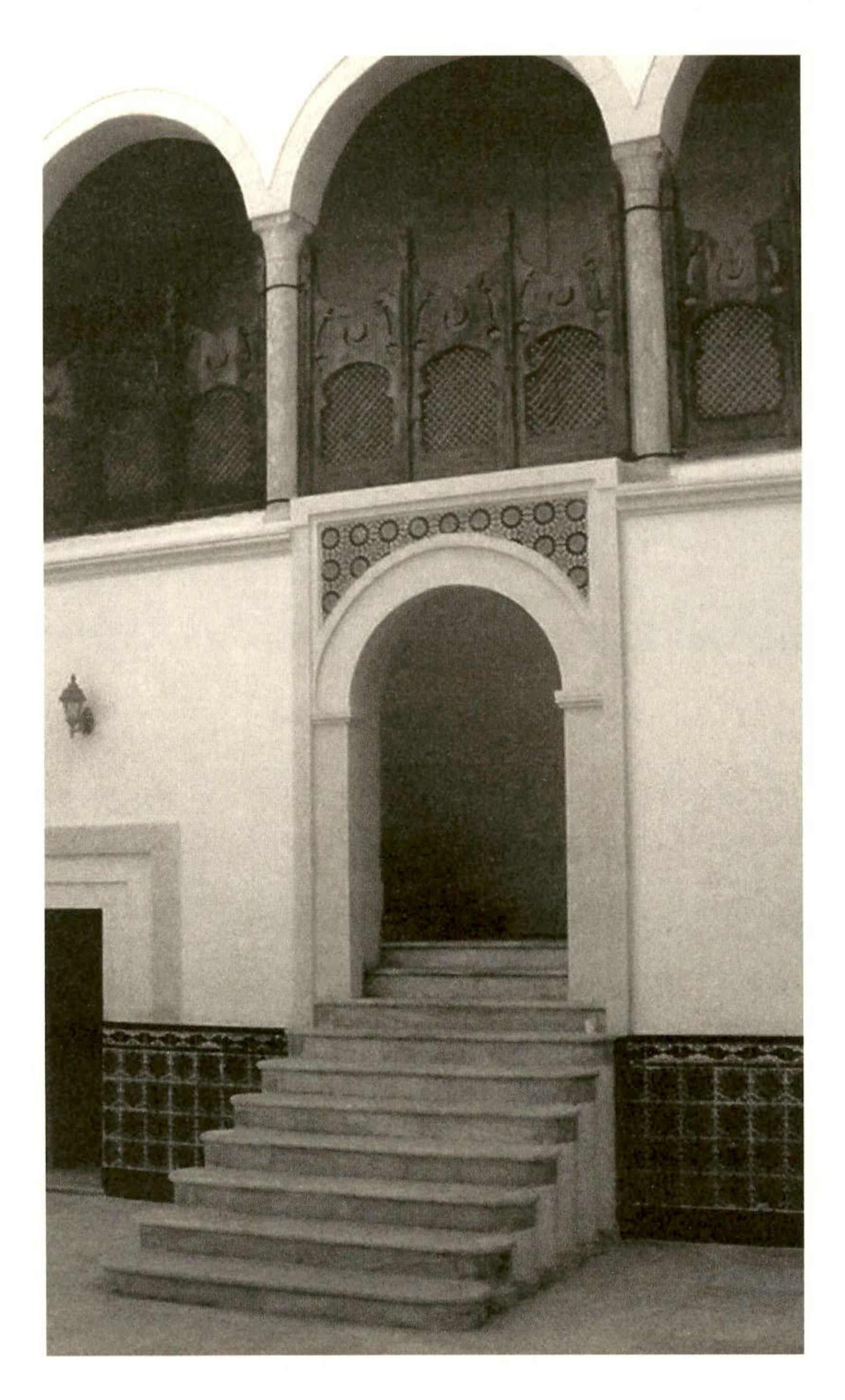
جامع أحمد باشا



معرض طرابلس الدولي



ميدان الجزائر



مبنى القنصلية الفرنسية



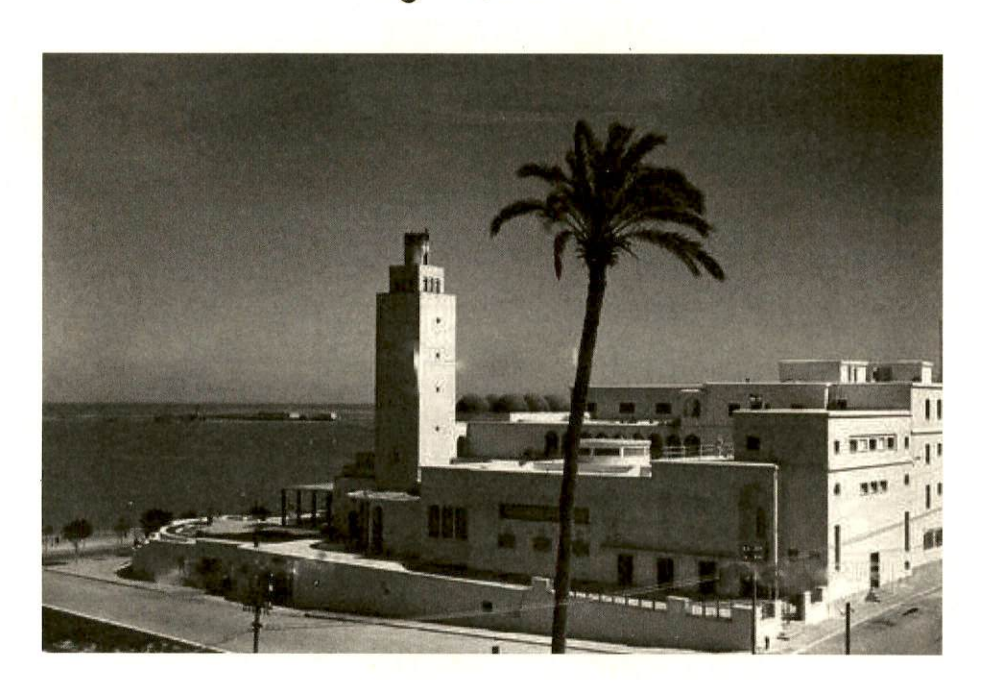
مبنى القنصلية الأنجليزية



مبنى القنصلية الأمريكية



فناء فندق الخوجة



فندق الودان





منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس 2023م